دراسات أخلاقية

في ضوء الكتاب والسنة

(الجزء الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم

٢١٢

ر ٢٩٦ الربيعي، جميل

دراسات أخلاقية في ضوء الكتاب والسنة/ جميل الربيعي

ط٣- النّجف: مكتبة الأبرار ، ٢٠٢٤

ج١ (٣٦٣ص)؛ ٢٤ سم

١. الأخلاق الإسلامية- أ- العنوان.

المكتبة الوطنية الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٩٩٧) لسنة (٢٠٢٤)

الرقم الدولي (ISBN) 978-9922-734-25-5

هويّة الكتاب

عنوان الكتاب ....**دراسات أخلاقية في ضوء الكتاب والسنة/ج١**

المؤلّف .... **الشيخ جميل الربيعيّ**

النّاشر...**مكتبة الأبرار- النجف الأشرف**

الطّبعة .... **الثالثة**

سنة الطّبع **١٤٤٥هـ-٢٠٢٤م**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

دراسات أخلاقية

في ضوء الكتاب والسنة

(الجزء الأول)

الشيخ جميل الربيعي

طُبِعَ هذا الكتاب بثواب الدّاعية الإسلاميّ الكبير

الدكتور جابر العطا رَحِمَهُ اللهُ

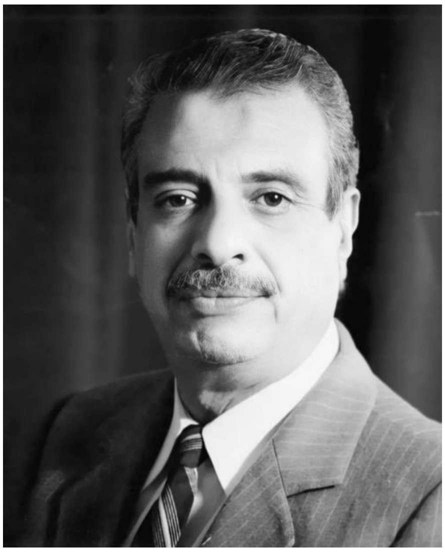

في سنة ١٩٦٦م استدعاني أستاذي العلامة الشيخ عبد الحسين آل خليفة (رضوان الله عليه)، وطلب مني أن أصحبه إلى مدينة بعقوبة لمراجعة طبيب لمعالجة حالته الصحية، ولم أكن أدري من هو طبيبه، ولما وصلنا إلى (العيادة) استقبلنا رجلٌ وسيم جميل المُحَيا، طيّب اللقاء، مُرَحّباً بنا باهتمام ولطف بالغ، فأجلس الشيخ على كرسي، وجلس بين يديه في منتهى التواضع والاحترام، وراح يسأله عن حالته الصحية، وانجرَّ الحديث إلى المسائل الدينية والعمل الإسلامي، وبعد أن عالج الشيخ، وكتب له (الوصفة العلاجية)، التفت إليَّ، وسألني: ما اسمك؟ ومن أيّ مكان؟ وماذا تعمل؟ وأين تسكن؟ فأجبته عن أسئلته كلّها، وسجّلها في دفتره، ثم قال لي: أحبّ أن أراك، فعرفت أنَّ ذلك الرجل هو الدكتور جابر العطا رَحِمَهُ اللهُ الداعية الاسلامي الكبير،ثم التقيته مرة أخرى، وبدأ يتحدّث معي عن الوعي الإسلاميّ عقيدةً ونظاماً وسلوكاً، ومن خلال حواره معي عرفت

أنّه أراد أن يدرس شخصيتي، ويعرف ما يلائمني من المستوى الفكري، والروحي؛ ليزوّدني بما يفيدني من كتب وأفكار... وهكذا تكرّرت اللقاءات بيننا، فوجدت فيه المتديّن العارف، والعبد الصالح الذي يحمل روح التغيير الفكري والتربوي والإصلاح الاجتماعي من خلال الثقافة الإسلامية؛ ومن خلال الحاج مهدي عبد المهدي (أبو زينب الخالصي) رحمه الله عرفتُ أنَّ هذا الرجل هو أحد مؤسّسي الحركة الإسلامية، وأنَّه معتمد وموثوق لدى العلماء المراجع لا سيما السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره.

يتميّز الدكتور جابر العطا بالسمو الخلقي، والهدوء الإيماني، والانضباط الحركي، والوعي التغييري، وإرادة الاصلاح، وتتجلى هذه الخصال في سلوكه قبل منطقه، فما أن تلتقيه يفتح لك ذراعيه، ويضمّك إلى صدره، ويشعرك بروح الأبوّة والأخوّة الإسلامية، ويجذبك إليه من خلال الاحترام، واللطف، والرفق، والليونة، والهدوء الذي رزقه الله إيّاه، ومن جانب آخر تجده مثقّفاً، بعيد الأفق، عميق التفكير، طاهر السريرة، صلب العقيدة، متفقّهاً في دينه، مخلصاً لربّه لا يطلب بذلك غير وجه الله عز وجل،وكان حكيماً في سلوكه الدعوي، فلا يطرح ما يستفزّ الطرف الآخر، بل يطرح الفكر الإسلامي بجماله وجاذبيته من دون أن يستثير الطرف المعاكس، فقد كان شخصية تتميز بالجاذبية، فما التقاه أحدٌ إلا وترك أثراً طيباً في نفسه لا ينساه، وهذا ما يشهد به معاصروه من الدّعاة، ومن عموم الناس الذين تعرَّفوا عليه.

وكان جيد الاستماع، قليل الكلام، يختار كلماته بتأنٍّ دقيق كأنَّه يريد أن يغرسها في قلب المخاطب؛ ليغير فكره، وعقيدته إلى فكر أسلم وعقيدة أصح؛ ولهذا كان يختار بعض الكراريس والكتب الصغيرة ، ويضعها في عيادته مخفية، فإذا ما اطمأنّ إلى أحد من الشباب الذين يراجعونه أعطاه هذا الكتاب، وطلب منه أن يقرأه، ويحتفظ باسمه؛ ليسأله عنه بعد ذلك ويتابعه؛ ولهذا أقول بضرس قاطع: إن الدكتور جابر العطا لم يكن طبيباً مهنياً محترفاً، إنّما كان طبيباً رسالياً يعالج الأرواح قبل أن يعالج الأبدان، فما راجعه أحد إلا ووضعه موضع دراسة، وتشخيص، ويحاول أن يتعرّف على النماذج الصالحة؛

ليربيها، ويُعدها للإسلام، وبهذا السلوك الحكيم استطاع أن يستمرّ في بعقوبة أكثر من عشرين عاماً يرشد، وينصح، ويربي، ويعظ، ويوجّه الدعاة، ويرشدهم من دون أن يبرز اسمه إلى خارج الدائرة، مع أنَّه كان يشارك في النشاطات الإسلامية العامة كإقامة الاحتفالات الدينية في الذكريات الإسلامية كمولد الرسول ﷺ ومولد الإمام علي عليه السلام، وغيرها من المناسبات، مع الرصد والرقابة الأمنية الشديدة له، وما أذكره في أواسط الستينات من القرن الماضي أقام المرحوم آية الله السيد عبد الكريم آل السيد علي خان قدس سره احتفالاً كبيراً حضره ممثلو المرجعية السيد مهدي الحكيم والسيد محمد باقر الحكيم، وممثلو المرجع السيد عبد الهادي الشيرازي (رحمهم الله جميعاً)، وكان احتفالاً كبيراً ألقيت فيه كلمات وقصائد رسالية ثائرة، وكُنّا نتعجب من هذا التدبير والتخطيط، فعرفنا بعد ذلك أن اليد الطولى لهذا الاحتفال هي من تخطيط الدكتور جابر العطا والحاج مهدي عبد المهدي (رحمهما الله)، دون أن يلفتا الأنظار إليهما مع شدة الرقابة الامنية آنذاك.

وعلى كل حال فإنَّ الدكتور جابر العطا يتّسم بالإخلاص لله، بصورة دقيقة، فلم يحاول أن يبرز شخصيّته على الآخرين، بل كان يسير مع المجتمع فيوجّهه، ويحرّكه، ويعمل على تغييره بدون تظاهر، ولا رياء؛ ولذلك كان يرفض الحديث عن نفسه أصلاً، فطيلة المدة التي عايشته فيها لم أسمعه يوماً يتحدث عن نفسه، بل كان يتحدث بعظمة الإسلام وشموليته وواقعيته وإنسانيته، وعموماً كان هذا العبد الصالح رجلاً ذائباً في عقيدته، عاملاً لها، حكيماً في سلوكه، مخلصاً في عمله، متفانياً في حب الله ورسوله وأهل بيته.

ومن مآثره أنَّه كان كريماً لا يرد محتاجاً، وكان يرعى عوائل الشهداء والمهاجرين، ويتفقدهم، ويواسيهم من خلال عيادته ومعالجته مجاناً، بل وبذل الدواء إليهم، وهكذا استمرَّ رحمه الله في سلوكه هذا إلى الله تعالى إلى أن ألقي القبض عليه هو وبعض أفراد عائلته، ومضى في السجن ردحاً طويلاً من الزمن فلم يغير من سلوكه، حتى

في السجن إلى أن فرَّج الله عنه، وعاد إلى بيته، فوجد أمواله قد صودرت، وبيته قد غُصِبَ، ولم يعد يملك شيئاً، وعاد إلى عمله، وفتح عيادة في بغداد، واستمرَّ على السلوك الإيماني الدعوي نفسه، ومع تردّي صحّته لإصابته بسكتة دماغية، وجلوسه في البيت لم يتوقف عن التوجيه، والإرشاد، وبذل الأموال حتى كان يبذل راتبه تقاعده كلّه للعمل الإسلامي.

كان نصف بدنه مشلولاً، ولكنَّه كان يحرّك العاملين من خلال زيارتهم له، ومن خلال الهاتف، والاتصال المستمر بالعاملين، وكان يصيح بملء صوته عندما نلتقيه: «تحرّكوا واعملوا فالساحة لكم الآن، ولا تقصروا»، وكان ينتقد بشدة بعض الذين انشغلوا بالعمل السياسي، وجعلوه هدفاً وغايةً، وانصرفوا عن الدعوة والهداية والإرشاد، بل كان يرى أن على العاملين الإسلاميين أن يعملوا على إصلاح ما أفسده حزب البعث بمواصلة الدعوة والهداية، والإرشاد، والتثقيف، ويعدّ ذلك مهمة العامل الإسلامي الأساسية لا الجلوس في دائرته، بل سمعته يوجه النقد الشديد لكثير من الذين تسنَّموا مناصب مهمة، ولم يحاولوا أن يصلحوا، ويغيّروا مَن حولهم، ويعدّهم مقصّرين.

وفي آخر لحظة من حياته، وهو على فراش الموت في المستشفى كان يغمى عليه بين حين وآخر، وحين يفيق يوصي الحاضرين بإقامة دورات قرآنية لتدريس الشباب، وعلى مختلف المستويات.

رحمك الله يا أبا محمد، أيّها العبد الصالح، وحشرك مع من تتولاهم محمداً وآل محمّد، وأسكنك الفسيح من جناته، ورزقنا الله شفاعتك كما رزقنا التعلم منك.

جميل الربيعي

النجف الأشرف

٤/ذو القعدة/١٤٤٥هـ

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
وَحَلِّني بِحِلْيَةِ الصّالِحِينَ وَأَلْبِسْني زينَةَ الْمُتَّقينَ
وَهَبْ لِي مَعاليَ الأَخْلاقِ

دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام

الإهداء:

أنجز تحقيق هذه البحوث في يوم الفاجعة الكبرى

يوم جرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

ولذا أتقدّم بإهداء هذه البحوث

إلى مقامه الشّريف راجياً من الله تعالى

أن يتقبّل منّا هذا القليل، وأن يعمّق في نفوسنا

روح الولاء لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام إنَّه سميع الدعاء

المُقَدَّمَةُ:

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى اللهُ على محمّد وعلى آله الطاهرين.

هذه بحوثٌ كُتِبَت في أوقات متفرّقة لتكون دروساً تُلقى على بعض طلاب الحوزة العلميّة في قم المقدّسة في مدرستي الإمام الرِّضا عليه السلام للرّجال، ومدرسة الشّهيدة بنت الهدى للنّساء.

وقد اعتمدت فيها على الكتاب الكريم والسُّنَّة المطهّرة، والمصادر الأساسيّة في البحوث الأخلاقيّة، وخصوصاً كتاب الأربعون حديثاً للإمام الخميني قدس سره، وقد طُبِعَتْ في سنة ١٤٢٧هـ في النَّجف الأشرف، ثم أعدت النَّظر فيها مرة أخرى، حيث أضفت إليها بعض البحوث، ونقَّحْتُ البحوث الأخرى بين إضافة وحذف وتعديل فيها؛ لتكون أكثر فائدة للقارئ الكريم.

وقد جاءت بحوث الكتاب مُقَسَّمَةً على ثلاثة أبواب بعد التَّمهيد:

الباب الأوّل: هو مدارج التّذهيب حيث درستُ فيه بشكل مختصر النَّفس في القرآن، وأهميّة معرفتها، وجهادها؛ لأجل تزكيتها وتهذيبها.

والباب الثّاني: بحثتُ فيه معالي الأخلاق، وشمل عدّة بحوث على رأسها التَّقوى، والَّتي عدَّها الإسلام أرفع الأخلاق وأزينها، كما شمل بحث الإخلاص، والعبوديّة، والزّهد، والشّكر...

والباب الثّالث: بحثتُ فيه مساوئ الأخلاق، حيث بيَّنْتُ في البحوث أضرارها، وأخطارها، ومنابعها، وأسبابها، وعلاجها.

وقد بذل قرّة عيني ولدي العزيز حسن جهوداً كبيرة في تحقيق النّصوص المقتبسة وإرجاعها إلى المصادر الأساسيّة، كما قام بتقويم النّصّ وتعديله، جزاه الله خيراً، وأقرّ عيني به في تحقيق بقيّة البحوث الأخرى، راجياً من الله تعالى أن يتقبل منّا هذا الجهد البسيط، ويجعله ذخراً لنا ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

وأخيراً أرجو من القراء الكرام أن يتحفونا بملاحظاتهم الكريمة لتلاقح الأفكار وتكامل خطوات الكدح إلى الله بتقويم الأخلاق وتهذيبها راجياً من الله التسديد والتأييد والقبول إنه سميع الدعاء.

الشّيخ جميل الربيعي
يوم جرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام
١٩/شهر رمضان المبارك/١٤٣٧هـ
النَّجف الأشرف

(١) الشّعراء: ٨٨-٨٩.

التَّمْهِيدُ:

الخُلق -بضمّ اللام وسكونها -: «هو الدّين، والطبع، والسّجية، وحقيقته أنَّه لِصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها»(١).

وفي مجمع البحرين: «الخُلْقُ: كيفيّة نفسانيّة تصدر عنها الأفعال بسهولة»(٢).

والخُلق؛ إمّا هبةٌ من الله وَهَبَها لبعض خلقه وفَطَرَهم عليها، وإمّا اكتسابٌ بمخالفة أهواء النّفس وميولها، وتربيتها على خلاف ما تهوى، وهذا ما أشار إليه الإمام الصّادق عليه السلام بقوله لإسحاق بن عمّار: «**إِنَّ الْخُلُقَ مَنِيحَةٌ**(٣) **يَمْنَحُهَا اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - خَلْقَهُ، فَمِنْهُ سَجِيَّةٌ**(٤)**، وَمِنْهُ نِيَّةٌ**»، فسأله عمّار: «فأيّتُهُما أفضلُ؟»، فقال عليه السلام: «**صاحِبُ السَّجِيَّةِ هُوَ مَجْبولٌ لا يَسْتَطيعُ غَيْرَهُ، وَصاحِبُ النِّيَّةِ يَصْبِرُ عَلى الطّاعَةِ تَصَبُّراً؛ فَهُوَ أَفْضَلُهُما**»(٥).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٨٦/١٠، (خلق).

(٢) الشّيخ الطّريحي، مجمع البحرين: ١٥٧/٥، (خلق).

(٣) المَنيحَة والمِنْحَة -بالكسر-: العطيّة والهبة.

(٤) سجيّة: جبلة وطبيعة فطر الله الإنسان عليها، وقوله: «ومنه نية» أي يكون عن قصد واكتساب وتعمّد.

(٥) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٦١/٣-٢٦٢، ح/١٧٥٥.

تَعْرِيفُ عِلْمِ الأَخْلاقِ:

علمُ الأخلاق لم يكن مجرّد نظريّات، ولا أفكار نظريّة لا مساس لها في حياة الإنسان، ولا حالات فرديّة منفصلة عن المجتمع، ولا تقاليد وأعراف اجتماعيّة منحصرة في مجتمع دون آخر، وإنّما هو علمٌ يبحث في طوايا النّفس الإنسانيّة ليدرس حالاتها المتباينة، وقواها المتعدّدة، وطاقاتها المختلفة، وما يطرأ عليها من أمراض نفسيّة؛ فيضع لها الحلول السّليمة لمشاكلها؛ ليعالج الأمراض التي يُصاب بها الإنسان؛ ليُمَلّكَهُ زمام نفسه، ويجعلها تحت إرادته، ويوجّهها لما فيه سعادته في الدّنيا والآخرة، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1].

وخلاصة القول: إنّ علم الأخلاق هو العلم الباحث في الملكات النّفسيّة المتعلّقة بقواه الباطنيّة؛ لتركيز الفضائل، ورفع الرّذائل، وبتعبير العلامة الطّباطبائي قُدِّسَ سِرُّه: «هو الفنّ الباحث عن الملكات الإنسانيّة المتعلّقة بقواه النّباتيّة والحيوانيّة والإنسانيّة، وتميّز الفضائل منها من الرّذائل؛ ليستكمل الإنسان بالتّحلّي والاتّصاف بها سعادته العلميّة، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثّناء الجميل من المجتمع الإنسانيّ»[2].

أَهْدافُ عِلْمِ الأَخْلاقِ:

«إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ»[3].

---

(١) الشّمس: ٧-١٠.

(٢) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١/٣٧٠.

(٣) الطّبرسي، مكارم الأخلاق: ٨، وبحار الأنوار للمحدّث المجلسي: ٧١/٣٨٢، وكنز العمّال للمتّقي الهندي: ٣/١٦.

هذا الحديثُ خيرُ دليلٍ على أهميّة هذا العلم في حياة الفرد والمجتمع؛ فرسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يؤكّد أنَّ بعثته المقدّسة إنّما جاءت لغرض تهذيب الأخلاق الإنسانيّة من كلّ ما يعكّر صفو الفطرة السّليمة؛ ليضع الإنسان في سلّم الكمال؛ لأنّ (تهذيب النّفس هو الغاية من كلّ كدح الإنسان وعنائه وابتلائه في الحياة الدّنيا، كما هو غاية الرّسالات الإلهيّة على الأرض).

ولهذا فهدف هذا العلم الشّريف تهذيب الغرائز والميول النّفسيّة، وجعلها تتوجّه نحو مصبّ كماله الذي أراده الله تعالى من خلقه، يقول معلّم الأخلاق آية الله العظمى الشّيخ محمّد أمين زين الدّين قُدِّسَ سِرُّهُ:

«الأخلاق هو العلم الذي يبعث الكمال في النّفس البشريّة، وينمّي القوّة والاستقلال في العقل البشري..

وهو العلم الذي يساير الإنسانيّة في اتجاهاتها، ويوجّهها عند حيرتها، ويأخذ بيد العقل عند اضطرابه، ويمدّه بالقوّة عند ضعفه..

وعلم الأخلاق هو الرّسالة العامّة، التي يلزم على كلّ حي مدرك أن يبلّغها إلى كلّ حي مدرك، وهو الأمانة الكبرى التي يجب على كلّ كائن عاقل أن يؤدّيها إلى كلّ كائن عاقل»[1].

ويمكننا ذكر أهداف علم الأخلاق - لا على وجه الحصر - بالنّقاط الآتية:

أوّلاً: جعل القوّة العقليّة هي الحاكمة والمسيطرة في شخصيّة الإنسان على ميوله النّفسيّة والموجّهة لها، وتطويع تلك الميول لإرادتها؛ فخاصيّة التّعقّل ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى؛ فإنّ أغراض الإنسان وأعماله مسبوقة

---

(١) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، الأخلاق عند الإمام الصّادق عَلَيْهِالسَّلَامُ: ٨.

على الأغلب بالتّعقّل والتّدبّر، فهو يعلّل، ويفكّر، ويقارن بين الأشياء، ويخطّط للمستقبل قياساً على الحاضر، ويستفيد من تجارب الماضي؛ ليصلح الحاضر، أمّا الحيوان فيدفعه الوهم إلى اتّباع الغريزة فيما تأمر، وفيما تنهى؛ فالإنسان يستطيع أن يتحكّم بميوله وغرائزه، ويصدر أحكامه عليها، وأمّا الحيوان فليس كذلك؛ لأنّ الغرائز هي التي توجّهه وتحرّكه.

ثانياً: تهذيب النّفس وتربيتها وصياغتها بمكارم الأخلاق، ومحاسن الصّفات لتكميل نواقصها، ثمّ معالجة الأمراض التي تصيبها - أعني الأمراض الأخلاقيّة -، ورسم طريق التّكامل الإنساني؛ لإيصال الإنسان إلى درجات الكمال التي خلقه الله تعالى لأجلها، ونقله من عالم البهيميّة إلى عالم يسمو به على الملائكة بالتّحلّي بأخلاق الدّين العظيم الذي أكمل به الله تبارك وتعالى رسالات السماء كلّها؛ فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[1]، قال: «**هُوَ الإِسْلامُ**»، ورُوِيَ أنّ: «**الْخُلُقَ الْعَظيمَ هُوَ الدّينُ الْعَظيمُ**»[2].

ثالثاً: إنّ الاسلامَ أراد من استكمالِ الفضائل الأخلاقيّة في النّفس وتركيز الأخلاق الاجتماعيّة من قبيل التّعاون على البرّ، والتّقوى، وترك البغضاء، والتّواصي بالحقّ والصّبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أرادَ إيجادَ الإنسانَ المغيِّر للواقع الفاسد إلى واقع سليم.

إذن من أهداف علم الأخلاق: إيجاد الإنسان المغيّر الذي يوحي بسلوكه

---

(١) القلم: ٤.

(٢) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٨٨.

للآخرين بالصّلاح والإصلاح، ويكون أُسوةً بعمله لا بقوله كما أمر الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**وَكُونُوا دُعاةً إِلى أَنْفُسِكُمْ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ، وَكُونُوا زَيْناً، وَلا تَكُونُوا شَيْناً**»(١).

رابعاً: تعميق الشّعور بالمسؤوليّة في نفس الإنسان أمام ربّه ونفسه ومجتمعه؛ ليؤدّي دوره المناط به الذي خلقه الله تعالى من أجله، وهو اكتساب الكمالات الإنسانيّة، ودعوة النّاس إليها، وتعبيدهم لله تعالى.

مَعْنى حُسْنِ الْخُلُقِ:

لا شك أنَّ الحسن الأخلاقي معنى كلّيّ جامع لكلّ مفردات الخير والفضيلة والإحسان، ولا يقتصر على الوضع الظاهري دون الباطني، بل يشملهما.

فلا نقصد بحسن الخلق طلاقة الوجه، وحسن البشر، وإن كانت طلاقة الوجه وحسن البشر سمتين أخلاقيّتين محبّبتين للنّفوس؛ ولا نقصد به طيب الكلام وحسن المعشر، وإن كانا من الصفات الأخلاقيّة الجميلة؛ ولا نقصد به عدم التّضجّر والتّشكّي، وإن كانت هذه صفة أخلاقيّة عظيمة؛ ولا نقصد به كظم الغيظ وبسط العدل وإنصاف الناس؛ فهذه الصّفات وغيرها كثير من حسن الأخلاق، وليس كلّ الأخلاق الحسنة... وقد حثَّ الإسلامُ عليها في تعاليمه الأخلاقيّة كمفردات يكمل بعضها البعض الآخر؛ لتشكّل السّمة الإنسانيّة العظيمة «**حسن الخُلق**» التي تنبعث من أعماق الإنسان بوعي وبدافع رسالي يهدف إلى نيل رضا الله تعالى فقط، وبذلك تكون إرادة الإنسان وهدفه من تحسين أخلاقه

(١) الكافي: ٣/١٩٨-١٩٩، ح/ ١٦٣٦، والشّين: خلاف الزّين، وهو العيب.

إرادة (وجه ربّه، ولا همَّ له في فضيلة، ولا رذيلة، ولا شغل له بثناء جميل، وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا، أو آخرة، أو جنّة، أو نار، وإنّما همّه ربّه، وزاده ذلّ عبوديته، ودليله حبّه)(١).

وخلاصة الكلام: حسن الخلق هو ملكة نفسيّة راسخة في ضمير الإنسان تدفعه إلى فعل الجميل، وتمنعه عن فعل القبيح بيُسْرٍ، ودون تكلّفٍ.

الْعَناصِرُ الأَساسِيَّةُ في اكْتِساب حُسْنِ الْخُلقِ:

كلّ الكائنات مُسَيَّرة وفق سنّة كونيّة وضعها الله تعالى لها، فلا تستطيع أن تحيد عنها، أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذي منحه الله تعالى الاختيار، فهو الذي ينتخب طريقه بنفسه، ويسلكه باختياره بعد أن هداه الله تعالى، وأعطاه القدرة، وأمره بسلوك طريق الخير، ومنحه قوّة يميز بها بين الخير والشرّ.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٢).

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٣).

وبذلك فَضَّلَ اللهُ الإنسانَ على الحيوان إن عرف نفسه، وانتصر على أهوائه، وأمّا إذا كان العكس بأن سيطرت شهواته على عقله فقد جهل نفسه، ونسي ربَّه؛ ولذا فإنّ العنصر الأساسيّ في اكتساب حسن الخلق هو معرفة الإنسان لنفسه؛ لأنَّه بمعرفة نفسه يعرف ربَّه، ودوره في الحياة، ويحسُّ بشرفه وكرامته، ويتعالى على الوضاعة والانحطاط، ويفهم قداسته... وتصبح المقدّسات الأخلاقية والإنسانية

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/٣٧٤.

(٢) البلد: ١٠.

(٣) الإنسان: ٣.

عنده ذات معنى وقيمة أعلى في حياته.

ونعني بمعرفة النَّفس أن يُدْرِكَ الإنسانُ موقعَهُ ومقامَه الواقعي في الوجود، وأنّه ليس حفنة تراب محض، وإنّما هو موجود فيه إشعاع من روح إلهيّة، وبهذه المعرفة يستطيع أن يتقدّم على الملائكة، وأنّه حر ومختار، ومسؤول عن نفسه وعن الآخرين، وعن إعمار الأرض؛ لأنّه خليفة الله في أرضه.

ومن العوامل المُهمَّة في اكتساب حسن الخلق تنمية عنصر (**الخير الأخلاقيّ**)، ونقصد به أنّ قسماً من أعمال الإنسان تتمُّ بدون دوافع ماديّة، نفعيّة، ولا لدفع ضرر، بل تقع تحت تأثير سلسلة من العواطف يمكن أن نسمّيها (**العواطف الأخلاقيّة**) أي إنّ أعمال الإنسان تتمّ لاعتقاده أنّ الإنسانيّة تحكم بها.

على سبيل المثال: لو فرضنا أنّ إنساناً وقع تحت ظروف صعبة خطرة في صحراء مخيفة مرعبة هدّدت حياته بالموت، وفي هذه الحالة يلتقي إنساناً آخر فيساعده وينجّيه من موت محقّق، بعد هذا يفترق الرجلان، ولم يَر أحدهما الآخر إلا بعد سنين، ثم يرى هذا الفردُ الذي ابتُلِيَ في ذلك اليوم الشديد الشّخصَ الذي أنجاه قد وقع في حالة شديدة غير طبيعيّة حينئذٍ تأتي ذكرى ذلك اليوم الذي أنجاه فيه من تلك المحنة، هل وجدان هذا الشّخص الذي وجد صاحبه في هذا الوضع الصَّعب يقبل بعدم إعانته لردِّ الجميل؟ ألا يقول له: «**شكر الإحسان واجبٌ ولازم**» كجوابٍ مثبتٍ، فلو أنَّ هذا الفرد ساعد ذلك الشّخص فإنّ الوجدان الإنساني ماذا يقول له؟ وإذا لم يهتمّ بالماضي، أو لم تبدُ منه أصغر علامة تدلّ على ذلك يعني عكس العمل، فماذا يقول له الوجدان؟ قطعاً في

الصّورة الأولى يستحسن العمل، ويشكر صاحبه، أما في الصّورة الثّانية: فإنّه يلومه وقد يلعنه، هذا هو حكم الوجدان الإنساني في ذلك ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾(١).

ويحكم الوجدان أيضاً بأنّ (ثواب المحسن إحسان، ويجب الشكر عليه) وجزاء غير المهتمّ بالإحسان ملامة ومذمّة.

فالخير الأخلاقيّ ميزانٌ كثيرٍ من الأعمال الإنسانيّة، وبعبارة أخرى كثير من أعمال الإنسان تتمّ وتنجز من جهة القيم الخلقيّة، وليس من جهة الأمور الماديّة، وهذا من مختصّات الإنسان، وترتبط بالجنبة المعنويّة فيه التي هي أحد الأبعاد التي تفتقر إليها كلّ الأحياء الأخرى التي لا تملك هذا المعيار، أي إنّها تفتقر إلى مفهوم الخير الأخلاقيّ الذي لا وجود له عند جميع الحيوانات؛ لأنّ القِيَم الخلقيّة غير واردة في قاموسها(٢).

ومن العوامل الأساسيّة في اكتساب حسن الخلق اتّخاذ: الأسوة الحسنة للاقتداء بها، والسّير على نهجها، والاهتداء بهديها، لا سيّما أكمل خلق الله صاحب الخلق العظيم الرسول محمد صلى الله عليه وآله، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾(٣).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ** صلى الله عليه وآله**: فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسّى، وَعَزاءً لِمَنْ تَعَزّى، وَأَحَبُّ الْعِبادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّيُ**

(١) الرَّحمن: ٦٠.

(٢) راجع كتاب جهان بيني إسلامي للمفكّر الإسلامي الشّهيد مرتضى مطهّري قدس سره باللّغة الفارسية.

(٣) الأحزاب: ٢١.

بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ»[١].

(ومنها): اختيار الأصدقاء من ذوي الخلق الرفيع، ومرافقتهم؛ فإنّ الإنسان يتأثّر بجليسه، ويكتسب من خلاله سلباً أو إيجاباً، ولعلّ هذا الأثر ما أشارت إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ **يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا** ﴾[٢].

كما وَرَدَ في الأحاديث الشريفة تأكيدٌ على ضرورة اختيار الجليس الصالح، قال رسول الله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلى دينِ خَليلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخالِل**»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**مُجالَسَةُ الأَشْرارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بالأَخْيارِ، وَمُجالَسَةُ الأَخْيارِ تُلْحِقُ الأَشْرارَ بالأَخْيارِ، وَمُجالَسَةُ الْفُجّارِ لِلأَبْرارِ تُلْحِقُ الْفُجّارَ بالأَبْرارِ...**»[٤].

(ومنها): دراسة الإنسان لعاداته وتقاليده وأعرافه، وما يتّسم بها من صفات، ووضعها في الميزان الإلهيّ؛ لمعرفة الصّالح من الطّالح، وتنمية الصّالح في نفسه لرفع كلّ ذميمة، فالإنسان هو طبيب نفسه، ومسؤول عن تزكيتها وتهذيب أخلاقها، وعلم الأخلاق هو الدّالّ على آية الصّحّة؛ ولذا ينبغي للعاقل أن يَنْصُبَ لنفسه ميزاناً عادلاً يميّز به بين صحيح الملكات وفاسدها، وليس هناك من ميزان

---

(١) نهج البلاغة: ٢٥٨، خطبة: ١٦٠.

(٢) الفرقان: ٢٨-٢٩.

(٣) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧٦٤.

(٤) الشّيخ الصّدوق، صفات الشّيعة: ٦، ووسائل الشّيعة للحرّ العامليّ: ٥٠٧/١١.

أعدل، ولا أسلم، ولا أدقّ من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «... **وَلَكِن اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلى كِتابِ الله، فَإِنْ كُنْتَ سالِكاً سَبيلَهُ، زاهِداً في تَزْهيدِهِ، راغِباً في تَرْغيبِه، خائِفاً مِنْ تَخْويفِهِ، فَاثْبتْ وَأَبْشِرْ؛ فَإِنَّهُ لا يَضُرُّكَ ما قِيلَ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُبائِناً لِلْقُرْآنِ فَمَا الَّذي يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ؛ إنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِيٌّ بِمُجاهَدَةِ نَفْسِهِ؛ لِيَغْلِبَها عَلى هَواها، فَمَرَّةٌ يُقيمُ أَودَها، وَيُخالِفُ هَواها في مَحَبَّةِ الله، وَمَرَّةٌ تَصْرَعُهُ نَفْسُهُ فَيَتَّبِع هَواها، فَيُنْعِشُهُ الله فَيَنْتَعِش، وَيُقيلُ الله عَثْرَتَهُ، فَيَتَذَكَّر وَيَفْزَع إِلى التَّوْبَةِ وَالْمَخافَةِ، فَيَزْداد بَصيرَةً وَمَعْرِفَةً لِما زيدَ فيهِ مِنَ الْخَوْفِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ الله يَقولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾**[1]»[2].

(ومنها): العمل الجادّ على تقوية الإرادة التي هي رمز الإنسانيّة، وهي عزيمة في الإنسان يُوجِدُ بها ما يروم، ويدفع بها ما يكره.

(ومنها): - بل وأهمّها - التّوسّل بالله لإعانة الإنسان على نفسه في إصلاحها وتقويمها؛ لأنّ الإنسان إذا لم يستمدّ العون من الله فلا يمكن أن ينتصر على نفسه ويصلح معايبها، فهذا الإمام زين العابدين وسيّد السّاجدين عليه السلام رغم كماله وعصمته وطهارته من الرّجس نراه يتضرّع إلى الله قائلاً: «**وَهَبْ لي مَعالي الأَخْلاقِ... اللَّهُمَّ لا تَدَعْ خَصْلَةً تُعابُ مِنّي إلا أَصْلَحْتَها، وَلا عائِبَةً أُؤَنَّبُ بِها إِلا حَسَّنْتَها، وَلا أُكْرومَةً فِيَّ ناقِصَةً إِلا أَتْمَمْتَها**»[3].

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) ابن شعبة، تحف العقول: ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) الصّحيفة السّجاديّة: ٨٢، دعاء: ٢٠، دعاء مكارم الأخلاق.

هذه بعض العلاجات العمليّة لاكتساب حسن الخلق لو أخذ بها الإنسان بوعيٍ، وجِدّ، وهَدَفيّةٍ واضحةٍ، متوّكلاً على الله لنفعته كثيراً.

سوءُ الْخُلقِ:

هو انحرافٌ نفسيٌّ، ومرضٌ أخلاقيٌّ يسبّب الانقباض، والغلظة، والشّراسة، والخشونة... وهو نقيض حسن الخُلق، وله آثار سيّئة على الإنسان لا يعلم مداها إلا الله تعالى، يقول رسول الله ﷺ: **«سوءُ الْخُلقِ شُؤْمٌ، وَشِرارُكُمْ أَسْوَأُكُمْ خُلقاً»**(١).

ومن آثار سوء الخلق:

أوّلاً: هو (عذاب يختاره الإنسان بنفسه)، فمن ساء خلقُهُ فقد عَذَّبَ نفسه بنفسه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«مَنْ ساءَ خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ»**(٢).

ثانياً: وهو أصدق تعبير عن ضعة النّفس ورذالتها، وخمود في العقل، ونقص في الإنسانيّة، وبالتّالي هو أساس الشّقاء.

ثالثاً: إنّ سوء الخلق يفسد العمل، بل يفسد الإيمان كما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: **«إنّ سوءَ الْخُلُقِ لَيُفْسِدُ الإيمانَ كَما يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ»**(٣).

وفي حديث آخرعنه عليه السلام: **«أَوْحى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلى بَعْضِ أَنْبيائِهِ: الْخُلُقُ السَّيِئُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَما يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ»**(٤).

---

(١) جلال الدّين السّيوطي، الجامع الصغير: ٥٥/٢، ح/٤٧٢٠.

(٢) الكافي: ٧٨١/٣، ح/٢٦١٢.

(٣) المصدر نفسه: ٧٨٠/٣-٧٨١، ح/٢٦١١.

(٤) المصدر نفسه: ٧٨١/٣، ح/٢٦١٣.

رابعاً: سوء العاقبة: لا شكَّ أنَّ سوء الخلق لا بُدَّ وأن يؤدّي بالإنسان إلى العاقبة السّيّئة في الدّنيا والآخرة؛ وذلك لأنَّ الله لا يقبل توبته كما ورد عن النّبيّ ﷺ، إذ قال: «**أَبى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِصاحِبِ الْخُلُقِ السَّيِّئِ بِالتَّوْبَةِ**»، فقيل: «وكيف ذاك يا رسول الله؟» قال ﷺ: «**لأَنَّهُ إِذا تابَ مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ في ذَنْبٍ أَعْظَمَ مِنْهُ**»(١).

وقيل لرسول الله ﷺ: «إِنَّ فُلانَةَ تَصومُ النَّهارَ، وَتَقومُ اللَّيلَ، وَهِيَ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ تُؤْذي جيرانَها بِلِسانِها»، فقال: «**لا خَيْرَ فيها هِيَ مِنْ أَهْلِ النّارِ**»(٢).

خامساً: الاحتقار والإهانة: إنّ سيّئ الخلق محتقرٌ ومهانٌ من قبل الآخرين؛ لسوء تعامله معهم، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنْ شِئْتَ أَنْ تُكْرَمَ فَلِنْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُهانَ فَاخْشَنْ**»(٣).

ولذلك فإنّ سوء الخلق يبعد الإنسان عن النّاس، وينفّرهم منه، ويفرقهم عنه، يقول تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾(٤).

هذه بعض آثار سوء الخلق، وله آثار أخرى أعرضنا عنها مخافة التّطويل والخروج عن البحث.

وقد اعتنى الإسلام عناية خاصّة في تهذيب النفس، وتطهيرها من مذامّ

---

(١) الكافي: ٣/٧٨٠، ح/٢٦١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٧١/٣٩٤.

(٣) تحف العقول: ٢٦٤.

(٤) آل عمران: ١٥٩.

الأخلاق، وأعطى علاجات شافية لكلّ مرض أخلاقيّ، سنشير إليها إن شاء الله في البحوث القادمة عند الحديث عن كلّ منها بشكل مفصّل.

وأخيراً لا بدّ أن نشير كما قال معلّم الأخلاق الشيخ محمّد أمين زين الدّين قُدِّسَ سِرُّهُ أنّ «الأخلاق إحدى الجهات الإنسانية التي عنى بها دين الإسلام، واهتمَّ بها اهتماماً كبيراً، والّذي يستقصي تعاليم الكتاب وإرشادات السّنّة يعلم مقدار هذا الاهتمام، ومبلغ هذه العناية، وهذه الظّاهرة -من الدّين الإسلاميّ- إحدى مميّزاته عن سائر الأديان، وإحدى مؤهّلاته للخلود»[1].

(١) الأخلاق عند الإمام الصّادق عليه السلام: ١٠.

(الْبابُ الأَوَّلُ)

مَدارِجُ التَّهْذيبِ

(الْبَحْثُ الأَوَّلُ)

النَّفْسُ فِي الْقُرآنِ

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[(١)].

المراد بالنّفس نفس الإنسان بما فيها من قوًى وأسرار عظيمة تَجَلَّتْ فيها عظمة الخالق سبحانه وتعالى حيث خلقها، ونظّم قواها، وجعلها متوازنة، متعادلة، متناسقة، وبها صار الإنسان كائناً متميّزاً على جميع المخلوقات بحواسّه الظّاهرة، وقوى الإدراك، والذّاكرة، والعواطف: كالحبّ، والبغض، والرّحمة، والشّفقة... والمعالم الأخرى كالإرادة، والعزم، والاختيار... وما إلى ذلك.

وبالدّقّة معنى النّفس لغةً كما قال السّيّد الطّباطبائي قدّس سرّه:

«لفظ النّفس - على ما يعطيه التأمّل في موارد استعماله - أصل معناه هو معنى ما أضيف إليه، فنفس الشّيء معناه الشّيء، ونفس الإنسان معناه هو الإنسان، ونفس الحجر معناه هو الحجر، فلو قطع عن الإضافة لم يكن له معنى محصل، وعلى هذا المعنى يستعمل للتّأكيد اللّفظي كقولنا: جاءني زيد نفسه، أو لإفادة معناه كقولنا جاءني نفس زيد»[(٢)].

---

(١) الشّمس: ٧-١٠.

(٢) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٨٥/١٤.

وبهذا المعنى الشّامل فإنَّ النَّفس تشمل الرّوح والبدن، وبها تبرز عظمة الله تعالى في خلق النّفس الإنسانيّة، وتمييزها على غيرها من الكائنات بمزية الاختيار والقدرة على التّمييز، وبهذه النّفس تتجلّى عظمة آيات الله تعالى، حيث قابلت النّفس الإنسانيّة الآفاق الكونيّة بكلّ ما فيها من آيات الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١].

لقد جاء لفظ ﴿وَنَفْسٍ﴾ نكرة إشارة لما فيها من أسرار تَفوقُ تَصَوُّرَ الإنسان، ودلالة على فخامة هذه النّفس وعظمتها بما تحوي من آيات الله تعالى، وما زال العلماء بمختلف آرائهم وتوجّهاتهم يجوبون في رحاب تلك النّفس متحيّرين بحقيقتها وماهيّتها، ولم يصلوا إلا إلى جزءٍ ضئيلٍ من معرفتها حتّى سمّاها أحد العلماء الغربيّين وهو (ألكسيس كاريل) كعنوان لكتابه (الإنسان ذلك المجهول)[٢]، ولكنّ الحقيقة (أنَّ الإنسان باعتباره حقيقةً روحيّةً - يمثّل مجموعة إحساسات ومشاعر وقيم وعواطف، وهو من جهة أخرى ذو كيان ماديّ له مطالب واحتياجات ماديّة ضروريّة لبقائه؛ لذا فإنَّ الحياة بكاملها تكاد تكون نهباً بين ادّعاءات كلّ من هذين الجانبين)[٣].

وسمّى الفيلسوف البريطاني (جون لويس) كتابه (الإنسان ذلك الكائن الفريد)[٤].

---

(١) فصّلت: ٥٣.

(٢) ينظر كتاب (الإنسان ذلك المجهول)، تأليف: ألكسيس كاريل، تعريب: شفيق أسعد فريد.

(٣) محمّد عبد الهادي حيدر، عالم الأرواح: ١٦.

(٤) ينظر كتاب (الإنسان ذلك الكائن الفريد) لـ(جون لويس)، ترجمة: الدكتور صالح جواد الكاظم.

والحقيقـة الّتـي لا ريـب فيهـا (أنّ هـذا الكـائنَ مخلـوقٌ مـزدوجُ الطّبيعـة، مزدوجُ الاستعداد، مزدوج الاتّجاه، ونعني بكلمة مزدوج على وجه التّحديـد أنّـه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض، ومن نفخة الله فيه من روحه) مُزَوَّدٌ باستعدادات متساوية للخير والشَّرّ، والهدى والضّلال. فهو قادر على التّمييز بين ما هو خير ومـا هو شرّ. كما أنَّه قادر على توجيه نفسه إلى الخير، وإلى الشّر سواء، وأنَّ هـذه القدرةَ كامنةٌ في كيانه، يعبّر عنها القرآن بالإلهام تارةً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]، ويعبّر عنها بالهداية تارةً: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2].. فهي كامنةٌ في صميمه في صورة استعداد..)[3].

ويقول الإمام الخميني قدس سره: «إنّ الرّوح والجسد متّحدان فيما بينهما: والجسد هو ظل الرّوح، والرّوح هي باطن الجسد، والجسد ظاهر الرّوح، وكلاهما واحد لا يفترقان عن بعضهما. فكما أنّ جسد الإنسان وروحه متّحدتان، ينبغي أن يكون طبيب الجسد وطبيب الرّوح متّحدين أيضاً، عليهما أن يكونا واحداً»[4].

ونحن إذا استقرأنا التّعاليم الإسلاميّة نجد أنّها قد أكّدت على وجوب معرفة النّفس، وتزكيتها، وجهادها، وكرامتها، ومسؤوليتها... ولنقف قليلاً عند بعض ذلك.

---

(١) الشَّمس: ٧-٨.

(٢) البلد: ١٠.

(٣) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٨/٥٩٠-٥٩١.

(٤) صحيفة الإمام، تراث الإمام الخمينيّ قدس سره: ٦/٢٧٢.

مَعْرِفَةُ النَّفْسِ:

وهي من أهمّ ما أكّدت عليه التّعاليم الإسلاميّة، وعدّته طريقاً إلى معرفة الله تبارك وتعالى...

والمقصود بمعرفة النّفس هو معرفة الإنسان لنفسه بما تحتوي من قوى وطاقات، وأبعاد روحيّة وفكريّة؛ ليعرف إلى أين يوجّه تلك الطّاقات؟ وكيف يتصرّف بها؟ وكيف يهذّبها، ويزكّيها؟ وبذلك يعرف مقامه وموقعه في عالم الوجود، وغاية وجوده؛ ليصل إلى مُوجده، ومن خلال ذلك يعرف طبيعة النّفس، وما تتّسم به من ضعف، وعدم استقلاليّة، وأنّها كائن مخلوق لا يقوم بذاته، فقير ومحتاج إلى غيره، ومشروط لا يعيش بدون توفّر شروطه...

وهذه المعرفة ليس من قبيل معرفة الهويّة الشّخصيّة: ما اسمه؟ واسم أبيه؟ وفي أيّ بلد تولّد؟ وإلى أيّ حكومة ينتمي؟ وإنّما هي معرفة بأسرار النّفس، وقواها، وطاقاتها، وما ينتابها من قوّة، أو ضعف، ومن خلال ذلك يعرف الإنسان أنّه موجودٌ مسؤولٌ عن وجوده في هذه الدّنيا، ولا بدّ أنّه راحلٌ عنها، وأنّه يسير إلى نهاية لها بداية... (فإذا اشتغل الإنسانُ بالنَّظر إلى آيات نفسه، وشاهد فقرها إلى ربِّها، وحاجتها في جميع أطوار وجودها، وجد أمراً عجيباً؛ وجد نفسه متعلقة بالعظمة والكبرياء متصلة في وجودها، وحياتها، وعلمها، وقدرتها، وسمعها، وبصرها، وإرادتها، وحبّها، وسائر صفاتها وأفعالها بما لا يتناهى بهاءً، وسناءً، وجمالاً، وجلالاً، وكمالاً من الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، وغيرها من كلّ كمال)[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٧١/٦-١٧٢ .

وهكذا صارت معرفة النّفس هي الطّريق إلى أسمى المعارف وهي معرفة الله تعالى؛ لأنّ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، وقد دلّت أحاديث أهل البيت عليهم السلام أنّ معرفة النّفس من أنفع المعارف وأخلصها، وأسماها، وبها ينتهي العارف إلى غاية كلّ معرفة وعلم، يقول أمير العارفين الإمام عليّ عليه السلام:

«أَفْضَلُ الْمَعْرِفَةِ مَعْرِفَةُ الإنْسانِ نَفْسَهُ».

«أَفْضَلُ الْحِكْمَةِ مَعْرِفَةُ الإنْسانِ نَفْسَهُ، وَوُقوفُهُ عِنْدَ قَدْرِهِ».

«غايَةُ الْمَعْرِفَةِ أَن يَعْرِفَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ».

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ».

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ جَلَّ أَمْرُهُ»(١).

وكما أنّ معرفة النّفس من أنفع المعارف فإنّ الجهل بالنّفس من أحطّ الدّركات، وأسفل الدّرجات.

ونقصد بجهل النَّفس هو: أن لا يعرف الإنسان قدره، ولم يكتشف طاقاته، ولا يدري ما يُراد منه، وما هو هدفه في الحياة، وما موقعه فيها، وإلى أين يسير؛ ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَعْظَمُ الْجَهْلِ جَهْلُ الإنْسانِ أَمْرَ نَفْسِهِ».

«كَفى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يَجْهَلَ نَفْسَهُ».

«مَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ أَهْمَلَها»(٢).

بل إنّ الجاهل بنفسه جاهل بكلّ شيء، يقول عليٌّ عليه السلام: **«لا تَجْهَلْ**

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٢، ح/٤٦٣١-٤٦٣٢-٤٦٣٣-٤٦٣٧-٤٦٣٩ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٣، ح/٤٦٥٧-٤٦٦١-٤٦٦٢ .

نَفْسَكَ؛ فَإِنَّ الْجاهِلَ مَعْرِفَةَ نَفْسِهِ جاهِلٌ بِكُلِّ شَيْءٍ»؛ لأنّ الجاهل بنفسه يقودها نحو الضلال والهلاك، ويقول عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ بَعُدَ عَنْ سَبيلِ النَّجاةِ وَخَبَطَ في الضَّلالِ وَالْجَهالاتِ**»[(١)].

جِهادُ النَّفْسِ:

إذا عرف الإنسان نفسه عرف ما فيها من غرائز، وميول، وأهواء، تخالِفُ العقلَ والشَّرعَ، وتحاول تجاوزهما، حينئذٍ يُدرِكُ صراعَ تلك الأهواء مع العقل والشّرع، وبذلك يعرف أنّه لا بدَّ من جهادها بمقاومة تلك الأهواء لإخضاعها لحكم العقل والشَّرع، وتوجيه طاقاتها ضمن التعاليم الشَّرعيّة والعقليّة؛ ولهذا سمّى رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك بالجهاد الأكبر؛ لأنَّ بهذه المجاهدة صلاحَ النَّفْس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**أَفْضَلُ الْجِهادِ مُجاهَدَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ**».

«**أَفْضَلُ الْجِهادِ جِهادُ النَّفْسِ عَنِ الْهَوى، وَفِطامُها عَنْ لَذّاتِ الدُّنْيا**».

«**جاهِدْ شَهْوَتَكَ، وَغالِبْ غَضَبَكَ، وَخالِفْ سوءَ عاداتِكَ، تَزْكُ نَفْسُكَ، وَيَكْمَلْ عَقْلُكَ، وَتَسْتَكْمِلْ ثَوابَ رَبِّكَ**»[(٢)].

ولجهاد النفس ثمرات عظيمة حسبما دلّت عليه الأحاديث الشّريفة، نذكر منها:

أوّلاً: الفوز برضا الله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّكَ إِنْ جاهَدْتَ**

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٢، ح/٤٦٦٥-٤٦٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٢، ح/٤٩٠١-٤٩٠٢-٤٩١٩.

نَفْسَكَ حُزْتَ رِضى اللهِ»[١].

ثانياً: الفوز بالجنّة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«لَنْ يَحوزَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ».

«جِهادُ النَّفْسِ مَهْرُ الْجَنَّةِ».

«جِهادُ الْهَوى ثَمَنُ الْجَنَّةِ».

«أَلا وَإِنَّ الْجِهادَ ثَمَنُ الْجَنَّةِ»[٢].

ثالثاً: التّغلُّب على الشّيطان، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«مَنْ خالَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ غَلَبَ الشَّيْطانَ»**[٣].

رابعاً: عُلُوُّ الشَّأنِ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عَلا أَمْرُهُ»**.

«رَدْعُ النَّفْسِ، وَجِهادُها عَنْ أَهْوِيَتِها يَرْفَعُ الدَّرَجاتِ، وَيُضاعِفُ الْحَسَناتِ»[٤].

خامساً: نيل مرتبة التّقى، يقول عليه السلام: **«مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ أَكْمَلَ التُّقى»**[٥].

وسيأتي تفصيل جهاد النّفس في بحث قادم إن شاء الله تعالى.

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَهْذِيبُها:

ونقصد بالتّهذيب هو تطهير النّفس من كلِّ ما يدنّسها من آثام، وذنوب، وأخلاق ذميمة، وعادات سيّئة... وهذا لا يحصل إلا بالمجاهدة، فإنَّ التَّهذيبَ هو

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٢، ح/٤٩١١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٢-٢٤٣، ح/٤٩٣٩-٤٩١٦-٤٩١٧-٤٩٠٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٣، ح/٤٩٤٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٢-٢٤٣، ح/٤٩٤٢-٤٩٢٩.

(٥) المصدر نفسه: ٢٤٣، ح/٤٩٤٠.

نتيجة من نتائج جهاد النَّفس.

وأهمية تهذيب النَّفس تتّضح لنا إذا عرفنا أنَّ الإنسان لا يمكن أن يفلح في الدُّنيا والآخرة دون تهذيب نفسه، والقرآن الكريم صريحٌ في ذلك حيث يقول: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[1]، فلا يفلح من لم يلجم نفسه عن الشّهوات الدّنيئة، ولم يطهّرها من الأخلاق الذّميمة، وعن كلّ ما يبعدها عن الله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْعارِفُ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَها، وَنَزَّهَها عَنْ كُلِّ ما يُبَعِّدُها وَيوبِقُها».

«خَيْرُ النُّفوسِ أَزْكاها».

«خَيْرُ النّاسِ مَنْ طَهَّرَ مِنَ الشَّهَواتِ نَفْسَهُ».

«طَهِّروا أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَنَسِ الشَّهَواتِ تُدْرِكوا رَفيعَ الدَّرَجاتِ».

«مَنْ لَمْ يُهَذِّبْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعَقْلِ»[2].

مُحاسَبَةُ النَّفْسِ:

وهي من أعظم آليّات التّهذيب، والتّزكية، والإصلاح، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«ثَمَرَةُ الْمُحاسَبَةِ صَلاحُ النَّفْسِ»**[3].

ثم إنّ المحاسبة سبيل الأمان، والسّعادة، والنّجاح، وهذا ما دلّت عليه أحاديث أطبّاء النّفوس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) الشّمس: ٩.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٩-٢٤٠، ح/٤٨٤١-٤٨٤٤-٤٨٤٥-٤٨٥١-٤٨٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٦، ح/٤٧٣٦.

«**مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ سَعُدَ**».

«**مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ**».

«**مَنْ تَعاهَدَ نَفْسَهُ بِالْمُحاسَبَةِ أَمِنَ فيها الْمُداهَنَةَ**»(١).

والسِّرُّ في ذلك أنّ الإنسان عندما يواظب على محاسبة نفسه بدقّة وشدّة ضمن منهج تربويّ سليمٍ؛ فإنَّه يقف على ما فيها من نواقص ومعايب، وما فيها من عناصر الضعف والقوّة، وحينئذٍ يعرف ما يصلحها وما يفسدها، وأدقُّ عبارةٍ في ذلك ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ وَقَفَ عَلى عُيوبِهِ، وَأَحاطَ بِذُنوبِهِ، وَاسْتَقالَ الذُّنوبَ، وَأَصْلَحَ الْعُيوبَ**»(٢).

وأمّا إذا أهمل نفسَهُ، وتركها تلهث وراء أهوائها؛ فإنَّه يجرُّها إلى الهلاك والهوان، والشّقاء الدائم في الدّنيا والآخرة، ويكون مثله مثل المريض الذي لا يدري أنَّه مريض، ويبقى المرض ينخر في بدنه حتى يقضي عليه، وهذا ما صرَّح به أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

«**مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ أَهْلَكَها**».

«**مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ خَسِرَ**».

«**مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ أَفْسَدَ أَمْرَهُ**».

«**مَنْ سامَحَ نَفْسَهُ فيما يُحِبُّ طالَ شَقاؤُها فيما لا تُحِبُّ**»(٣).

وسيأتي بحث مفصّل عن المحاسبة إن شاء الله تعالى.

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ح/٤٧٤٤-٤٧٤٥-٤٧٤٧ .

(٢) المصدر نفسه: ح/٤٧٤٨ .

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٦، ح/٤٧٥٢-٤٧٥٣-٤٧٥٤-٤٧٥٥ .

مُراقَبَةُ النَّفْسِ:

والمراقبة هنا هي فرع المحاسبة، فما لم يراقب الإنسان نفسه لا يمكن أن يحاسبها، ونقصد بالمراقبة أن ينتبه الإنسان إلى تصوّراته الواردة عليه، وأفكاره، ونوازعه، ومشتهياته... ويعرضها على كتاب الله وسنّة رسوله؛ ليضعها في ميزان الشّرع المقدس، والعقل السَّليم؛ ليعرف ما فيها من نواقص ومفارقات سلوكيّة مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله، ليعمل على إصلاحها كما تقدّم في حديث الإمام الباقر عليه السلام في تمهيد الكتاب.

وتأسيساً على ذلك إنَّ أوعى النّاس وأعظمهم توفيقاً من وَفَّقَهُ اللهُ لأن يجعل من نفسه رقيباً على نفسه، فيكون بذلك يَقِظاً فَطِناً لكلّ ما يخطر على باله.

فالمراقبة إذن حالةُ يقظةٍ وفطنةٍ دائمةٍ، وسيطرةٍ على زمام النَّفس؛ لوضعها على الجادّة كلما أرادت أن تزلّ عنها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«يَنْبَغي أَنْ يَكونَ الرَّجُلُ مُهَيْمِناً عَلى نَفْسِهِ، مُراقِباً قَلْبَهُ، حافِظاً لِسانَهُ».

«اجْعَلْ مِنْ نَفْسِكَ عَلى نَفْسِكَ رَقيباً».

«مَنْ كانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ يَقْظَةٌ، كان عَلَيْهِ مِنَ الله حَفَظَةٌ»[١].

وأفضل معين على مراقبة النَّفس هي استشعار مراقبة الله، والشّعور بمعيَّته في الحلّ والتّرحال؛ فإنَّ الإنسان عندما يستحضر في نفسه أنّه بعين الله تعالى الّذي لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السَّماء، فإنّه سيبقى مراقباً لنفسه؛ لئلا

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٥، ح/٤٧٣٢-٤٧١٦-٤٧٢٥ .

تسقط في هوّة المخالفة الشرعيّة، وبذلك يتحقّقُ له الخوف من مقام ربِّه؛ فقد جاء عن الإمام الصّادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1] أنَّه قال: «**مَنْ عَلِمَ أَنّ اللهَ يَراهُ، وَيَسْمَعُ ما يَقولُ، وَيَعْلَمُ ما يَعْمَلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَيَحْجُزُهُ ذلِكَ عَنِ الْقَبيحِ مِنَ الأَعْمالِ، فَذلِكَ الَّذي خافَ مَقامَ رَبِّهِ، وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى**»[2].

وعن مقاتل في تفسير الآية المتقدّمة: «يعني جَنّةُ عَدْنٍ، وَجَنَّةُ النَّعيمِ، وهما للصّدّيقين، والشّهداء، والمقرّبين، والسّابقين، وهو الرّجل يهمّ بالمعصية، فيذكر مقامه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فيخاف فيتركها، فله جنّتان»[3].

وهكذا تكون المراقبة من أهمّ سبل إصلاح النَّفس.

كَرامَةُ النَّفْسِ:

إنَّ النَّفْسَ البشريّة هي أكرم وأسمى ما خلق الله تعالى، وبها كرّم الله بني آدم، وفضَّلَهم على أكثر خلقه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[4].

وأساسُ هذا التّكريمِ نابعٌ من الرّوح الإلهيّة التي نفخَها اللهُ في آدم، وبهذه الرّوح يميّز الإنسان بين الحقِّ والباطل، والهدى والضّلال؛ وبها نالَ هذه الدَّرجةَ من التَّكريم.

---

(١) الرَّحمن: ٤٦.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣/١٨١، ح/١٦٠٨.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/٢٠٢.

(٤) الإسراء: ٧٠.

وهذه النَّفس هي أثمن ما يملك الإنسان، بل كلّ يملك؛ لأنّه بدونها يصبح لا شيء؛ ولهذا أوجب الله على الإنسان أن يحافظ على نفسه من الانحراف الذي يُركسها في مستنقع الرّذيلة، وأن يصونها من كلّ ما يذلّها أو يبتذلها، قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّ اللهَ فوَّضَ إلى الْمُؤْمِنِ أَمْرَهُ كُلَّهُ، ولَمْ يُفوِّضْ إلَيْهِ أَنْ يَكونَ ذَليلاً، أَما تَسْمَعُ اللهَ يَقولُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾**(١)**، فَالْمُؤْمِنُ يَكونُ عَزيزاً، ولا يَكونُ ذَليلاً**»، ثمّ قال: «**إنَّ الْمُؤْمِنَ أَعَزُّ مِنَ الْجَبَلِ، إنَّ الْجَبَلَ يُسْتَقَلُّ مِنْهُ بِالْمَعاوِلِ، والْمُؤْمِنَ لا يُسْتَقَلُّ مِنْ دينِهِ بِشَيْءٍ**»(٢).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ النَّفْسَ لَجَوْهَرَةٌ ثَمينَةٌ مَنْ صانَها رَفَعَها، وَمَنِ ابْتَذَلَها وَضَعَها**»(٣).

وصيانة النَّفس هو حفظها من أدران الذّنوب، وذمائم الأخلاق، وسيّئ العادات، وتغذيتها بالعقائد السّليمة، والأفكار الصّحيحة، والأعمال الصّالحة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَوِّدْ نَفْسَكَ فِعْلَ الْمَكارِمِ، وتَحَمُّلَ أَعْباءِ الْمَغارِمِ تَشْرُفْ نَفْسُكَ، وتُعْمَرْ آخِرَتُكَ، ويَكْثُرْ حامِدوكَ**»(٤).

أقسامُ النَّفْسِ ومَراتِبُها:

النَّفسُ الإنسانيّة من أعظم مخلوقات الله تعالى، وهي من أجلى آياته

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) علي الطّبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ١٠٩/١، ح/٢٣٦.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣١،ح/٤٦١٦.

(٤) المصدر نفسه: ح/٤٦١٨.

تعالى، تجلّت فيها عظمةُ خَلْقِ الله تعالى حتى برَّز الله تعالى آياته فيها بقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]؛ ولهذا قال بعض العلماء: «إنَّ النَّفس الإنسانيّة شيءٌ واحدٌ، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلهي كانت نفساً مطمئنّة، وإذا مالت إلى الشَّهوة والغضب كانت أمّارة بالسّوء»[2].

وقد ذَكر القرآن الكريم النَّفس بصفاتها العمليّة المؤثّرة، فأقسامُها اشْتُقَّتْ من أعمالها، وأهمُّ تلك الصّفات، أو - إذا صحَّ التَّعبيرُ - المراتب:

١- النَّفْسُ الأمّارة بالسّوء:

وإنما سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّها تدفع صاحبها لاتّباع الهوى، وارتكاب المنكر، والانقياد المطلق لقُوَّتَي الشّهوة البهيميّة والغضبيّة... فهي دائماً تنحى منحى إشباع رغباتها المختلفة كشهوة الجنس، والبطن، وشهوة التَّسَلُّط، والانتقام، والظهور، وهكذا... ولهذا ترى أولياء الله وعباده الصّالحين رغم ما آتاهم اللهُ من قوّةٍ عقليّةٍ فائقةٍ مسيطرةٍ على كلّ قواهم، يَشْكون من ميول هذه النّفس كما جاء في مناجاة الشاكين للإمام السّجاد عليه السلام:

«إِلهي إِلَيْكَ أَشْكو نَفْساً بِالسّوءِ أَمّارَةً، وَإِلى الْخَطيئَةِ مُبادِرَةً، وَبِمَعاصيكَ مولَعَةً، وَلِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بي مَسالِكَ الْمَهالِكِ، وَتَجْعَلُني عِنْدَكَ أَهْوَنَ هالِكٍ، كَثيرَةَ الْعِلَلِ، طَويلَةَ الأَمَلِ، إِنْ مَسَّها الشَّرُّ تَجْزَعُ، وَإِنْ مَسَّها الْخَيْرُ تَمْنَعُ، مَيّالَةً إِلى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ، مَمْلوءَةً بِالْغَفْلَةِ

(١) فصّلت: ٥٣.

(٢) الرّازي، التّفسير الكبير: ١٨/١٥٧.

وَالسَّهْوِ، تُسْرِعُ بي إِلى الْحَوْبَةِ، وَتُسَوِّفُني بِالتَّوْبَةِ»(١).

ونحن إذا تأمّلنا هذا النَّصَّ الشّريف نجد فيه أدقَّ بيانٍ لحقيقة النَّفس الأمّارة بالسّوء، حيث يتجلّى بدقّةٍ متناهيةٍ مسالك النّفس ومساربها للوصول إلى إشباع رغباتها بقوّةٍ وإلحاحٍ لا يُنجي منها غير اللُّجوء إلى الله تعالى؛ للتّخلّص من الوقوع في شباكها، وحدَّد الإمام عليه السلام أهمَّ وسائل النَّفس الأمّارة بالسّوء كي تخرج بصاحبها عن طريق الصّواب، فهي تأمر بالسّوء والمنكر، فتدفع صاحبها لمخالفة العقل والشّرع الشّريف، وعصيان أوامر الله تعالى؛ لهذا تراها مبادرةً مُسْرِعةً لإيقاعه في الخطيئة؛ لولعها بالمعاصي، أي مغرمة ومحبة لذلك، ومتعرّضة لكلّ ما يسخط الله تعالى، وبذلك تسلك المسالك المهلكة، ومن صفاتها أنّها طويلة الأمل طولاً يخرج الإنسان عن أبعاده الحقيقيّة، ويجعله يتجاوز كلّ معقول، وقد يصل به إلى تصوّر الخلود، وعدم الفناء، كالذي دخل جنّتَهُ، فقال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾(٢).

ومن صفاتها أيضاً: التَّقَلُّبُ، والتَّلَوُّن حسب ما يرد عليها، فإذا مسَّها ما يخالف رغباتها من المحن والابتلاءات جزعت وتمرَّدت، وإذا مسَّها الخيرُ فرحت، وطمعت، وجمعت، ومنعت، واستأثرت.

ومن مخادعها: التَّسويف، والتَّحايل، والتَّبرير، وتخريج المعاصي، وإلباسها الشّرعيّة زوراً وبهتاناً، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«النَّفْسُ الأَمّارَةُ الْمُسَوِّلَةُ تَتَمَلَّقُ تَمَلُّقَ الْمُنافِقِ، وَتَتَصَنَّعُ بِشِيمَةِ

(١) الصّحيفة السّجاديّة، مناجاة الشّاكين.

(٢) الكهف: ٣٥.

الصَّديقِ الْمُوافِقِ حَتّى إذا خَـدعَتْ، وَتَمكَّنَـتْ تَسَـلَّطَتْ تَسَـلُّطَ الْعَـدُوِّ، وَتَحَكَّمَتْ تَحَكُّمَ الْعُتُوِّ فَأَوْرَدَتْ مَوارِدَ السّوءِ»[1].

وفي هذا النص المبارك بيانٌ لمراحل سيطرة الأهواء والشّهوات على الإنسان؛ فهي تبدأ بـ(التّسويل) وهو تحسين الشّيء، وتزيينه، وتصوير القبيح منه بصورة الحَسِن، وتحبيبه للإنسان ليفعله، يقول تعالى على لسان يعقوب عليه السلام في قوله لأولاده لمّا غدروا بأخيهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2].

ثم تأتي مرحلة (التَّملّق) وهي التَّودّد المصطنع، والتّلطّف المفتعل المزيّن والمزخرف بالأماني المعسولة، والآمال الوهميّة، والتبريرات المصبوغة بصبغة الشّرع، وهي تبعد عنه بعد السّماء عن الأرض كي تخدع الإنسان، وتستدرجه، فتقرّبه بالتّدريج إلى معاصي الله تعالى حتى توقعه في حبائلها، وبذلك تتمكّن من السّيطرة عليه، ويصبح زمامه بيدها فتقوده كيفما تريد، وتحجبه عن رؤية الحق بل تقلب المقاييس في تصوّراته حتى يصبح يرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، وهذا ما عبّرت عنه بعض الروايات بأنَّه «**مَنْكُوسُ الْقَلْبِ**»[3]، وحينئذٍ يصبح الهوى معبوداً له من دون الله تعالى كما وصف جلَّ وعلا:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[4].

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٤، ح/٤٦٨٣.

(٢) يوسف: ١٨.

(٣) في الحديث عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام: «إذا لَمْ يَغَرِ الرَّجُلُ، فَهُوَ مَنْكُوسُ الْقَلْبِ»، الكافي: ٢٢٩/١١، ح/١٠٢٨١، وقال العلامة المجلسي: «قوله عليه السلام: «مَنكوسُ الْقَلْبِ»، أي يصير بحيث لا يستقرّ فيه شيء من الخير، كالإناء المكبوب، أو المراد بنكس القلب تغيّر صفاته وأخلاقه التي ينبغي أن يكون عليها»، مرآة العقول: ٣٧٥/٢٠-٣٧٦.

(٤) الفرقان: ٤٣.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

إذن النّفس الأمّارة بالسّوء هي العدوّ الدّاخليّ، وهو من أخطر الأعداء على الإنسان، يقول سيّد الحكماء والعارفين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«نَفْسُكَ أَقْرَبُ أَعْدائِكَ إِلَيْكَ».

«نَفْسُكَ عَدُوٌّ مُحارِبٌ، وَضِدٌّ مُواثِبٌ إِنْ غَفَلْتَ عَنْها قَتَلَتْكَ».

«لا عَدُوَّ أَعْدى عَلى الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ»(٢).

وهذا العدوّ الخطير هو الأهواء النفسيّة، وقد سمّاها القرآن بـ(الهوى)؛ لأنّها تهوي بالإنسان (في الدُّنيا إلى كلّ داهيةٍ مُهْلِكَةٍ، وفي الآخرة إلى الهاوية)(٣)، وليس من خطر يداهم الإنسانَ، ويوقعه في المهالك أخطر من اتّباع الهوى، وأخطر ما فيه أنَّه يخرج الإنسان عن سبيل الهدى إلى دهاليز الضّلال، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾(٤).

ويعظم هذا الخطر إذا عرفنا استمراريّة هذه القوّة إلى آخر مراحل العمر؛ فليس هناك مرحلةٌ من المراحل يشعر فيها الإنسان بالاكتفاء والاستغناء، وإنّما تبقى الغريزة تلحّ على الإنسان في كلّ مراحل حياته، ففي الحديث الشريف: **«يَشيبُ ابنُ آدَمَ، وَيَشِبُّ فيهِ خِصْلَتانِ: الْحِرْصُ، وَطولُ الأَمَلِ»**(٥).

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٤، ح/٤٦٨٤-٤٦٨٥-٤٦٨٦.

(٣) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٧١٧، باب (هوى).

(٤) ص: ٢٦.

(٥) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٣/٢٢.

٢- النَّفْسُ اللَّوَّامة:

اختلف المفسّرون في تفسير النّفس اللّوّامة؛ هل هي نفس المؤمن؟ أم نفس الكافر؟ أم هي الأعمّ من المؤمن والكافر؟ بحيث تشمل كلَّ نفسٍ إنسانيّةٍ سواء كانت: مؤمنة أو كافرة، صالحة أو طالحة.

والظاهر من مجموع آراء المفسّرين هي النَّفْسُ الإنسانيّة الحيَّة المتيقّظة التي تراقب حركة الإنسان، فتشعره بالندم على ما فاته من النَّفع والخير، وتلومه على التَّقصير والمخالفة الشّرعيّة.

(والنَّفس اللّوّامة الكثيرة اللّوم، وليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها يوم القيامة، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددتُ، وإن كانت عملت سوءاً قالت: يا ليتني لم أفعل)[1].

وقال مجاهد: «تلوم على ما مضى، تقول: لِم فعلتُ ولِمَ لَمْ أفعل»[2].

وقال: «النَّفس اللّوّامة: هي التي تلوم نفسها على ما فات، وتندم على الشّر لِمَ فعلته؟ وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه؟ فهي لم تزل لائمة وإن اجتهدت في الطاعات»[3].

وقال الحسن: «هي والله نفس المؤمن، ما يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردتُ بأكلي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه»[4].

---

(١) الطّبرسي، مجمع البيان: ٥٩٧/١٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أحمد المراغي، تفسير المراغي: ١٤٥/١٠.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٩٣/١٩.

ومن خلال ما مرَّ نستنتج أنَّ النَّفسَ اللَّوّامة هي القوّة الرّادعة، الواعية المتيقّظة التي تلوم الإنسان على ما وقع فيه من مخالفات، أو تقصير، فعندما يقع الإنسان في عمل منافٍ للشّرع، أو العقل، يثور الرّادع الداخلي، وتنطلق سياط اللَّوم، والتَّقريع، والتّأنيب الداخليّ على ذلك العمل غير اللائق.

وإن شئتَ قلتَ هي (**الضَّمير الأخلاقيّ**)، وهذا الضَّمير يتفاوت قوّة وضعفاً من شخص إلى آخر، وهذا الضمير لا يندثر بكثرة الذّنوب، وإنّما تغطّيه الأدران، وتحجبه عن النور، ويمكن أن ينتفض، وينتعش، ويثور في أيّ ساعة تتوفّر فيها مقتضيات اليقظة، وقد شبّهها صاحب التّفسير الأمثل بـ(المَحْكَمة)، وسمّاها (المحكمة الداخليّة)، وشبّهها بـ(مَحْكمة القيامة) من عدّة وجوه:

«١- إنّ القاضي والشّاهد والمنفّذ للأحكام هو في الحقيقة كما يبيّنه تعالى في هذه الآية حول يوم القيامة: ﴿**عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ**﴾[1].

٢- إنّ هذه المحكمة ترفض كلّ توصية ورشوة وواسطة كما هو الحال في محكمة يوم القيامة، فيقول تعالى: ﴿**وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[2].

٣- إنّ محكمة الضّمير تحقّق وتدقّق الملفّات بأقصر مدّة، وتصدر الحكم بأسرع وقت، فلا استئناف في ذلك، ولا إعادة نظر، ولا تحتاج في ذلك شهوراً وسنين، وهذا هو ما نقرأه أيضاً في محكمة البعث: ﴿**وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ**

(١) الزّمر: ٤٦.

(٢) البقرة: ٤٨.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

٤- مجازاتها وعقوباتها ليست كعقوبات المحاكم الرسميّة العالميّة؛ فإنّ شرر النّيران تتّقد في الوهلة الأولى في أعماق القلب والروح، ثم تسري إلى الخارج، فتعذب روح الإنسان أولاً ثم تظهر آثارها في الجسم، فيكون تغيّرُ ملامح الوجه وطبيعة النوم والأكل ظاهراً وواضحاً فيعبّر تعالى عن ذلك في قوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[2].

٥- عدم احتياج هذه المحكمة إلى شهود، بل إنّ المعلومات التي يعطيها الإنسان المتهم بنفسه والذي يكون شاهداً على نفسه هي التي تقبل منه نافعةً كانت له أم ضارّةً! كما تشهد ذرّات وجود الإنسان حتّى يداه وجلده على أعماله في محكمة البعث، فيقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]»[4].

٣- النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ:

هي النَّفس المؤمنة العارفة بالله، الموقنة بوعده ووعيده، والرّاضية بقضائه وقدره، المرضيّة عنده جلَّ وعلا، والمسلّمة أمرها ووجهها إليه، العاملة بأمره، والسالكة سبيله، والمتجرّدة عمن سواه، يقول العلامة الطّباطبائي قدس سره:

«النّفس المطمئنّة هي التي تسكن إلى ربِّها، وترضى بما رضي به، فترى

(١) الرّعد: ٤١.

(٢) الهمزة: ٦-٧.

(٣) فصّلت: ٢٠.

(٤) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٩/١٨٥-١٨٦.

نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خيرٍ، أو شرّ، أو نفعٍ، أو ضرّ، ويرى الدنيا دار مجاز، وما يستقبله فيها من غنى، أو فقر، أو أيّ نفع وضرّ ابتلاءً وامتحاناً إلهيّاً، فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان وإكثار الفساد والعلوّ والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشّكر، بل هو في مستقرّ من العبوديّة لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط»(١).

وفي الكافي عن سَديرٍ الصَّيرفي قال: «قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: جُعِلْتُ فداك يا ابن رسول الله، هل يكرَهُ المؤمن على قبض روحه؟

قال: **لا وَالله إنَّهُ إذا أَتاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ لِقَبْضِ روحِهِ جَزِعَ عِنْدَ ذلِكَ، فَيَقولُ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: يا وَلِيَّ الله، لا تَجْزَعْ، فَوَالَّذي بَعَثَ مُحَمّداً صلى الله عليه وآله لأَنا أَبَرُّ بكَ وَأَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ والِدٍ رَحيمٍ لَوْ حضَرَكَ، افْتَحْ عَيْنَيْكَ فَانْظُرْ.**

قال: **وَيُمَثَّلُ لَهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله وَأَميرُ الْمُؤْمِنينَ وَفاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَالأَئِمَّةُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ عليهم السلام، فَيُقالُ لَهُ: هذا رَسولُ الله وَأَميرُ الْمُؤْمِنينَ وَفاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالأَئِمَّةُ عليهم السلام رُفَقاؤُكَ.**

قال: **فَيَفْتَحُ عَيْنَهُ فَيَنْظُرُ، فَيُنادي روحَهُ مُنادٍ مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعِزَّةِ فَيَقولُ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ إلى مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ بِالْوَلايَةِ ﴿مَّرۡضِيَّةً﴾ بِالثَّوابِ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ يَعْني مُحَمَّداً وَأَهْلَ بَيْتِهِ ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ فَما شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنِ اسْتِلالِ روحِهِ وَاللُّحوقِ بِالْمُنادي»(٢).**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/٢٨٥.

(٢) الكافي: ٥/٣٣٩-٣٤٠، ح/٤٣٠٨.

هذه هي عاقبة النّفوس المطمئنّة الرّاضية عن الله، المستسلمة إليه، وهي على عكس النّفس الكافرة الجاحدة لربّها حين يأتيها الموت وتنظر إلى عملها فتقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[1]، وأنّى لها ذلك؟! وقد بدأت لها حياة جديدة مليئة بالشّقاء والعذاب الذي لا تموت فيه ولا تحيا، والذي لم ترَه عينٌ ولم يخطرْ على قلبِ بشرٍ..

وهكذا يصل الإنسان إلى النّتيجة، ويقف أمام المحكمة الإلهيّة ينظر ما قدمت يداه فيشاهد (شريط) أعماله، وتأخذه الحسرات والألم فـ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[2].

والنّتيجة أنّ النّفس المطمئنّة هي: «الّتي ترجع عند كلّ هول يعصف بها إلى ربّها راضية مرضية، لا تستكفي بغيره، ولا تسترشد بسواه»[3].

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسي مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ، راضِيَةً بِقَضائِكَ ...

---

(١) النّبأ: ٤٠.

(٢) الفجر: ٢٤.

(٣) الشّيخ راضي آل ياسين، صلح الحسن عليه السلام: ١٦٧.

(الْبَحْثُ الثّاني)

جِهادُ النَّفْسِ

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله بَعَثَ سَرِيَّةً، فَلَمّا رَجعوا قالَ: مَرْحَباً بِقَوْمٍ قَضَوْا الْجهادَ الأَصْغَرَ، وبَقِيَ عَلَيْهِمُ الْجِهادُ الأَكْبَرُ، قيل: يا رَسولَ الله، وَما الْجِهادُ الأَكْبَرُ؟ فَقالَ: جِهادُ النَّفْسِ**»[1].

نفس الإنسان تحوي من الأسرار ما لم يحوها أيّ كائن آخر، فهي مملكة قائمة بذاتها، تضمّ معسكرين مختلفين في الحركة والاتّجاه، والهدف، وهما: معسكر التَّقوى ومعسكر الفجور، وبتعبير أهل العلم والمعرفة: جنود الشّيطان، وجنود الرّحمن.

وفي ساحة النَّفس يصطرع الجيشان باستمرار ودون توقّفٍ، وعلى نتائج المعركة يتحدّد مصير الإنسان الدّنيويّ والأخرويّ... وهذه النّتائج تتوقّف على انحياز الإنسان إلى أحد المعسكرين... فإذن في النَّفس الإنسانيّة قوّتان: قوّة خير ملائكيّة، وقوّة شرّ شيطانيّة؛ القوّة الملائكيّة واحدة متفرّدة، وهي العقل وقوى الشرّ متشعّبة كثيرة، وهي الأهواء، والشَّهوات الماديّة، أو المعنويّة كحبّ الجاه والظّهور والترؤّس...

وفي هذه النّفس خزائن كامنة من الخير والشّرّ، وظهور هذه الخزائن على

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٦٠، ووسائل الشّيعة للحرّ العاملي: ١٢٤/١١ .

مسرح الحياة يتوقّفُ على إرادة الإنسان نفسه، وانجذابه واندفاعه وراء جواذب الخير، أو انجراره وراء دوافع الشّرّ... ولما جعل الله هذين الجانبين في ظرف واحد أعطى للإنسان قوّة التّمييز، والفرز، والاختيار؛ فإمّا أن يختار طريق العلم، والمعرفة، والجهاد من أجل رفع مستوى القوى الخيّرة، وتحكيمها في الجانب الآخر، وإمّا أن يختار عكس ذلك.

كلّ ذلك يجري باختيار الإنسان دون استقلال عن الإرادة الإلهيّة؛ لأنَّ الله تعالى أودع هذه الخزائن في الكيان البشريّ، وترك له حريّة الاختيار، يقول تعالى:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1].

﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[2].

أي نَجْدُ الخَيْرِ، ونَجْدُ الشَّرِّ، فأوضح له طريق الخير وأمره بسلوكه، ورغّبه بعظيم ثوابه، وبيّن له طريق الشّرّ، ونهاه عن وُلوجِهِ، وخَوَّفَهُ بشديد عقابه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتاباً هادِياً بَيَّنَ فيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدوا، وَاصْدِفوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدوا**»[3].

ولا نقصد بخزائن الخير والشّرّ أنَّ ذاتَ الشّرِّ وذات الخير مودعٌ في نفس الإنسان، وإنّما نقصد أنَّ الله تعالى منح هذا الكائن قدرات مختلفة، وطاقات كبيرة، وأعطاه القدرة على أن يستعمل تلك الطّاقات الكامنة في ذاته في سلوك

---

(١) الإنسان: ٣.

(٢) البلد: ١٠.

(٣) نهج البلاغة: ٢٧٤، خطبة: ١٦٧، واصدفوا: أعرضوا، السّمت: الطّريق، القصد: العدل.

سبيل الخيرّ أو في سلوك جانب الشرّ... فهذه الخزائن عبارة عن الطّاقات والقدرات الكامنة في ذات الإنسان، والله تعالى بعد أن منحه إيّاها أمره بسلوك سبيل الخيرّ، ونهاه، وحذَّرَه من سلوك الطّريق الآخر... وبعبارة أخرى: إنَّ الله تعالى لما منح الإنسان هذه الطّاقات أمره أن يستغلّها في طاعته، ولا يستعين بها على معصيته، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَقَلُّ ما يَلْزَمُكُمْ لله أَلا تَسْتَعينوا بِنِعَمِهِ عَلى مَعاصيهِ**»(١).

ولما كان لكلّ من السّبيلين جواذب، ودوافع، وأسباب مثيرة، ومؤثرة... إذن لا بدَّ من تقوية دوافع الخير وتصعيدها؛ لتكون هي الحاكمة، والمؤثّرة في سلوك الإنسان.

أما كيف يستطيع الإنسان أن يصعِّدَ في نفسه دوافعَ الخير، ويخمد نوازع الشّرّ؟ فهذا ما نحاول أن نجيب عليه من خلال البحث.

فنقول: لا شكَّ أنَّ العواملَ المساعدةَ على الانجرار في طريق الشّقاء والتّعاسة الدّنيويّة والأخرويّة كثيرةٌ، وخصوصاً إذا عرفنا أنَّ النَّفس ذاتها أمارّةٌ بالسّوء، فهناك مؤثّرات داخليّة، وهي: الشّهوات، والأهواء، والعادات، والتّقاليد، والأعراف السّيئة... ومؤثّرات خارجيّة، وهي: أعمال شياطين الجن والإنس، وما يبذلونه من جهود لإثارة دواعي الشّر في النّفوس، وما يهيئونه من أسباب مثيرة، ونتيجة لهذين العاملَين المؤثّرَين جعلَ الإسلامُ المقاومةَ لهما جهاداً أكبر وأعظم من خوض ساحات الوغى في مواجهة العدو الظاهريّ.

إذن للإنسان عدوّان: عدوّ ظاهريّ، وهو شياطين الإنس والجنّ، وعدوّ

---

(١) نهج البلاغة: ٥٤١، قصار الحكم: ٣٢١.

باطنيّ، وهو الأهواء والشّهوات... والانتصار على العدوّ الظّاهري متوقّف على الانتصار على العدوّ الباطني، فمن انتصر على أهوائه، سيطر على عدوِّه الباطني، وحينئذٍ لا بدّ أن ينتصر على عدوّه الخارجي... فلا تصدّق أنّ أحداً يستطيع أن ينتصر على عدوّه الخارجي انتصاراً حقيقيّاً يرضاه الله ما لم ينتصر على نفسه (**العدوّ الدّاخلي**).

ماذا يَعْني جِهادُ النَّفْسِ؟

هو بذل الجهد؛ لتطويع غرائز النّفس الأمّارة بالسّوء لحكم الشّرع والعقل، وبعبارة أخرى: هو محاولة الإنسان لإخضاع أهوائه، ورغباته النّفسيّة الدّانية، ونزواته الشّهوانيّة لإرادة الله عزَّ وجلّ بتحميلِها ما لا تميل إليه، ولا ترغب فيه، ومنعِها عمّا تحبّ وتنجذب إليه من محرّمات ومكروهات، بل حتى المباحات، وبتعبير الإمام العارف الخمينيّ العظيم ﵀: «عبارة عن انتصار الإنسان على قواه الظّاهريّة، وجعلها تأتمر بأمر الخالق، وتطهير المملكة من دنس وجود قوى الشّيطان وجنوده»[1] بترويض النَّفس على ما لا تحبّ وترغب، حتّى تكون طبعاً وعادة وسلوكاً، كما يقول الغزاليّ: «هي تكلّف الأفعال الصّادرة عنها ابتداءً لتصير طبعاً انتهاءً»[2].

وهذا الأمر يحتاج إلى قوّة إرادة، وبصيرة نافذة، ومران مستمرّ على تجاوز العقبات والضغوط النفسيّة فمن خلال المقاومة بشكل تدريجيّ تصبح عادة،

---

(١) الإمام الخمينيّ، الأربعون حديثاً: ٢٣.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدّين: ٥٩/٣.

وطبعاً، وسلوكاً، شريطة الصّبر، والنَّفَس الطّويل، ومراقبة أحاسيس، وخواطر، وخيالات النّفس بصورة مستمرّة، وعدم إطلاق الزّمام لها فيما تهوى، وإخضاعها لسلطان العقل والشّرع.

يقول معلّم الأخلاق الفقيه الجليل الشيخ محمّد أمين زين الدّين رحمه الله: «فالاعتدال الخلقيّ جهاد في جميع أدواره.. هو جهادٌ؛ لأنَّه خروج على غريزة، وتمرّد على قوّة، وهو جهادٌ؛ لأنَّه إرغامُ إرادةٍ وقسرُ عادةٍ، وهو جهادٌ؛ لأنَّه حملٌ للنَّفس على ما تكره، وصرفٌ لها عمّا تحبّ، وهو جهادٌ؛ لأنَّ الفضائل أوساط، ومعرفة هذه الأوساط تستدعي حزماً، والإقامة عليها تستدعي عناءً، وهو -قبل هذا كلّه- جهادٌ؛ لأنَّه بحث عن عيوب النَّفس المحبوبة، وَالحُبُّ -كما في المثل المشهور- يعمي ويصمّ.

وإذا كانت للنّفس رغبات وأهواء تزاحم الخلق الصّحيح -في ابتداء تكوينه-، فإنَّ لها نظائر من هذه الرَّغبات تزاحم الخلق الصحيح في أوقاته الأخرى، والنَّفس -من أجلّ هذه الرغبات المتزاحمة- في جهاد متواصل»[1].

أَثَرُ الْمُقاوَمَةِ:

لا شكَّ أنَّ طبيعة الإنسان وسلوكه خاضعة للتّغيّر والتّبدّل من حال إلى حال، ومن خلق إلى آخر حسب توجّهاته وأهدافه، ومدى خضوعه للعوامل المؤثّرة فيه كالبيئة والوراثة والتّربية... ومن العجيب أنَّ أيّ عادة إذا قاومها الإنسان تنقلب إلى عكسها، (فمن خصائص الهوى أنّه يتلطّف إذا أحكم الإنسان

(١) الشيخ محمّد أمين زين الدّين، الأخلاق عند الإمام الصادق عليه السلام: ١٦٠.

إرادته وعقله في شهواته، فكلّما قاومها الإنسانُ تلطّفت ميوله النّفسيّة، وخفّت ضغوطُها، وبالعكس لو استجيب لها فإنّها تغلظ، وتستحكم، وتقوى)[(١)].

إنَّ أيَّ خصلةٍ من الخصال إذا داوم الإنسان على الاتّصاف بها تضعف مضادّتها، فإذا داوم على العفة كَرِهَ الفجورَ، وإذا داومَ على الكرمِ كرِهَ الْبُخْلَ، وإذا داوم على الشّجاعة كرِهَ الجبنَ، وهكذا...

إذن هذه المقاومة للأهواء والنّزوات تتحول بإرادة الإنسان إلى قوّةٍ، وعلمٍ، وحكمةٍ، وفهمٍ، وبصيرةٍ، ونورٍ في الحياة يمشي به بين النّاس.

أساليبُ الْمُجاهَدَة:

لقد سلك العلماء، والعارفون، والمريدون من أتباع الأديان السّماويّة والمذاهب الأرضيّة طرقاً وأساليب مختلفة في المجاهدة، فلكلّ أسلوبه الخاص حسب معتقده، وطبيعة أهدافه من المجاهدة، وإن كانت بعض هذه الأساليب منافية للعقل والشّرع، إلا أنَّ جميعهم متّفقون على أنَّ مخالفة أهواء النَّفس تحقّق قدرات هائلة: نفسيّة، وفكريّة، وعلميّة، وعمليّة ونجاحاً باهراً في الدّنيا والآخرة إذا كانت ضمن الحكم الشّرعي...

ونحن هنا في هذا البحث نعرض بعض أساليب مجاهدة النّفس التي أقرّتها السّنّة المطهرة: قولاً، أو فعلاً، أو تقريراً؛ فقد عرض المحدّث الحرُّ العاملي رحمه الله في كتاب وسائل الشّيعة أبواباً كثيرة لهذه الأساليب؛ نذكر منها:

١- إنّ الله عزَّ وجلّ لم يمنح الإنسان قوّة شهويّة إلا وجعل مقابلها قوّة

---

(١) من محاضرة لآية الله الشّيخ محمد مهدي الآصفي قدس سره بعنوان الأهواء.

أخرى تعينه على مقاومتها سواء في الجوارح، أو في الجوانح، فلم يجعل هذه النّزوات مطلقة العنان، وإنّما وضع لها قيوداً وموانعَ تقف بوجهها شريطة أن يستعملها الإنسان بما أمره الله تعالى؛ فعن الإمام الصّادق عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام، قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: يَقولُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى لابْنِ آدَمَ إنْ نازَعَكَ بَصَرُكَ إلى بَعْضِ ما حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَقَدْ أَعَنْتُكَ عَلَيْهِ بِطَبَقَيْنِ، فَاطْبِقْ وَلا تَنْظُرْ، وَإنْ نازَعَكَ لِسانُكَ إلى بَعْضِ ما حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَقَدْ أَعَنْتُكَ عَلَيْهِ بِطَبَقَيْنِ، فَاطْبِقْ فَلا تَتَكَلَّمْ، وَإنْ نازَعَكَ فَرْجُكَ إلى بَعْضِ ما حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَقَدْ أَعَنْتُكَ عَلَيْهِ بِطَبَقَيْنِ، فَاطْبِقْ وَلا تَأتِ حَراماً**»[(١)].

٢- لقد حثَّ الإسلامُ العظيمُ على تفحّص النَّفس، وكشف ما بها من عيوب، وجمع تلك العيوب، والنَّظر فيها بدقّة، ورويّة، والعمل على إزالتها، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَعَلى الْعاقِلِ أَنْ يَحْصِيَ عَلى نَفْسِهِ مَساوِئَها في الدّينِ وَالرَّأْيِ وَالأَخْلاقِ وَالأَدَبِ، فَيَجْمَعُ ذلِكَ عَلى صَدْرِهِ أَوْ في كِتابٍ، وَيَعْمَلُ في إزالَتِها**»[(٢)].

كَيْفَ يَعْرِفُ الإِنْسانُ عُيوبَهُ؟

ذكر علماء الأخلاق طرقاً متعددة لمعرفة عيوب النّفس، نشير إلى بعضها:

١- بوساطة الخلطاء والأصحاب: (صديقك غيرك، فلا يصعب عليه أن يطلع على نقائصك، وقد جعله الحبُّ الصحيح كالجزء منك، فهو لا يخفي عليك

---

(١) وسائل الشّيعة: ٢٠١/١١.

(٢) محمد بن طلحة الشّافعي، مطالب السّؤول في مناقب آل الرّسول عليهم السلام: ٢٥٠، وبحار الأنوار: ٦/٧٨.

شيئاً تكرهه)[١]، يقول الإمام الصّادق عليه السلام:

«لا خَيْرَ في صُحْبَةِ مَنْ لَمْ يَرَ لَكَ مِثْلَ الّذي يَرى لِنَفْسِهِ»[٢].

«أَحَبُّ إِخْواني إِلَيَّ مَنْ أَهدى إِلَيَّ عُيوبي»[٣].

«مَنْ رَأى أَخاه عَلى أَمْرٍ يَكْرَهُهُ فَلَمْ يَرُدَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَقَدْ خانَهَ»[٤].

٢- اجتنب من أعمالك ما تعدّه قبيحاً من غيرك.

٣- استفد من لسان عدوّك ما خفي على عين صديقك.

٤- إذا اتّهمت نفسك بخلق ذميم، وأردت معرفة موقع هذه التّهمة من الصّحة، فحاول أن توجد عملاً يخالف ذلك الخلق، فإذا صعب عليك العمل فاعلم أنّ ذلك الخلق من صفاتك.

٥- تستطيع النَّفس أن تخفي نقائصها عن الإنسان، ولكنَّها لا تستطيع أن تخفي عنه ميولها وأهواءها، وهذا الهوى أثر لازمٌ للخلق السّيّئ، فإذا خفيت عليك نقائصك فاجتنب أقرب الأمرين إلى هواك[٥]...

إذن الإنسان الكيّس البصير هو الّذي يبصر عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، وحينئذٍ يشغله ذلك عن الاشتغال بعيوب الآخرين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) الأخلاق عند الإمام الصّادق عليه السلام: ١٦٤.

(٢) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول: ٣٦٨.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٦٨٧/٤، ح/٣٦١٢.

(٤) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٣٤٣، ح/٤٠٩، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٦١/٧، ح/٣٧٢١.

(٥) هذه النّقاط المتقدّمة أفيدت من كتاب الأخلاق عند الإمام الصّادق عليه السلام للشيخ محمّد أمين زين الدّين: ١٦٤-١٦٥.

«أَبْصَرُ النّاسِ مَنْ أَبْصَرَ عُيوبَهُ، وَأَقْلَعَ عَنْ ذُنوبِهِ».

«أَفْضَلُ النّاسِ مَنْ شَغَلَتْهُ مَعايِبَهُ عَنْ عُيوبِ النّاسِ».

«كَفى بِالْمَرْءِ كَيْساً أَنْ يَعْرِفَ مَعايِبَهُ».

«كَفى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يَجْهَلَ عَيْبَهُ».

«مَعْرِفَةُ الْمَرْءِ بِعُيوبِهِ أَنْفَعُ الْمَعارِفِ»[(١)].

وكما أنَّ السعيدَ مـن أبصر عيوبه وعالجهـا، فـإنَّ الشـقي مـن تعـامى عـن عيوب نفسه، وتغافلَ عن إصلاحها؛ وهذا الصّنف من النّاس تراه مراقباً للنّـاس لا يرى فيهم أيَّ جنبة خير، وإذا رآها حاول إخفاءها، أو تأويلها بتأويل يعكـس مـا في نفسه؛ فكلّ إناء بالذي فيه ينضح، فهو يرى فـي النّـاس مـا يضـمره فـي نفسـه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ عَمِيَ عَنْ زَلَّتِهِ اسْتَعْظَمَ زَلَّةَ غَيْرِهِ».

«مَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْـرِ نَفْسِـهِ، تَحَيَّـرَ فـي الظُّلُمـاتِ، وَارْتَبَـكَ فـي الْهَلَكاتِ»[(٢)].

وعلى من ابتلي بمراقبة النّاس، وإحصاء عيوبهم، وتتبّع آثـارهم أن يلتفـت إلى نفسه، ويحصـي مـا فيهـا مـن عيـوب، ومـا وقعـت فيـه مـن زلات، فـإنَّ ذلـك يخفّف من توقان الـنّفس إلـى ذلـك.. فكلّمـا تاقـت نفسـه إلـى ذكـر عيـب أحـد فليذكر عيب نفسه، وما يدريك لعلَّ الشَّـخص الـذي ينظـر إلـى معايبـه، وذنوبـه، وزلاته قد أصلحها، وعالجها، وغفر الله له، فلماذا إذن يشـغل نفسـه بمـا لا يهمّـه؟

---

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٤-٢٣٥، ح/٤٦٩٠-٤٦٩١-٤٦٩٥-٤٦٩٨-٤٧١٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٤، ح/٤٧٠٧-٤٧٠٨.

فمن العار أن ينزل الإنسان نفسه هذا المنزل الوبيء، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لِيَنْهَكَ عَنْ ذِكْرِ مَعايِبِ النّاسِ ما تَعْرِفُ مِنْ مَعايِبِكَ**»[١].

ويقول العارف العظيم الإمام الخمينيّ قدس سره: «فالسّالك إلى الله هو ستّار عيوب عباد الله، ولا ينبغي أن يُتلف عمرَه في كشف أستار الناس، بل عليه أن يغُضَّ بصره عن عورات عباد الله وعيوبهم، ولا يهتك سرَّ أحدٍ، ولا يمزّق ستر ناموس أحد، مثلما أنّ الله السّتّار قد ستر عيوبه وهي أكبر ممّا لدى الآخرين وأشدُّ فضحاً، فهو يخشى أن يزيح اللهُ حجاب ستّاريّته عن بعض أعماله ويخزيه على رؤوس الأشهاد.

إنّ المسافر في طريق الآخرة تشغله دراسة عيوبه وعوراته عن عيوب الآخرين، وهو لا يبحث عمّا لا ينفعه من سائر الأمور، أو التي تضرُّه، كما أنّه لا يَضَعُ عمله رأسمال لتجارة الآخرين، وذلك بالغيبة وهتك السّتر، وهو لا ينسى أبداً عيوبه وذنوبه، فإنّ نسيان الذّنوب من أشدّ عقوبات الله في الدُّنيا؛ لأنّه يصدُّ الإنسان عن جُبرانها؛ كما أنَّه من أكبر موجبات العقاب في الآخرة»[٢].

إنّ من أساسيّات الخلق الإسلامي: الرّحمة، والشّفقة، والسّتر على من ارتكب الذنوب والعصيان، والعمل على إنقاذه من هذه الأمراض الوبيئة في الوقت الذي وفّقه الله وحماه من ذلك، فيجب عليه أن يشكرَ اللهَ على هذه الألطاف، وهذه الألطافُ والنِّعمُ ينبغي أن تمنعه عن ذكر عيوب النّاس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَإِنَّما يَنْبَغي لأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنوعِ إِلَيْهِمْ في**

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٤، ح/٤٦٩٩.

(٢) الإمام الخميني، سرّ الصّلاة: ١١٥.

السَّلامَةِ أَنْ يَرْحَموا أَهْلَ الذُّنوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ»[١].

هذه الرَّحمة هي خلقٌ إلهيٌّ، وفيضٌ رحمانيٌّ أفاضه اللهُ على عبده، فصار فكراً، وخلقاً، وطبعاً، وسلوكاً بمنّه وفضله تعالى، وهذا شأن من «**تَخَلَّقَ بِخُلُقِ الله**»[٢]، فعصمَهُ اللهُ، ووفّقَهُ لذلك.

أما من يرتكب الذّنوب والمعاصي ثم يعيب الآخرين على ارتكابها، فلا بدَّ أن يعلم أن هذا من أسوأ الأخلاق، وأحط الصّفات، وأقبح الذّنوب، وإذا ابتلي الإنسان بذلك - لا سامح الله تعالى - فإنّ العلاج هو أن يذكر ستر الله عليه من ذنوبه التي ارتكبها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَكَيْفَ بِالْعائِبِ الَّذي عابَ أَخاهُ وَعَيَّرَهُ بِبَلْواهُ! أَما ذَكَرَ مَوْضِعَ سِتْرَ الله عَلَيْهِ مِنْ ذُنوبِهِ ما هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الّذي عابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصى اللهَ فيما سِواهُ مِمّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَأَيْمُ الله لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصاهُ في الْكَبيرِ، وَعَصاهُ في الصَّغيرِ، لَجُرْأَتُهُ عَلى عَيْبِ النّاسِ أَكْبَرُ**»[٣].

ثم لماذا يتعجّل الإنسان بعيب النّاس لذنوبهم؟ وما يدريه لعلّ هؤلاء قد تابوا وغفر الله لهم، ولماذا يأمن على نفسه الصّغائر، ويستكبرها على غيره؟ فلعلّه

---

(١) نهج البلاغة: ٢٢٧، خطبة: ١٤٠.

(٢) في الحديث الشّريف: «**تَخَلَّقوا بِأَخْلاقِ الله**»، بحار الأنوار: ١٢٩/٦١، وفي الحديث القدسي أنَّ اللهَ تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: «**تَخَلَّقْ بِأَخْلاقي**»، الجواهر السّنيّة للحرّ العاملي: ٧٨.

(٣) نهج البلاغة: ٢٢٧-٢٢٨، خطبة: ١٤٠.

معذّب على ذنوبه، يقول سيّد الأوصياء عليه السلام: «**يا عَبْدَ الله، لا تَعْجَلْ في عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ؛ فَلَعَلَّهُ مَغْفورٌ لَهُ، ولا تَأْمَنْ عَلى نَفْسِكَ صَغيرَ مَعْصِيَةٍ؛ فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ؛ فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ؛ لِما يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شاغِلاً لَهُ عَلى مُعافاتِهِ مِمّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ**»(١).

التَّدَبُّرُ في عَواقِبِ الأَعْمالِ قَبْلَ الإِقْدامِ عَلَيْها:

لقد منحَ اللهُ الإنسانَ العقلَ، وميَّزه به عمّن سواه، وجعل العقلَ ميزاناً يزن به الأمور، وقوّةَ سيطرةٍ على النّوازع الأخرى الكامنة في النّفس.

فإذن الإنسان ليس مطلق الحريّة في كلّ ما تهوى نفسه، وتميل إليه، فدَوْرُ العقلِ في مملكة البدنِ هو دورُ الحاكم المتبوع، لا التابع، وهذه المنحة هي أعظم المنح الإلهيّة للإنسان، ومن هنا أمرَ الإسلامُ ابنَ آدم بالتّفكير، والتّدبّر في كلّ عمل يريد أن يقوم به؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّ رَجُلاً أَتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله، فَقالَ لَهُ: يا رَسولَ الله، أَوْصِني، فَقالَ لَهُ رَسولُ الله: فَهَلْ أَنْتَ مُسْتَوْصٍ إِنْ أَنا أَوْصَيْتُكَ؟ حَتّى قالَ لَهُ ذلِكَ ثَلاثاً، وَفي كُلِّها يَقولُ الرَّجُلُ: نَعَمْ يا رَسولَ الله.**

فَقالَ لَهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: فَإِنّي أُوصيكَ إِذا أَنْتَ هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عاقِبَتَهُ فَإِنْ يَكُ رُشْداً فَامْضِهِ، وَإِنْ يَكُ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ»(٢).

إذن الإنسان بحاجة إلى تأمّلٍ دقيقٍ، وتفكّرٍ عميقٍ في العمل قبل أن يقدم

---

(١) نهج البلاغة: ٢٢٨، خطبة: ١٤٠.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ١٥/٣٥٩-٣٦٠، ح/١٤٩٤٥.

عليه، فالمتدبّر يضع مشروع عمله على طاولة التّشريح، ويدرس جميع احتمالاته من جميع جوانبها على المدى القريب والبعيد، وبعد أن يدرس المقدّمات يستطيع أن يتوصّل إلى النّتائج المستقبليّة، ومدى تأثيرها عليه في المستقبل البعيد، علماً إنّ الإسلام يرفض الأعمال الارتجاليّة جملةً وتفصيلاً، ويأمر بالتّفكّر، والتّخطيط، والتّقنين المحكم قبل التّنفيذ؛ ليحمي الإنسان نفسه من الورطات والهلكات، ولئلا يذهب جهدُهُ هباءً بلا فائدةٍ ماديّةٍ، أو معنويّة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده محمّد بن الحنفيّة قال: «**مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الآراء عَرفَ مَواقِعَ الْخَطَأ، وَمَنْ تَورَّطَ في الأُمورِ غَيْرُ ناظِرٍ في الْعَواقِبِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لَمفْظعاتِ النَّوائِبِ، وَالتَّدْبيرُ قَبْلَ الْعَمَلِ يُؤْمِنُكَ مِنَ النَّدَمِ، وَالْعاقِلُ مَنْ وَعظَهُ التَّجارُبُ، وَفي التَّجارُبِ عِلْمٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَفي تَقُلُّبِ الأَحْوالِ عِلْمُ جَواهِرِ الرِّجالِ**»[١].

ويقول عليه السلام: «**الْفِكْرُ في الْعَواقِبِ يُنْجي مِنَ الْمَعاطِبِ**».

«**الْفِكْرُ في الْعَواقِبِ يُؤْمِنُ مَكْروهَ النَّوائِبِ**».

«**إذا قَدَّمْتَ الْفِكْرَ في جَميعِ أَفْعالِكَ حَسُنَتْ عَواقِبُكَ في كُلّ أَمْرٍ**»[٢].

وواضح أنَّ التَّدبّر في العواقب له دورٌ فعّالٌ في جهاد النّفس وترويضها؛ لأنّ العقل يصبح هو الحاكم المسيطر والموجّه لطاقات النّفس إلى العمل الجادّ المثمر، ويمنعها من الانجرار وراء الأهواء والميول الشّهوانيّة... فالميول النّفسيّة كتيّار ماء غزير إذا ترك وشأنه فإنَّه سوف يخرب الدّيار، ويهلك الحرث والنّسل،

---

(١) وسائل الشّيعة: ١١/٢٢٣.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٨، ح/٥٩٥-٥٩٦-٥٩٧.

ويفسد الأرض بالمستنقعات والأهوار، وأما إذا وضعت له السّدود، والنّواظم، وفتحت له القنوات، والجداول، فسيحوّل الأرض إلى جنان تعطي الثّمار والأزهار، ويولّد الطّاقات الكهربائيّة وغير ذلك. كذلك طاقات النّفس إن وُجِّهَتْ إلى جهة الصّلاح فستعطي الإرادة، والقوّة، والعزة، والعزم، والبصيرة... وهكذا إذا ألزم الإنسان نفسه بالتّدبر والتّأمّل في كلّ عمل يقوم به، فسيكون ذلك طبعاً وعادةً وسلوكاً، وبهذا يكون عارفاً مواضع أقدامه، وفي هذا من الخير ما لا يعلمه إلا الله.

الْجِدِّيَّةُ في إِصْلاحِ النَّفْسِ:

للإنسان ظاهرٌ وباطنٌ، أو سرٌّ وعلنٌ؛ أما ظاهره فواضح له ولغيره، وأما باطنه وسرّه فلا يعلمه إلا الله، وهو بعيوب نفسه وملكاتها أبصر من غيره يعرف خلجاتها، وميولها، وأهواءها، وأحاسيسها؛ وهي التي تدفعه إلى ما تهوى وما تميل إليه، وهذه الميول الدّاخلية لا يعرفها إلا صاحبها حتى تظهر على فلتات لسانه، أو صفحات وجهه، أو على سلوكه الشخصيّ؛ فهناك تلازمٌ بين الظّاهر والباطن، فما يضمره الإنسان في نفسه لا بدّ وأن ينعكس على ظاهره، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إلا ظَهَرَ في فَلَتاتِ لِسانِهِ، وَصَفَحاتِ وَجْهِهِ**»[١]، وكما يقول الشّاعر[٢]: [من البسيط]

ومَهْما تَكُن عند امرئ من خَليقةٍ   وإن خالَها تَخفى على النّاس تُعْلَمِ

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩٠، قصار الحكم: ٢٢.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى: ١١١.

إذن لا بـدّ للعاقـل أن يضـع تلـك الأحاسـيس والميـول فـي ميـزان العقـل والشّرع، ويميّز بين ما يهديه إلى الخير، ومـا يرديـه فـي مسـتنقع الشّـر، وهـذا هـو السّبيل الوحيد والخطوة الأولى لإصلاح النّفس، فما لم يُحَكّم الإنسان عقلـه فـي ميوله، ونوازعه فلا يمكن أن يطيع رسولاً هادياً، أو مرشداً مصلحاً أبداً.

إذن لمّا كان الإنسانُ أبصر بنفسه من غيـره فيجـب أن يعـالج نفسـه بنفسـه، ويختار لها أصلح العلاجات، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَاعْلَموا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلى نَفْسِهِ حَتّـى يَكـونَ لَـهُ مِنْهـا واعِـظٌ وَزاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِها زاجِرٌ وَلا واعِظٌ»[1].

ويقـول عليه السلام: **«وَمَنْ كانَ لَـهُ مِـنْ نَفْسِـهِ واعِـظٌ كـانَ عَلَيْـهِ مِـنَ الله حافِظٌ»**[2].

وإصلاح النّفس يتطلّب من الإنسان رؤية واضحة لمسيرة حياته، وتحديـداً دقيقاً لأهدافه فيهـا ضـمن الحـدود الشّرعية، ومراقبـة دقيقـة لنفسـه، فيمـا تهـوى وتحبّ، وفيما تبغض وتنفر، وفيما تنجذب إليـه، وتـنكمش منـه، وأن يعـدّ عليهـا زلاتها، ويحصي عليها نواقصها، ثم يعمل على إزالة العيوب، وإكمال النّواقص... وهذا لا بدّ له من إرادةٍ قويّةٍ، وعزيمةٍ ماضيةٍ، ونيّةٍ صادقةٍ، وطريقةٍ سـليمةٍ... فـإذا توفّرت هذه المستلزمات فقد وضع الإنسان نفسـه علـى جـادّة الصـواب، وحينئـذٍ يبدأ بالارتقـاء فـي سـلم الكمـال رويـداً رويـداً... ولا بـدَّ أن نعلـم أنَّ هـذا طريـقٌ طويلٌ، ومسيرٌ صعبٌ عسيرٌ لا يستمرّ به إلا ذوو الهمم العالية، والعقيـدة الرّاسـخة،

(١) نهج البلاغة: ١٤٧، خطبة: ٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤٩٩، قصار الحكم: ٨٤.

والإرادة القويّة، والعزم الذي لا يتزلزل، والجهد والجهاد المتواصل بلا كللٍ ولا مللٍ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**كُلَّما ازْدادَ عِلْمُ الرَّجُلِ زادَتْ عِنايَتُهُ بِنَفْسِهِ، وَبَذَلَ في رِياضَتِها وَصَلاحِها جُهْدَهُ**»[(١)].

ونختم هذا البحث بما ورد عن أئمّة الهدى عليهم السلام من أنوار إلهيّة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**أَعْجَزُ النّاسِ مَنْ قَدَرَ عَلى أَنْ يُزيلَ النَّقْصَ عَنْ نَفْسِهِ وَلَمْ يَفْعَلْ**»[(٢)].

«**نَظَرُ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ الْعِنايَةُ بِصَلاحِ النَّفْسِ**».

«**مَنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ في إِصْلاحِها (صَلاحِها) سَعِدَ**».

«**لا تَتْرُكْ الاجْتِهادَ في إِصْلاحِ نَفْسِكَ فَإِنَّهُ لا يُعينُكَ (عَلَيْها) إِلا الْجِدُّ**».

«**الْعارِفُ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَها وَنَزَّهَها عَنْ كُلِّ ما يُبْعِّدُها وَيوبِقُها**»[(٣)].

شُروطُ الْمُجاهَدَةِ في رَأيِ الإمامِ الْخُمَيْنِيّ قدس سره:

للإمام الخمينيّ قدس سره – وهو العارف بكلّ ما تحمل المعرفة من أبعاد – نظرات دقيقة أوضح فيها شروط المجاهدة، هذه الشّروط سال بها قلمه المبارك بعد تجربةٍ ومعاناةٍ طويلةٍ، وليس مجرّد نظريّات سطّرها من خياله كترف أدبيّ،

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٧، ح/٤٧٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦١، ح/٥٦٤٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٥-٢٣٩، ح/٤٧٢٨-٤٧٧٠-٤٧٧٤-٤٨٤١.

وهذه الشّروط هي:

١- **التَّفَكُّر** في الهدف الأساسي من وجود الإنسان في هذه الحياة، هل للتّمتع بالملاذ الماديّة الزائلة وحسب؟ أم هناك هدفٌ أسمى وأعلى وهو التكامل الرّوحيّ، والفكريّ، والأخلاقيّ؟ يقول قُدِّسَ سِرُّهُ: «إنّ الإنسان إذا فكّر للحظة واحدة، عرف أنَّ الهدف من هذه النّعم هو شيء آخر، وأنّ الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم، وأنّ هذه الحياة الحيوانيّة ليست هي الغاية بحدّ ذاتها، وأنّ على الإنسان العاقل أن يفكّر بنفسه، وأن يترحّم على حاله ونفسه المسكينة»[1].

٢- **العزم**: وهو غير الإرادة، بل هو (جوهر الإنسانيّة، ومعيار ميزة الإنسان، وإنّ اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه)[2]... والعزم هو (أن يوطّن الإنسان نفسه، ويتّخذ قراراً بترك المعاصي، وبأداء الواجبات، وتدارك ما فاته في أيام حياته، وبالتّالي أن يعمل على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعيّاً بحيث يحكم الشّرع والعقل)[3].

٣- **المشارطة والمراقبة والمحاسبة**: يقول رضوان الله عليه: «ومن الأمور الضّروريّة للمجاهد: «المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة»، فالمشارط هو الذي يشارط نفسه في أوّل يومه على أن لا يرتكب اليوم أيّ عمل يخالف أوامر الله، ويتّخذ قراراً بذلك ويعزم عليه. وواضح أنّ ترك ما يخالف أوامر الله، ليوم واحد، أمر يسير للغاية، ويمكن للإنسان بيسر أن يلتزم به. فاعزم، وشارط،

(١) الأربعون حديثاً: ٢٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥.

وجرّب، وانظر كيف أنَّ الأمر سهل يسير»(١).

وأما **المراقبة**؛ فهي (أن تنتبه طوال مدّة المشارطة إلى عملك وفقها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شارطت)(٢).

وأما **المحاسبة**؛ فهي (أن تحاسب نفسك؛ لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع الله، ولم تخن وليّ نعمتك في هذه المعاملة الجزئيّة؟ إذا كنت وفيت حقّاً فاشكر الله على هذا التّوفيق)(٣).

٤- **التذكّر**: وهو (عبارة عن ذكر الله تعالى ونعمائه التي تلطّف بها على الإنسان)(٤)، يقول رضوان الله تعالى عليه: «لاحظ الآن أنَّ النعم الظاهرة والباطنة التي تفضّل بها علينا مالك الملوك جلَّ شأنه لو اجتمع الجن والإنس لكي يعطونا واحدة منها لما استطاعوا، وهذه حقيقة نحن غافلون عنها، فمثلاً هذا الهواء الّذي ننتفع به ليلاً ونهاراً، وحياتنا وحياة جميع الموجودات مرهونة به، بحيث لو فقد مدّة ربع ساعة لما بقي هناك حيوان على قيد الحياة، هذا الهواء كم هو نعمة عظيمة، يعجز الجن والإنس جميعاً عن منحنا مثيلاً لها لو أرادوا أن يمنحونا ذلك؟

إذن، فيا أيّها العزيز، كن ذاكراً لعظمة ربك، وتذكّر نعمه وألطافه، وتذكّر أنّك في حضرته - وهو شاهدٌ عليك -»(٥).

(١) الأربعون حديثاً: ٢٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧.

(٥) المصدر نفسه: ٢٧-٢٨.

٥- التَّحامي مِن الذُّنوبِ: إنّ العامل على تطهير نفسه لا بدّ له أن يتوقّى الأسباب التي توقعه في الموبقات، فما وقع إنسان في مخالفة شرعيّة إلا وكانت لتلك المخالفة مقدّمات؛ فمصاحبة الأشرار، والتفكير بالجنس الآخر، أو بارتكاب الذّنوب، والكلام غير الموزون، والانفعال غير المتّزن، وحِدَّةُ الغضب... وغير ذلك كلّها مقدمات لذنوب أكبر منها، ومن هنا حرّم الإسلام النظرة المحرّمة لأنّها مقدمة لموبقة أكبر منها...

ومن اللافت للنّظر أنّ الله تعالى نهى عن الاقتراب من الزّنا فضلاً عن الوقوع فيه، فلم يقل: «لا تزنوا»، بل قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾[1]، ولم يقل: «لا تفعلوا الفواحش»، بل قال: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾[2]؛ لأنّ الاقتراب من الشّيء قد يؤدّي إلى الوقوع فيه، يقول النّبي ﷺ: «**مَنْ يَرْتَع حَوْلَ الْحِمى يوشَك أَنْ يَقَعَ فيهِ**»[3]؛ والإسلام أراد أن يحمي الإنسان من ذلك، فحذَّره عن الاقتراب منه؛ لأنّ من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه؛ فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُما أُمورٌ مُشْتَبِهاتٌ، لا يَعْلَمُها كثيرٌ مِنَ النّاسِ، فَمَنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِعَرْضِهِ وَدينه، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الْحَرامِ، كَراعٍ يَرْعى حَوْلَ الْحِمى، يوشَكُ أَنْ يُواقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَإِنَّ حِمى الله تَعالى في أَرْضِهِ مَحارِمُهُ**»[4].

(١) الإسراء: ٣٢.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) الشّهيد الأول، ذكرى الشّيعة في أحكام الشّريعة: ٢٧١/١.

(٤) المتّقي الهندي، كنز العمال: ٤٢٨/٣-٤٢٩، ح/٧٢٩١.

إنّ الإنسان في كلّ لحظة معرّض لارتكاب الذّنوب ما دام يعيش في الوسط الاجتماعيّ الطّافح بالأذواق المختلفة، والأهواء المتضاربة، والمصالح المتباينة والأهداف المتعدّدة، وأكثر النّاس لا تحكمهم عقولهم، بل هم خاضعون لشهواتهم وأهوائهم.

إذن فالمجاهد لنفسه يجب أن يكون على يقظةٍ دائمةٍ، وفطنةٍ دقيقةٍ ليضرب حجاباً بينه وبين ما يوقعه في المخالفة؛ فلا بدّ أن يكون مراقباً لنفسه، ماسكاً بزمامها، منتبهاً إلى ما تقوده إليه في الفكر، والخيال، والتّصوّرات الوهميّة، وبذلك يستطيع إخضاعها لحكومة العقل والشّرع... ولا يتحقّق له ذلك إذا لم يكن عارفاً بحيل النّفس وأحابيلها؛ فإنّها في كثير من الأحيان تدخل صاحبها في دهاليز الخداع والتّبرير؛ ولتحاشي الوقوع في تلك الشّراك حثّ الإسلام على اكتساب المناعة القويّة لتعصمه عن الزّلات والانحراف، تلك المناعة تجعله في مأمن من هجوم الجراثيم المعنويّة، وهذه المناعة العاصمة هي التّقوى(١).

٦- السَّيطرةُ على الخيالِ: تتوارد على الإنسان أفكار قد تكون حقيقة واقعيّة صالحة ونافعة، وقد تكون أوهام وتصورات خياليّة تخرجه من واقعه الصّالح إلى عوالم لا حقيقة لها، وقد جعل الإمام الخمينيّ قدس سره أوّل شروط المجاهدة في هذا المقام هو حفظ طائر الخيال، وعدَّه أساس الغلبة على الشّيطان وجنوده؛ لأنَّ الإنسان عندما يفلت زمام الخيال من يده يسرح في أودية الوهم؛ ويصبح ألعوبةً بيد الشَّيْطان ينقله من عالم إلى عالم آخر.

---

(١) راجع بحث التّقوى في هذا الكتاب.

يقول قُدِّسَ سِرُّه: «وعلى الإنسان المجاهد الذي نهض لإصلاح نفسه، وأراد أن يصفّي باطنه، ويفرغه من جنود إبليس، عليه أن يمسك بزمام خياله، وأن لا يسمح له بأن يطير حيثما شاء»(١).

ومن وسائل السّيطرة على الخيال:

أوّلاً: أن يوجّه خيالاته نحو الأمور الشّريفة العالية، وقد يبدو في أول الأمر صعباً، إلا أنّه من خلال المران والممارسة تصبح ملكة في النّفس.

ثانياً: اليقظة والفطنة لتسويلات النّفس، ووضع ما يتوارد على الذّهن في ميزان الشّرع.

ثالثاً: في حالة توجّه الذّهن إلى أمور وضيعة يجب صرفه عنها إلى الأمور المباحة والراجحة عقلاً لتسلية النّفس.

رابعاً: يجب أن نعلم جيّداً أنّ الخيالات الفاسدة والتّصورات الباطلة من إلقاءات الشّيطان، والشّيطان لنا عدوٌّ فيجب أن نتّخذَهُ عدوّاً.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢).

خامساً: والأساس في النَّجاح في هذا المقام هو الاستعانة بالله تعالى واستمداد العون منه في الانتصار على هوى النّفس، وعلى الشّيطان، والتّوسّل به تعالى لدرء كيد الشّيطان، وأن يدعو المجاهد بما دعا به سيّد السّاجدين وزين العابدين عليّ بن الحُسَيْن عليه السلام: «**اللّهُمَّ إِنّا نَعوذُ بِكَ مِنْ نَزَغاتِ الشَّيْطانِ**

---

(١) الأربعون حديثاً: ٣٤.

(٢) فاطر: ٦.

الرَّجيمِ، وكَيْدِهِ، ومَكائِدِهِ، ومِنَ الثّقَةِ بِأَمانيِّهِ، ومَواعيدِهِ، وغُرورِهِ، ومَصائِدِهِ، وأَنْ يُطْمِعَ نَفْسَهُ في إِضْلالِنا عَنْ طاعَتِكَ، وامْتِهانِنا بِمَعْصِيَتِكَ، أَوْ أَنْ يَحْسُنَ عِنْدَنا ما حَسَّنَ لَنا، أَوْ أَنْ يَثْقُلَ عَلَيْنا ما كَرَّهَ إِلَيْنا... الخ»[1].

(١) الصّحيفة السّجاديّة الكاملة: ٧٣، دعاء: ١٧، دعاؤه على الشّيطان.

(الْبَحْثُ الثّالِثُ)

مُحاسَبَةُ النَّفْسِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

لقد أودع الله في الإنسان قوًى مختلفة منها: القوة (الملكوتيّة) التي يمثّلها العقل، ومنها القوى الشّهويّة، والشّيطانيّة، والغضبيّة، وتمثّلها الأهواء والميول النّفسيّة، وصدر الإنسان هو ميدان الصّراع بين الجبهتين، ولكلّ من الجبهتين عوامل، وقوى، وجنود، تقوى بقوّتها، وتضعف بضعفها، ولأجل تقوية وإسناد جانب التّقوى على جانب الفجور لا بدّ من تقويم النّفس وتهذيبها، وهذا التّقويم لا يتحقّق بدون النّقد الذّاتي، والمحاسبة الذّاتية للنّفس، من حيث المشاعر والأحاسيس، والدّوافع، والأعمال؛ ليقف الإنسان على ما وصل إليه من مراحل السّموّ الذّاتي؛ وليرتقي بعد ذلك إلى مرحلة أعلى في كدحه إلى الله تعالى، وليتأمل فيما قدّمه من رصيد لآخرته؛ وليعرف نقاط القوة والضعف في مسيرته... الخ؛ ومن هنا جاء الأمر الإلهي واضحاً صريحاً: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ﴾ لغدها الأخرويّ، نظراً دقيقاً وتأمّلاً عميقاً في الدّوافع والأعمال، بل المشاعر

---

(١) الحشر: ١٨.

والأحاسيس...

فبحثنا حول المحاسبة يقع في: ماهيّتها، وأهمّيتها، ومناهجها، وخطواتها.

ماهِيَّةُ الْمُحاسَبَة:

من المعروف لدى جميع العقلاء في جميع الملل والمذاهب أنّهم عندما يتاجرون يحدّدون شروط المعاملة بين البائع والمشتري، أو بين العامل وصاحب رأس المال، ثم يواصلون مراقبة مجرى البيع والشراء بدقّة؛ ليعرفوا مقدار ربحهم، أو خسارتهم، ولو لم يحاسب ويراقب الإنسان عمله وعمّاله لكان مُعرَّضاً لخسران رأس ماله، وهذا ما لا يقرّه العقلاء.

فالمحاسبة هنا هي: عمليّة رصد وحساب لمقدار المشترى والمباع، ومعرفة مقدار الرّبح والخسارة... هذا نفسه يمكن أن نعكسه على حياة الإنسان في جميع جوانبها الماديّة، والمعنويّة، والروحيّة، والبدنيّة، فكما يحاسب الشّريك شريكه، وربّ العمل عامله، والرئيس مرؤوسه؛ ليقف على مدى إنجازه للعمل المكلّف به، ويعرف مقدار ربحه، أو خسارته،كذلك ذات الإنسان بقواها المختلفة لا بدّ لها من المحاسبة والمراقبة بدقّة.

ولنقف على مفردات القضية؛ لنخضعها لعمليّة المحاسبة، فهنا لا بدّ من رأس مال يعمل فيه أولاً، وحركة تجاريّة في رأس المال ثانياً، وعمّال ينجزون الأعمال ثالثاً، ومحاسب يحصي الرّبح، أو الخسارة رابعاً؛ فالمال، والعمّال، والعمل، والمحاسب، والموسم الذي يعمل فيه، هذه هي مفردات المحاسبة.

فرأس المال في حياة الإنسان هو عمره الذي منحه اللهُ إيّاه في هذه الدّنيا والتّجارة التي يتاجر فيها هي الإيمان، والعمل الصّالح بتطبيق ما أمر الله به من

أعمال الخير: الواجب، والمستحب، والمباح؛ والانتهاء عمّا نهاه الله عنه من الحرام، والمكروه، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا كلّه بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١].

إذن **التّجارة مع الله** مادتها: الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس... ورأس المال هذا ليس كرؤوس الأموال الأخرى؛ فهو ينقص في كلّ لحظة تمر عليه سواء أعْمَلَهُ أمْ لَمْ يُعْمِلْهُ؛ ولذا ينبغي للعاقل أن يكون حريصاً عليه، وأن يتأمّل جيّداً في كلّ ما ينفقه منه، لماذا ينفق؟ وبماذا ينفق؟ ولمن ينفق؟ وأين ينفق؟ لئلا يبذر منه شيئاً ويذهب هدراً بلا طائل ذلك هو عمر الإنسان؛ ولهذا: «**مَنِ اسْتَوى يَوْماهُ فَهُوَ مَغْبونٌ، وَمَنْ كانَ آخِرُ يَوْمَيْهِ شَرَّهُما فَهُوَ مَلْعونٌ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ الزّيادَةَ في نَفْسِه كانَ إلى النُّقْصانِ أَقْرَب، وَمَنْ كانَ إلى النُّقْصانِ أَقْرَب فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَياةِ**»[٢].

إذن المحاسبة هي عبارة عن تفقّد الإنسان لأعماله وأحواله الباطنيّة والظاهريّة؛ ليبدأ (بتصحيح الجواب عن جميع أفعاله، وأحواله: من نظره، وقيامه، وقعوده، ونومه، وأكله، وشربه، حتى عن سكوته، لِمَ سكت؟ وعن سكونه، لِمَ سكن؟ وعن خواطره، وأفكاره، وصفاته النّفسيّة، وأخلاقه القلبيّة)[٣].

وأمّا عمّال هذه التّجارة فهي الحواس الخمسة، بل جميع الجوارح

---

(١) الصّف: ١٠-١١.

(٢) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٧٦٦، ح/١٠٣٠، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٣٧٢/٦، ح/٣٠٦٥.

(٣) الشّيخ النّراقي، جامع السّعادات: ١٠٠/٣.

والجوانح التي منحها الله إيّاه فهي الأدوات التي يستعملها في إنجاز مهمّاتها، وتنفيذ مآربها؛ ولذا حمّل اللهُ الإنسانَ المسؤولية عن هذه الجوارح، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

والظاهر من هذه الآية أنَّ هذه الجوارح نفسها مسؤولة عن أعمالها، وأعتقد - والله العالم - أنَّ التَّعبير مجازيٌّ، فما الإنسان إلا هذه الجوارح، فمسؤولية هذه الجوارح هي مسؤولية الإنسان، ولكن لكلّ جارحةٍ مسؤوليةٌ، يقول العلامة الطّباطبائي قُدِّسَ سِرُّه: «فالمسؤول هو كلّ من: السّمع، والبصر، والفؤاد يسأل عنه نفسه فيشهد للإنسان أو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2]»[3].

وعن الحسين بن هارون، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، قال: «**يسْأَلُ السَّمْعَ عَمّا يَسْمَعُ، وَالْبصَرَ عَمّا يَطْرِفُ، وَالْفُؤادَ عَمّا يعْقدُ عَلَيْهِ**»[4].

وفي مجمع البيان: «معناه أنَّ السَّمع يسأل عما سمع، والبصر عمّا رأى، والقلب عما عزم عليه ذكر سبحانه السّمع، والبصر، والفؤاد، والمراد أنَّ أصحابها هم المسؤولون، ولذلك قال: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾»[5].

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) يس: ٦٥.

(٣) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٩٤/١٣.

(٤) تفسير العيّاشي: ٣١٥/٢.

(٥) الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان: ٦٤١/٦.

إذن لمّا كانت على كلّ جارحةٍ مسؤوليةٌ فلا بدّ من تفقّد هذه الجوارح، هل سخرَّها الإنسان لما خلقها الله تعالى له، أو سخّرها لأهوائه ونزواته؟ فـ(إنّ الله سيسأل هذه الوسائل الدّاخليّة والخارجيّة عن طبيعة النّتائج التي اختزنها الإنسان في وعيه، مما يتّصل بدورها في عالم المعرفة لديه، فهل هو صادقٌ في ما يملكه من مصادر المعرفة، أو غير صادقٍ في ذلك؟ وستجيب بالحقيقة الموضوعيّة في حياته، وتتحدّد - من خلال ذلك كلّه - طبيعة التّقييم لقناعاته، ونوعية المسؤولية الّتي يواجهها على هذا الأساس، ولن يستطيع أن ينكر شيئاً من ذلك؛ لأنّ الشّهادة لا تأتيه من الخارج، بل من الداخل الّذي يصرخ بالحقيقة من أقرب طريق)[1].

إذن سلامة الإنسان من الزّيغ والانحراف، وصعوده إلى معارج الكمال لا تتمّ إلا بالمحاسبة والمراقبة الدّقيقة لما يصدر منه، ومقتضى هذا أن توضع كلّ تلك الجوارح تحت سلطان الحاكم الأعلى في كيان الإنسان وهو العقل؛ ليوجّهها ويحرّكها في مسار العمل، ويحاسبها بعد ذلك، وحينئذٍ يكون القائد، والحاكم، والمحاسب في حياة الإنسان هو العقل الذي جعل الله الحساب عليه؛ لأنّه هو المسؤول الأعلى، يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّما يُداقُّ[2] اللهُ الْعِبادَ في الْحِسابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى قَدْرِ ما آتاهُمْ مِنَ الْعُقولِ في الدُّنْيا**»[3].

وعنه عليه السلام: «**لَمّا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ اسْتَنْطَقَهُ، ثُمَّ قالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، ثُمَّ**

(١) السّيّد محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن: ١٢٠/١٤.

(٢) المداقّة: المناقشة في الحساب، قال الفيض الكاشاني: «"يداق الله" من الدّقّة في الحساب، أي يناقشهم فيه لما كانت العقول متفاوتة كمالاً ونقصاً، والتّكاليف إنّما تقع على مراتب العقول؛ فالأقوى عقلاً أشدّ تكليفاً؛ فيناقش في الحساب يوم القيامة مع أهل الفطانة بما لا يناقش به ضعفاء العقول»، الوافي: ٨٢/١.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٧/١، ح/٧.

قَالَ لَهُ: أَدبِرْ، فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قالَ: وَعِزَّتي وَجَلالي ما خَلَقْتُ خَلْقاً هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، وَلا أَكْمَلْتُكَ إِلا في مَنْ أُحِبُّ، أَما إِنّي إِيّاكَ آمُرُ، وَإِيّاكَ أَنْهى، وَإِيّاكَ أُثيبُ وَإِيّاكَ أُعاقِبُ»[1].

فالعقل هو الحاكم؛ ولذا ينبغي أن يحكم سيطرته على بقية أعضاء المملكة النّفسيّة، فإذا ضعف سلطانه تعرّضت تلك المملكة إلى الاضطراب، والفوضى، والتّقلّب، والقلق... والعكس صحيح، وهذا الإحكام، وتلك السّيطرة لا تتمّ إلا بإعمال المحاسبة، والمراقبة بدقّة، وعلى كلّ صغيرة وكبيرة بلا تساهل، أو تهاون، ومن هنا يتبيّن لنا أهميّة المحاسبة في تقويم حياة الإنسان واستقامتها على الصراط المستقيم.

بعبارة أخرى: إذا أحسن العقل محاسبة النّفس على سائر تصرّفاتها فإنّها سوف تستقيم، وبالعكس لو قصّر عن ذلك، فسوف تنطلق وتهيم في كلّ وادٍ يحلو لها، فليس لها من قائدٍ أو موجّهٍ غيره.

فقد ورد عن النّبيّ ﷺ: **«الْكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعاجِزُ مَن اتَّبَعَ نَفْسَهُ، وَهَواها، وَتَمَنّى عَلى الله عَزَّ وَجَلَّ الأَماني»**[2]، ومعنى إدانة النّفس محاسبتها قبل العمل، وفيه، وبعده، وتوبيخها على كلّ تقصير.

أمّا قبل العمل فيسأل نفسه لماذا يعمل؟ ألنفسِهِ وأهوائها؟ أم لله تعالى؟

وأمّا في العمل فيسألها هل هي الآن تؤدي العمل بجدّ، ونشاطٍ، وإخلاصٍ

(١) الكافي: ١/٢٣-٢٤، ح/١.

(٢) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٧/٧٩.

كما أمر الله تعالى؟ أم ترائي فيه؟

وأمّا بعد العمل فيسألها هل أتقنت العمل وأدّته بإخلاص كما أراد الله عزَّ وجلَّ؟

ورغم ذلك يبقى خائفاً وجلاً؛ لأنّ المؤمن التّقيّ «**يَعْمَلُ الأَعْمالَ الصّالِحَةَ وَهُوَ عَلى وَجَلٍ**»(١) خوفاً من عدم القبول والرضا من الله .

أَهَمِّيَّةُ الْمُحاسَبَةِ:

تتجلّى لنا أهميّة المحاسبة، ودورها في تقويم حياة الإنسان، واستقامة مسيرته من خلال الرّوايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام؛ فعن أبي الحسن الماضي عليه السلام: «**لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ في كُلّ يَوْمٍ؛ فَإِنْ عَملَ حسناً اسْتَزادَ اللهَ، وَإِنْ عَملَ سَيّئاً اسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهُ، وَتابَ إِلَيْهِ**»(٢).

وفي وصية النّبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر، أنّه قال: «**يا أَبا ذَر، حاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبَ، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ لِحِسابِكَ غَداً، وَزِنْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ توزَنْ**»(٣).

وعن الحسن بن علي عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: لا يَكونُ الْعَبْدُ مُؤمِناً حَتّى يُحاسِبَ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِنْ مُحاسَبَةِ الشَّريكِ شَريكَهُ، وَالسَّيِّدِ عَبْدَهُ**»(٤).

وعن أبي حمزة الثّمالي قال: «كان عليّ بن الحُسَين عليهما السلام يقول: **ابْنَ آدَمَ،**

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٣، خطبة: ١٩٣.

(٢) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٣٧٧/١١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٧٩/١١.

(٤) المصدر نفسه: ٣٨٠/١١.

إِنَّكَ لا تَزالُ بِخَيْرٍ ما كانَ لَكَ مِنْ نَفْسِكَ واعِظٌ، وَما كانَتْ الْمُحاسَبَةُ مِنْ هَمِّكَ [هِمَّتِكَ]»(١).

ولو تأمّلنا قليلاً في قوله عليه السلام: «**لَيْسَ مِنّا**» لعرفنا خطورة هذا الأمر الّذي ينقطع بانقطاعه الارتباط بأولياء الله تعالى، ويُخرج الإنسان من ولاية الله إلى ولاية الشّيطان، وأيّ أمر أخطر من هذا؟

وكذلك قوله عليه السلام: «**لا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤمِناً...**»، ومعنى هذا: إنّ ترك المحاسبة يؤدّي إلى ضعف الإيمان، واهتزازه، بل قد يؤدّي إلى نفيه، وهذا أخطر من الأول!!

هذا إضافة إلى أنّ حياة الإنسان الإيمانيّة لا تستقيم، ولا تتكامل بدون المحاسبة... وأمرٌ يتوقّف عليه تكامل الإنسان لا ينبغي أن تُجهل أهمّيته.

مِنْهاجُ الْمُحاسَبَةِ:

قسّم علماء الأخلاق عمليّة المحاسبة على عدّة خطوات مترابطة، ومتواصلة لا ينفكّ بعضها عن بعضها الآخر، ولا تتمّ بصورة جزئيّة، بل لا بدّ من تواصلها وترابطها بصورة كلّية، وبأعمال مستمرّة...

فقبل أن يبدأ الإنسانُ بالخطوة الأولى، لا بدّ أن تسبقها عمليّة نقد ذاتي لنفسه يتفحّص فيها جوانب الضعف، وجوانب القوّة في شخصيّته، فيكشف لنفسه بنفسه عيوبها بدقّة متناهية، واستقصاء شديد، فهو أعرف بنفسه من غيره، ﴿ **بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ** ﴾(٢)؛ فيدرس دوافعه الذاتيّة، ويستخرج الجواب منها: هل

(١) وسائل الشّيعة: ٣٧٨/١١.

(٢) القيامة: ١٤.

تطلب نيل رضا الله تعالى؟ أو تهدف تحقيق أغراض نفسيّة بدوافع الهوى والنّزوات؟

وبعبارة أوضح أن يعرف الإنسان حقيقة دوافعه من وراء كلّ عمل ينوي القيام به... وإذا لم يستطع تحقيق ذلك؛ لأنَّه شديد الحب لنفسه -والحبُّ يعمي عن رؤية الواقع- فليستعن بغيره من المخلصين له، والصّادقين من العارفين بأحابيل النّفوس، ويسترشد بهم لمعرفة عيوب نفسه، بنقدهم له من خلال أعماله الظّاهرة، وهذا المعنى قد ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام: «**أَحَبُّ إِخْواني إِلَيَّ مَنْ أَهْدى إِلَيَّ عُيوبي**»[1].

وإن لم يحصل النّاقد النّاصح الأمين، فإنَّ المؤمن يستطيع أن ينتفع من نقد أعدائه، والمخاصمين له في كشف عيوبه، يقول جالينوس: «إنَّ الأخيار من الناس قد ينتفعون بأعدائهم الأشرار»[2]؛ فمن الحكمة أن يتفكر الإنسان فيما يقال فيه، وما ينسب إليه من قبل خصومه ويتلقاها بتفهم ويدرسها بوعي، هل هي فيه حقيقة أم هي افتراء عليه؟ فهو أعرف بنفسه، يقول الإمام الباقر عليه السلام في وصيّته لجابر الجعفي: «**وَفَكِّرْ فيما قيلَ فيكَ، فَإِنْ عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ ما قيلَ فيكَ، فَسُقوطُكَ مِنْ عَيْنِ الله جلَّ وَعَزَّ عِنْدَ غَضَبِكَ مِنَ الْحَقِّ أَعْظَمُ عَلَيْكَ مُصيبَةً مِمّا خِفْتَ مِنْ سُقوطِكَ مِنْ أَعْيُنِ النّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلى خِلافِ ما قيلَ فيكَ، فَثَوابٌ اكْتَسَبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ**»[3].

(١) الشّيخ المفيد، الاختصاص: ٢٤٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٢٦٤.

(٣) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول: ٢٠٦.

ويقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّه في وصيّته لولده أحمد قُدِّسَ سِرُّه: «ولعلَّ النّاقدين ومروّجي الشائعات يكونون ذا نفع في علاج معايبنا النّفسية، ولا غرابة، فالأمر شبيه بالعمليّة الجراحية المؤلمة التي تؤدّي إلى سلامة المريض»(١).

خَطَواتُ الْمُحاسَبَةِ:

قَسَّمَ علماءُ الأخلاقِ المحاسبةَ على عدّة خطوات، وهي:

١- **المشارطة:** وهي عبارة عن إلزامٍ وعهدٍ يفرضه الإنسان على نفسه بعد أن يعزم ويصمّم على إصلاحها، وتطهيرها من ذمائم الأخلاق وقاذورات الأدران، وإخضاعها لحكم العقل والشّرع القاضي بالتّمسّك بأمر الله تعالى... وإنَّ الإنسان مسؤول أمام الله تعالى، وإنَّه محاسبٌ على كلّ ما يصدر منه، وإنَّ عمره منحة إلهيّةٌ، وأمانة ربانيّةٌ عنده، وعليه أن يقضيه بالالتزام بما أمر الله تعالى.

ومقتضى هذا: أن يتدرّج السّالك إلى الله في فرض الشّروط على نفسه رويداً رويداً؛ كي يمرّنها على تحمّل مشاقّ الكدح الى الله، وأن يوغل في دين الله برفق؛ لأنّه متين، وأن يتدبّر في أيّ عمل قبل أن يقدم عليه، ويتأمل في دوافعه منه، وبعبارة أخرى: أن يراقب همّته، ودوافعه، وحركته، أهي لله تعالى؟ أم لأهوائه النّفسيّة؟

قال بعض الحكماء: «إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشّهوة حتى تنظر العاقبة، فإنَّ مكث النّدامة في القلب أكثر من مكث خفة الشّهوة»(٢).

---

(١) الإمام الخميني، موعد اللّقاء: ١١٥.

(٢) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ٣٩٦/٤.

وقال لقمان: «**إنّ الْمُؤْمِنَ إذا أَبْصَرَ الْعاقِبَةَ أَمِنَ النَّدامَةَ**»[١].

وروي عن محمد بن علي عليه السلام: «**إنَّ الْمُؤْمِنَ وَقّافٌ مُتَأَنٍ عِنْدَ هَمِّهِ لَيْسَ كَحاطِبِ لَيْلٍ**»[٢].

٢- المراقبة: بعد أن فرض الإنسانُ على نفسه شروطاً، فلا بدّ أن يعلم أنَّ النَّفسَ أمّارة بالسّوء، ويمكن أن تسلك به شتّى المسالك؛ لتنفيذ مآربها، وإشباع رغباتها، ولا سيّما إذا سلكت مسلك التّبرير، والتّعليل، والتّفتيش عن سبل الانحراف بحجج شرعيّة تبرّر فيها انحرافها؛ ولذلك لا بدّ أن يضع الإنسان دوافعه دائماً تحت مجهر المراقبة، بشدّة، ودقّة؛ لئلا يفلت الزّمام من يديه، وترمي به في الهاوية، وهذا يحتاج إلى فطنة حادّة، ويقظة دقيقة، ومعرفة سليمة بحيل النّفس وأحابيلها، بحيث يلتفت إلى نفسه في كلّ خواطرها، وأفكارها، ودوافعها، وتسويلاتها، وما يروم القيام به من أعمال، فيضع ذلك العمل في ميزان الشّرع الّذي أخذ على نفسه الالتزام به، يقول أبو حامد الغزاليّ:

«المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب»[٣].

فالمراقبة إذن: عمليّة رصد لحركات النّفس الدّاخليّة والخارجيّة من قبل العقل، ومسك زمامها؛ لئلا تنحدر في مهاوي الأهواء والغرائز، وهذه الحالة تتركّز عند المراقب بالمِران الدّائم، والتّذكّر الهادف، واستحضار مراقبة الله تعالى

---

(١) إحياء علوم الدّين: ٣٩٦/٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٠/٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣٩٨/٤، والمحجّة البيضاء للفيض الكاشانيّ: ١٥٦/٨.

لكلّ عمل من أعمال الإنسان، بل لكلّ نفس من أنفاسه.

إنّ تحسيس النّفس بالمراقبة من قبل الله تعالى، والرّصد من الملائكة، وتسجيل الأعمال في الجوارح بصورة مستمرّة تمنح الإنسان بمرور الزّمان اليقظة، والفطنة، والحذر حتى تصبح طبعاً، وعادةً، وسلوكاً، ثم تصير ملكةً راسخةً في النّفس، وحينئذٍ يصبح الإنسان مراقباً لجميع (حركاته، وسكناته، وخطراته، ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل؛ (أمّا قبل العمل) فلينظر أنَّ ما ظهر له وتحرّك بفعله خاطره، أهو لله خاصّة؟ أو هو في هوى النّفس ومتابعة الشّيطان؟)[١].

وأخطرُ شيءٍ في ارتباك عمليّة المراقبة هي الغفلة التي تعدّ بحقّ المخدّر للشّعور والإحساس الإنساني، بل تخرج الإنسان عن إنسانيته؛ لأنَّها تعطل حواسّه وإدراكاته، وحينئذٍ تهبط به إلى درجة أحطّ من الأنعام، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[٢].

وهكذا إذا استحكمت الغفلة في الإنسان أنسته خالقه، ومصوّره، ورازقه، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾[٣].

و(نسيان النّفس) تعبيرٌ رائعٌ من روائع الفكر الإسلامي الذي لم يُطرح لا من قبل، ولا من بعد، وهي حالة تعبّر عن الغفلة المطبقة عن نعم الله تعالى،

(١) إحياء علوم الدّين: ٤/٤٠٠، والمحجّة البيضاء: ٨/١٥٨.
(٢) الأعراف: ١٧٩.
(٣) الحشر: ١٩.

وآلائه، وجلاله، وجماله، واستغراق مطلق في هوى النّفس؛ وهذه هي أخطر الحالات على الإنسان.

وملكة المراقبة تحصل للإنسان عندما يكون دائم الذّكر لله تعالى، قولاً وفعلاً، حريصاً على عمره، متدبّراً في كلّ أمر يَهمُّ القيام به، ممسكاً زمام النّفس بإحكام.

حُكِيَ: أنَّ زُلَيخا لما خلت بيوسف، قامت وغطّت وجه صنمها، فقال يوسف عليه السلام: «**ما لَكِ؟ أتَسْتَحْيينَ مِنْ مُراقَبَةِ جَمادٍ، وَلا أَسْتَحْيي مِنْ مُراقَبَةِ الْمَلِكِ الْجَبّارِ؟!**»[1].

وفي الحديث القدسيّ: «**إنَّما يَسْكُنُ جَنّاتِ عَدْنٍ الّذين إذا هَمّوا بِالْمَعاصي ذَكَروا عَظَمَتي فَراقَبوني**»[2].

وهذا سبيل آخر لتحقيق المراقبة، وهو أن يستحضر الإنسان عظمة الله تعالى، ويستشعر رقابته؛ فإنَّ ذلك يكسر جماح النفس، ويلطّف هواها، ويسلس قيادها .

وقد ذكر العلامة الطّهراني في رسالة لبّ اللّباب درجات أربع، وهي:

أولاً: أن يتجنّب المحرّمات، و يؤدّي كلّ الواجبات، بدون تسامح.

ثانياً: أن يسعى بكلّ جهده لجعل رضا الله تعالى غاية في كلّ عمل.

ثالثاً: أن يرى الله تعالى دائم النّظر إليه.

رابعاً: أن يرى بنفسه حضور الله تعالى ونظره إليه[3].

---

(١) جامع السّعادات: ٩٦/٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ينظر: السيد محمد حسين الطّهراني، رسالة لب اللّباب في سيرة وسلوك أولي الألباب: ١٥١-١٥٢.

٣- المحاسبة: وفي هذه الخطوة يأتي دورُ جردِ الأعمال اليوميّة، ووضعها في ميزان الشّرع المقدس؛ لينظر مقدار ما وافق الشّرع منها، ومدى إخلاصه فيها؛ ليحمد الله تعالى عليه، ويطلب من الله تعالى التّوفيق والتّسديد، ويعرف مقدار ما خالف فيه فيستغفر ويتوب.

يقول أحد علماء النّفس: «اقطع علاقتك بجميع النّاس لبعض الوقت كلّ يوم؛ لكي تراجع حساباتك؛ ولكي تحاسب نفسك عن المواقف التي فلت بها الزّمام منك؛ ولكي تقف على أسباب ذلك ومصادره»(١).

وأفضل أسلوب لمحاسبة النّفس ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سأله عن كيفية محاسبة الرّجل نفسه، قال عليه السلام: **«إذا أَصْبَحَ ثُمَّ أَمْسى، رَجَعَ إِلى نَفْسِهِ، وَقالَ: يا نَفْسي، إِنَّ هذا يَوْمٌ مَضى عَلَيْكِ لا يَعودُ إِلَيْكِ أَبَداً، وَاللهُ يَسْأَلُكِ عَنْهُ بما أَفْنَيْتِهِ، فَما الَّذي عَمِلْتِ فيهِ؟ أَذَكَرْتِ اللهَ أَمْ حَمَدْتِهِ؟ أَقَضَيْتِ حَوائِجَ مُؤْمِنٍ فيهِ؟ أَنَفَّسْتِ عَنْهُ كُرْبَةً؟ أَحَفِظْتِهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ في أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ؟ أَحَفِظْتِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ في مُخَلَّفيهِ؟ أَكَفَفْتِ عَنْ غيبَةِ أَخٍ مُؤْمِنٍ؟ [أَ]أَعَنْتِ مُسْلِماً؟ ما الَّذي صَنَعْتِ فيهِ؟ فَيَذْكُر ما كانَ مِنْهُ، فَإِنْ ذَكَرَ أَنَّهُ جَرى مِنْهُ خَيْرٌ حَمِدَ اللهَ، وَكَبَّرَهُ على تَوْفيقِهِ، وَإِنْ ذَكَرَ مَعْصِيَةً أَوْ تَقْصيراً اسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَمَ على تَرْكِ مُعاوَدَتِهِ»**(٢).

٤- المعاقبة: عندما يحاسب الإنسان نفسه، ويقف على ما ارتكب من مخالفات شرعيّة، فأوّل ما يجب أن يبادر إليه هو التّوبة، فيستغفر الله تعالى ثم

---

(١) يوسف ميخائيل أسعد، الشّخصية النّاجحة: ٦٠.

(٢) وسائل الشّيعة: ٣٧٩/١١-٣٨٠.

يؤنّب نفسه، ويوبّخها، ويردعها، ويذيقها مرارة الطّاعة كما ذاقت حلاوة المعصية؛ لئلا تقع مرة أخرى في تلك الموبقات؛ فإن أهملها وترك معاقبتها صعب عليه ضبطها؛ فالمعاقبة هي تحميل النّفس أثقالاً أخرى من جراء تقصيرها وإفراطها...

عن ليث بن أبي سليم قال: «سمعت رجلاً من الأنصار يقول: بينما رسول الله ﷺ مستظلٌّ بظلّ شجرة في يوم شديد الحرّ، إذ جاء رجل، فنزع ثيابه، ثمّ جعل يتمرّغ في الرّمضاء، يكوي ظهره مرّة، وبطنه مرّة، وجبهته مرّة، ويقول: يا نفس، ذوقي، فما عند الله عزَّ وجلَّ أعظم ممّا صنعت بك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى ما يصنع.

ثمّ إنّ الرجل لبس ثيابه، ثمّ أقبل، فأومأ إليه النبي ﷺ بيده، ودعاه، فقال له: **يا عَبْدَ الله، لَقَدْ رَأَيْتُكَ صَنَعْتَ شَيْئاً ما رَأَيْتُ أَحَداً مِنَ النّاسِ صَنَعَهُ، فَما حَمَلَكَ عَلى ما صَنَعْتَ؟**

فقال الرّجل: حملني على ذلك مخافة الله عزَّ وجلَّ، وقلت لنفسي: يا نفس، ذوقي، فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك.

فقال النبي ﷺ: **لَقَدْ خِفْتَ رَبَّكَ حَقَّ مَخافَتِهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيُباهي بِكَ أَهْلَ السَّماء**، ثمّ قال لأصحابه: **يا مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَ، ادْنُوا مِنْ صاحِبِكُمْ حَتّى يَدْعُوَ لَكُمْ.**

فدنَوا منه، فدعا لهم، وقال: اللّهُمّ اجمع أمرنا على الهدى، واجعل التّقوى زادنا، والجنّة مآبنا»[1].

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٤٢٠-٤٢١، ح/٥٥٩، وترتيب الأمالي: ٤٣٣/٦-٤٣٤، ح/٣١٧١.

من عجائب الإنسان أن يعاقب ولده، أو زوجته، أو من خالفه، ومن قصّر في حقه، ويتسامح مع نفسه، ويتركها بلا عقاب مؤدّب مع أنّها أعزّ النّفوس عليه، وهذا هو ما أهلك كثيرين، وعرَّضهم للعواقب الوخيمة، بل كان سبباً لإهلاك كثيرٍ من الأمم.

٥- **المجاهدة:** وهي عمليّة ترويض النّفس وتطويعها على ما لا تحبّ وترغب، وهذا يتمّ بمخالفتها في بعض مشتهياتها من المباحات، وتحميلها أثقالاً من الأعمال والأوراد في ذكر الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[1].

والمجاهدة تأتي بعد المعاقبة إذا لم ترتدع النفسُ فيُحَمّلها ما لا ترغب، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ يَحْمِلْكَ غَيْرُكَ**»[2].

وقال عليه السلام لرجل: «**إِنَّكَ قَدْ جُعِلْتَ طَبِيبَ نَفْسِكَ، وَبُيِّنَ لَكَ الدّاء، وَعَرَفْتَ آيَةَ الصِّحَّةِ، وَدَلَلْتَ عَلى الدَّواءِ، فَانْظُرْ كَيْفَ قِيامُكَ عَلى نَفْسِكِ**»[3].

وقال عليه السلام: «**اجْعَلْ قَلْبَكَ قَرِيناً بَرّاً، وَوَلَداً واصِلاً، واجْعَلْ عِلْمَكَ والِداً تَتَّبِعُهُ، واجْعَلْ نَفْسَكَ عَدُوّاً تُجاهِدُهُ، واجْعَلْ مالَكَ عارِيَةً تَرُدُّها**»[4].

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) وسائل الشّيعة: ١٢٢/١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٢/١١-١٢٣.

وقال عليه السلام: «**مَنْ مَلكَ نَفْسَهُ، إذا رَغِبَ، وَإذا رَهبَ، وَإذا اشْتَهى، وَإذا غَضبَ، وَإذا رَضى، حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ على النّارِ**»[1].

كما عبَّر النّبي صلى الله عليه وآله عن جهاد النّفس بالجهاد الأكبر، وهذا أعظم بيان لحقيقة هذا الجهاد؛ إنّ الجهاد الأصغر الذي يتّسم بالمقارعة بالسّيوف، ولعلعة النّيران، لا يتمّ ولا يقبل بدون الجهاد الأكبر، وهو أفضل الجهاد، يقول سيّد المجاهدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إنَّ أَفْضَلَ الْجِهادِ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ الّتي بَيْنَ جَنْبَيْهِ**»[2].

وخلاصة الكلام: المجاهدة النّفسية هي عمليّة مقاومة لأهواء النّفس وشهواتها، وبذل الجهد الجهيد؛ لتحمّل تلك الصّراعات بين قوّتي التّقوى والفجور الكامنتين في الكيان الإنساني.

٦- **التّوبيخ**: في خلال عمليّة المجاهدة تفلت من زمام النّفس فلتات توقع صاحبها في بعض المخالفات، وعلاج ذلك أن يختلي الإنسان بنفسه، ويوجّه لها العتاب، واللّوم الشّديد، بل التّأنيب والتّوبيخ على ما وقعت فيه من مخالفات شرعيّة، يقول الإمام الخميني قدس سره: «إنّ على الإنسان العاقل أن يفكّر بنفسه، وأن يترحّم على حاله ونفسه المسكينة، ويخاطبها: أيتها النّفس الشّقية الّتي قضيت سني عمرك الطّويلة في الشهوات، ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والنّدامة، ابحثي عن الرّحمة، واستحي من مالك الملوك، وسيري قليلاً في طريق الهدف الأساسي المؤدّي إلى حياة الخلد والسّعادة السّرمدية، ولا تبيعي تلك السّعادة

(١) وسائل الشّيعة: ١٢٣/١١.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٤/١١.

بشهوات أيام قليلة فانية، التي لا تتحصّل حتّى مع الصعوبات المضنية الشّاقّة، فكّري قليلاً في أحوال أهل الدنيا، والسّابقين، وتأملي متاعبهم وآلامهم، كم هي أكبر وأكثر بالنسبة إلى هنائهم، في نفس الوقت الذي لا يوجد فيه هناء وراحة لأيّ شخص»[1].

فالمعاتبة العمليّة تذكير الإنسان لنفسه بنفسه، ووعظٌ منه لها.

وأعظم الوعظ ما وعظ الإنسان به نفسه؛ لأنّ من لا يعظ نفسه لا يمكن أن ينتفع بوعظ غيره، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ واعِظٌ مِنْ قَلْبِهِ، وَزاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ قَرينٌ مُرْشِدٌ، اسْتَمْكَنَ عَدُوَّهُ مِنْ عُنُقِهِ**»[2].

هنا في هذا الحديث نرى أنّ الإمام عليه السلام قدَّم وعْظَ القلب وزجْرَه - ومعناه نقد الإنسان لنفسه بنفسه - على إرشاد القرين ووعظه؛ لأنَّ الإنسان إذا لم يكن قد هَيَّأ نفسه، وفرّغ قلبه؛ لتلقي مواعظ الآخرين، لا يمكن أن ينتفع بها؛ ومعلوم أنَّ واعظ نفسه أحقُّ بالإجلال والاحترام من واعظ غيره، ومن الحقائق النّفسية أنَّ الواعظ غير المتّعظ تزلُّ موعظتُه عن القلوب؛ ففي رواية أنّ الله تعالى أوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام: «**يا ابْنَ مَرْيَمَ، عِظْ نَفْسَكَ؛ فَإِنْ اتَّعَظْتَ فَعِظْ النَّاسَ، [وَ]إلا فَاسْتَحي مِنّي**»[3].

هذه هي الخطوات التي ذكرها علماء الأخلاق، ولا شكَّ أنَّها نافعة مُجْدِية لمن اتّبعها بفهمٍ، ووعي، وصدقٍ، وفوق ذلك كلّه هو الاستعانة بالله، فمن لم يُعِنْه اللهُ على نفسه لا يجديه شيءٌ.

(١) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً: ٢٤.

(٢) وسائل الشّيعة: ١٢٣/١١.

(٣) إحياء علوم الدّين: ٤١٦/٤.

الْبابُ الثّاني

مَعالي الأَخْلاقِ

(الْبَحْثُ الأَوَّلُ)

التَّقْوى في الْقُرْآن [1]

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام : «**التَّقْوى رَئيسُ الأَخْلاقِ**»، وقال عليه السلام: «**إِنَّ أَزْيَنَ الأَخْلاقِ الْوَرَعُ وَالْعَفافُ**» تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٩-٢٧١، ح/٥٩٢١-٥٨٥٣ .

حَقيقَةُ التَّقْوى:

سُئِلَ الإمامُ الصّادقُ عليه السلام عن تفسير التّقوى، فقال: «**أَنْ لا يَفْقِدَكَ اللهُ حَيْثُ أَمَرَكَ، وَلا يَراكَ حَيْثُ نَهاكَ**»[1].

من هذا الحديث نفهم أنَّ التَّقوى امتناعٌ شديدٌ عن نواهي الله، واندفاعٌ بوعي إلى حيث أمر الله، والتزامٌ جديٌّ بالواجبات الشّرعيّة بنحو يكون باعث الالتزام هو الامتثال لأمر الله، والسّعي لنيل رضاه، والشّعور والإحساس بهيمنته ورقابته تعالى.

إنَّ الإنسان في كدحه إلى الله يحتاج إلى قوّتين: قوة تدفعه لمواصلة السّير إلى نهاية الشّوط وهي الإيمان، وقوة تحميه من السّقوط والانحراف عن جادّة الصّواب وهي التّقوى.

فلا يكفي الإنسان أن يكون قويّاً قادراً على السّير ما دام في الطريق عقبات كبيرة، وأشواك مدمية؛ لذلك لا بدّ له من وجود تينك القوّتين، بحيث لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى في بناء شخصيّته، ومواصلة كدحه؛ الأولى تُقَوّيه وتدفعه،

---

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٥/٧٠.

والثّانية تحميه وتمنعه من السّقوط، وما دامت العقبات الكبرى داخليّة في ذات الإنسان، وهي التي عبّر عنها القرآن بالفجور تارةً، وبالهوى تارةً ثانيةً، وبالشّهوات ثالثةً... إذن لا بدّ أن تكون الحماية، والوقاية داخليّة أيضاً؛ لتحميه من نوازع الهوى، وطغيان الشّهوات... وتحصيل هذه الملكة يتوقّف على:

١- المعرفة بالله تعالى: وهو ما يُعبّر عنه بـ(علم المعرفة)، وهو (العلم بالله وصفاته وأسمائه. وما عداهما من العلوم إمّا آلات لهذه العلوم، أو يُراد بها عمل من الأعمال في الجملة، كما لا يخفى على من تَتَبَّعَها)[1].

٢- معرفة تفصيليّة أو مجملة على الأقلّ على ملاك المصالح والمفاسد، والعوامل المؤثرة الدّافعة إليها، وهذا ما يعبّر عنه بـ(علم المعاملة)، وهو (معرفة الحلال والحرام ونظائرهما من الأحكام، ومعرفة أخلاق النّفس المذمومة والمحمودة، وكيفيّة علاجها والفرار منها)[2].

٣- من أجل ضبط النّفس وإحكام أزمّتها لا بدّ من العمل التّدريجي لتقوية الإرادة، وامتلاك عزيمةٍ قويّة هادفة، فإنَّ التدرج والمداراة للنّفس ضرورة تربويّة؛ لأنَّ النفس تملّ كما تملّ الأبدان، فلا ينبغي تحميلها فوق طاقاتها دفعة واحدة، وقد أكّدت هذه الحقيقة أحاديث أهل البيت عليهم السلام؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: يا عَلِيُّ، إنَّ هذا الدّينَ مَتينٌ، فَأَوْغِلْ فيهِ بِرِفْقٍ، ولا تُبَغِّضْ إلى نَفْسِكَ عِبادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ**[3] - **يعني الْمُفْرِطَ** -

(١) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٥٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) البتّ: القطع المستأصل، والمنبتّ: الذي أتعب دابّته حتى عطب ظهره، وبقي منقطعاً به، لسان العرب: ٢/٦-٧، (بتت).

لا ظَهْراً أَبْقى، وَلا أَرْضاً قَطَعَ، فَاعْمَلْ عَمَلَ مَـنْ يَرْجـو أَنْ يَمـوتَ هَرِمـاً، وَاحْذَرْ حَذَرَ مَنْ يَتَخَوَّفُ أَنْ يَموتَ غَداً»[(١)].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: إنَّ هذا الدّينَ مَتـينٌ فَأَوْغِلوا فيهِ بِرِفْقٍ، وَلا تُكَرِّهوا عِبادَةَ الله إِلى عِبادِ الله، فَتَكونـوا كالرّاكِـبِ الْمُنْبَتِّ الّذي لا سَفَراً قَطَعَ، وَلا ظَهْراً أَبْقى**»[(٢)].

إذن التَّقوى حالة نفسيّة تترسّخ، وتنمو بالتّغذية الفكريّـة والرّوحيّـة بشـكل متدرّج فهي على حدّ تعبير العلامة الطباطبائي قدس سره: «ليس مقاماً خاصاً دينيّـاً، بـل هو حالة روحيّة تجامع جميع المقامات المعنويّة، أي إنّ لكلّ مقامٍ معنوي تقـوًى خاصاً يختصّ به»[(٣)]، وعلى حدّ تعبير الشّـهيد مطهّري قدس سره: «قـوّة روحيّـة تتولّـد للإنسان من التّمرين العمليّ الّذي يحصل من الحذر المعقول من الذّنوب»[(٤)].

التَّقْوى مُقاوَمَةٌ إِيْجابِيَّةٌ :

ولا بدّ أن نشير إلى أنَّ هناك من أساء فهـم التّقـوى، وفهمهـا فهمـاً سـلبيّاً، فراح يعتزل الميدان الاجتماعيّ؛ لأجل تحقيق التّقوى فـي نفسـه بالعزلـة، وتـوهّم أنَّ الانهزام عن المجتمع يكسبه ملكة التّقوى.

والحقيقة أنَّ هذا فهمٌ منحرفٌ عـن خـطّ الرّسـالة الإلهيّـة، وسـيرةُ الرسـولِ صلى الله عليه وآله وخلفائِهِ الأطهارِ خيرُ دليلٍ على خطأ هذا التّصوّر، فلم يحدّثنا التأريخ أنَّهـم

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٣٤/٣، ح/١٦٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٢/٣، ح/١٦٨٢.

(٣) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٢٩/٦.

(٤) الشّهيد مطهّري، في رحاب نهج البلاغة: ١٥٣.

اعتزلوا المجتمع يوماً ما - إلا في حالات خاصّة نادرة لغرض العبادة فقط -، وإنّما كانوا في الوقت الذي يمارسون التّوعية الاجتماعيّة يمارسون عمليّة الإعداد والبناء الرّوحي الذّاتي؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر نقول: إذا اعتزل الإنسان المجتمع، وانزوى في كهف من الكهوف فأيّ شيء يتّقي؟ فهو لوحده يعيش مع نفسه، أو لنفسه فقط، والذي ينبغي أن يتّقي هو الّذي يمرّ في وسط الأخطار، ويريد أن يحمي نفسه منها، فهو كالطبيب الّذي يحتمي من الجراثيم في الوقت الّذي يمارس إعطاء العلاج، ومن هنا صحَّ القول: أنّ التقوى - كما قال أحد المفكّرين -: «**مقاومة إيجابيّة إزاء المخالفات الشّرعيّة**».

وموجز القول: إنَّ التَّقوى ملكة نفسيّة، وروحيّة، وفكريّة عالية تمنح الإنسان قوّة مقاومة لنوازعه الذاتيّة، وتدفعه لمقاومة الانحرافات الاجتماعيّة عن خطّ الرّسالة، وتحميه عن السقوط في طريق الكدح إلى الله.

فالمتّقي إذن هو المؤمن المتحرّز عن الذّنوب، المتحكّم في نوازعه الذّاتيّة والمقاوم للتّيارات الاجتماعيّة المنحرفة، والعامل لتغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم، والمرتبط بالله في كلّ حركة وسكون، فهو شخصيّة لها ملامح خاصّة في أفكارها، وعواطفها، وسلوكها؛ فتراه قويّ الإحساس بالهيمنة الإلهيّة، شاعراً بالمسؤولية أمام الله تعالى، متحرّزاً من أسر عبودية الهوى، ومتذمّراً من الذّنوب والأرجاس الماديّة والمعنويّة، ومترفّعاً عن ذمائم الأخلاق كالحقد والحسد والجشع، متميّزاً ببصيرة نيّرة، ورؤية واضحة لأهداف رسالة الله تعالى في الحياة، وثابتاً في مواجهة المشاكل والأزمات العنيفة، محافظاً على التزاماته الشّرعية.

التّقوى دَعْوَةُ جَمِيعِ الأَنْبِياءِ وَالْمُرْسَلِينَ:

لا نبالغ إذا قلنا: إنَّ جميع رسالات السّماء على طول خط التّأريخ تهدف تحقيق التّقوى في نفوس النّاس على المستويين الفردي والاجتماعي؛ فهي وصية الله لعباده منذ خلقهم، مرتبطة بالتّوحيد العملي ارتباطاً لا يقبل الانفصال والتّجزئة؛ فما خلق الله النّاس إلا ليوحّدوه ويتّقوه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[(١)].

وهذا تأكيدٌ لنا، ولمن كان قبلنا، ولمن يأتي بعدنا بوجوب العمل والجدّ فيه لتحصيل التقوى، وواضح أنَّ (المراد بالآية أنَّ الأمر بتقوى الله شريعة عامة لجميع الأمم لم يلحقها نسخٌ ولا تبديل، بل هو وصيّة الله في الأوّلين والآخرين)[(٢)].

وإذا ما استقرأنا الآيات الكريمة بدقّة نجد أنَّ الأنبياء جميعاً دعَوا أقوامهم إلى تقوى الله ونكتفي بذكر بعضها:

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[(٣)].

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى تقوى الله، يقول تعالى:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٤)].

---

(١) النّساء: ١٣١.

(٢) الإمام الفخر الرّازي، التّفسير الكبير: ٧٠/١١.

(٣) الشّعراء: ١٠٧-١١٠.

(٤) العنكبوت: ١٦.

وكذلك موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

ونجد في سورة الشَّعراء أنَّ كلاً من أنبياء الله تعالى: هود، وصالح، ولوط، وشُعَيب عليهم السلام يدعون قومهم إلى تقوى الله، وبلفظٍ واحدٍ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٢).

وهكذا نجد أنَّ الأمر بالتّقوى خطٌّ عامٌّ في رسالات الله تعالى على لسان أنبيائه ودعاته في الأرض؛ لأنّ التّقوى هي السّبيل الوحيد لنجاة البشريّة من الفساد والدّمار في الدّنيا، ومن الشّقاء الدّائم في الآخرة.

شُمولِيَّةُ التَّقْوى وَاقْتِرانُها بِجَميعِ الْمَقاماتِ:

نظرةُ تأمّلٍ سريعةٍ في آيات الكتاب الكريم نجدها حين تذكر العقائد، أو العبادات، أو الأحكام، أو الأخلاق، أو القصص، والمواعظ تقرنها جميعاً بالأمر بالتّقوى كنتيجة لها، أو عامل تحصيل للتّقوى من خلالها تصريحاً أو تلميحاً؛ وهذا تأكيدٌ على أنَّ العقيدة، والعبادة، والأخلاق، وامتثال الأحكام، وتطبيقها على المجتمع إذا تجرَّدت جميعاً من التّقوى فليس لها نفعٌ ولا جدوى، وفي كثير من الأحيان يأتي الأمر بالعبادة رجاءً لتحقيق التّقوى، والتّقوى سبباً لتحصيل السّعادة في الدّنيا والآخرة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

---

(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الشّعراء: ١١٠.

(٣) البقرة: ٢١.

(وهـذا السـياق يعطـي كـون قولـه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ متعلقـاً بقولـه تعـالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، دون قولـه: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ وإن كـان المعنـى صـحيحاً علـى كـلا التقديرين)[1].

(إنّ كلمة (لعلّ) للتّرجي والإشفاق، والتّرجّي والإشفاق لا يحصلان إلا عند الجهل بالعاقبة، ومن هنا نعلم أنّ معنى كلمة (لعلّ) راجعٌ إلى العباد، لا إلى الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[2] أي اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما في إيمانه... وقيل: (لعلّ) بمعنى (كي) أي كي تتّقون، فالمراد من لفظ (لَعَلَّ) فعل ما لو فعله غيره لكان موجباً للرجاء... واللام في (لعلّ) هي لام التأكيد، فأصلها (عَلّ)؛ لأنّهم يقولون: علَّك أن تفعل كذا، أي: لعلّك، فإذا كانت حقيقته التّكرير والتّأكيد كان قول القائل: «افعل كذا لعلك تظفر بحاجتك معنا» افعله فإنّ فعلك له يؤكد طلبك له ويقوّيك عليه؛ ومن هنا يعلم أنّ العبادة فعل يحصل به التّقوى؛ لأنَّ الاتّقاء هو الاحتراز عن المضارّ، والعبادة فعلُ المأمور به، ونفس هذا الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضارّ، بل يوجب الاحتراز، فكأنَّه تعالى قال: اعبدوا ربَّكم؛ لتحترزوا عن عقابه، وإذا قيل في نفس الفعل أنّه اتقاء فذلك مجاز؛ لأنّ الاتّقاء غير ما يحصل به الاتّقاء، لكن لاتّصال أحد الأمرين بالآخر أجرى اسمه عليه)[3].

ولما كانت العبادة عن إيمان بالواحد الأحد المطلق الّذي يلزم على العباد

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/٥٧.

(٢) طه: ٤٤.

(٣) ينظر: التّفسير الكبير: ٢/١٠٠-١٠١ بتصرّف يسير.

اتّقاءه، والخوفَ منه، وجدنا أنَّ كلمة (الإيمان) في القرآن الكريم اقترنت في مواضع كثيرة منه؛ وذلك لأنَّ الإيمان إذا تجرّد من التّقوى لم يعد شيئاً ذا قيمة، ولا يكون له أيّ أثر في حياة الإنسان؛ فالأجر العظيم، والفلاح، والسّعادة، والنّجاة في الدّنيا والآخرة لا يحصل من الإيمان فقط، وإنّما من الإيمان والتقوى معاً، يقول تعالى:

﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾(١).

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(٢).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(٣).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٤).

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾(٥).

ففي جميع هذه الآيات نرى أنَّ التقوى مقترنةٌ بالإيمان بأوامر قطعيّة، ولا تنفكّ عنه بحال.

وكما اقترنت التّقوى بالإيمان اقترنت كذلك بالفرائض التي هي مظهرٌ من مظاهر الإيمان، أريد تحقيق التّقوى من خلالها؛ ففي باب الصوم مثلاً يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

(١) محمّد: ٣٦.

(٢) يونس: ٦٢-٦٣.

(٣) فصّلت: ١٨.

(٤) آل عمران: ١٠٢.

(٥) الزمر: ١٠.

تَتَّقُونَ ﴾[(١)].

هذا لـ (كون التّقوى مرجو الحصول بالصّيام ممّا لا ريب فيه؛ فإنّ كلّ إنسان يشعر بفطرته أنَّ من أراد الاتّصال بعالم الطهارة والرّفعة، والارتقاء إلى مدرجة الكمال والرّوحانيّة، فأوّل ما يلزمه أن يتنزّه عن الاسترسال في استيفاء لذائذ الجسم، وينقبض عن الجماح في شهوات البدن، ويتقدّس عن الإخلاد إلى الأرض، وبالجملة أن يتّقي ما يبعده الاشتغال به عن الربّ تبارك وتعالى، فهذه تقوى إنما تحصل بالصّوم والكفّ عن الشّهوات)[(٢)].

(وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم.. إنّها التقوى.. فالتّقوى هي الّتي تستيقظ في القلوب، وهي تؤدّي هذه الفريضة، طاعةً لله، وإيثاراً لرضاه. والتّقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصّوم بالمعصية، ولو تلك الّتي تهجس في البال، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التّقوى عند الله، ووزنها في ميزانه. فهي غاية تتطلّع إليها أرواحهم. وهذا الصّوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتّجهون إليه عن طريق الصّيام.. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ..)[(٣)].

وخلاصة القول: (إنَّ الصّوم يورث التّقوى لما فيه من انكسار الشّهوة وانقماع الهوى؛ فإنّه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهوّن لذّات الدّنيا ورياستها؛ وذلك لأنَّ الصوم يكسر شهوة البطن والفرج... فيكون معنى الآية

---

(١) البقرة: ١٨٣ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٨/٢.

(٣) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٢٣٩/١ .

فرضت عليكم الصّيام؛ لتكونوا به من المتّقين الّذين أثنيتُ عليهم في كتابي، وأعلمت أنَّ هذا الكتاب هدى لهم، ولمّا اختصّ الصّوم بهذه الخاصّة حسن منه تعالى أن يقول عند إيجابها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ منها بذلك على وجه وجوبه؛ لأنَّ ما يمنع النَّفس عن المعاصي لا بدّ وأن يكون واجباً... ينبغي لكم بالصّوم أن يقوى رجاؤكم في التّقوى، وهذا معنى (لَعَّل)...)[١].

والنتيجة المحصّلة - والله أعلم - أنَّ الله عزَّ وجلَّ إنّما فرض الصوم ليكون عاملاً مهمّاً في تحقيق التّقوى في نفس الإنسان المؤمن.

والصلاة التي هي عماد الدّين، وأول أعمال ابن آدم التي تعرض على الله، وهي معراج المؤمن، ولا يُقْبَلُ عملٌ بدونها قُرِنَتْ بالتَّقوى أيضاً، يقول تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٢]؛ لأنَّ الصلاة إذا تجرَّدت من التَّقوى لا تزيد فاعلُها إلا بعداً من الله؛ ولذا ورد في الخبر: «**مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الْفَحْشاء وَالْمُنْكَر لَمْ يَزْدَدْ مِنَ الله إلا بُعْداً**»[٣].

ونهي الصّلاة عَن الفحشاء والمنكر تعبيرٌ مجازيٌّ، وإنّما الّذي ينهى هو ما تتركه الصّلاة من أثر في نفس الإنسان، وهذا الأثر هو التّقوى، وما أجمل قول الفخر الرّازي في هذا الباب، يقول: «فالصّلاة التي هي رئيسة الطّاعات الجسمانيّة، والتّقوى الّتي هي رئيسة لباب التّروك والاحتراز عن كلّ ما لا ينبغي»[٤].

ويتّضح هذا الأمر أكثر إذا تدبّرنا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ

(١) التّفسير الكبير: ٧٧/٥.

(٢) الأنعام: ٧٢.

(٣) بحار الأنوار: ١٩٨/٨٢.

(٤) التّفسير الكبير: ٣٠/١٣.

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1].

فهنا تسليمٌ كليٌّ لله الواحد الأحد؛ فكأنَّه تعالى قال: «أسلموا لربّ العالمين، وأقيموا الصلاة؛ لتحصلوا على التّقوى فتكون المعادلة: تسليم + إقامة الصلاة = التّقوى».

والقصاص إنّما شُرِّعَ لأجل إيجاد التّقوى الاجتماعيّة، يقول تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2]؛ فالتّقوى هنا تشمل عموم تقوى الفعل، وتقوى النّار، بل تقوى الله عزَّ وجلَّ.

والوفاء بالعهد اقترن بالتقوى كذلك في كلّ مجالاته سواء كان الوفاء بالعهد لله الذي هو الواجب الرئيس للإنسان، أو الوفاء للإنسان مؤمناً كان أو كافراً وغير ذلك، يقول تعالى:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

(إنّه يعلّق الوفاء بالعهد بتقوى الله وحبّه - سبحانه - للمتّقين. فيجعل هذا الوفاء عبادة له، وتقوى يحبّها من أهلها.. وهذه هي قاعدة الأخلاق في الإسلام.. إنّها ليست قاعدة المنفعة والمصلحة، وليست قاعدة الاصطلاح والعرف المتغيّرين أبداً.. إنّها قاعدة العبادة لله وتقواه. فالمسلم يتخلّق بما يحبّه الله منه

---

(١) الأنعام: ٧١-٧٢.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) آل عمران: ٧٦.

(٤) التّوبة: ٤.

ويرضاه له؛ وهو يخشى الله في هذا، ويتطلّب رضاه. ومن هنا سلطان الأخلاق في الإسلام؛ كما أنّه من هنا مبعثها الوجدانيّ الأصيل)[1].

والاستقامةُ على دين الله مشروطةٌ بالتقوى، حيث إنّ الافتقار إليها هو افتقادٌ للاستقامة لا سيّما في حالة مواجهة تيّارات الشّرك والانحراف، يقول تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[2].

فالاستقامة والثّبات على الصّراط المستقيم، واتّباع أوامر الله بسلوك سبيله والمعاناة من أجله يورث التّقوى، فالتّقوى إذن هي المحصّلة النهائيّة من اتّباع خط الرّسالة، يقول تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3].

وفي عمليّة الإصلاح على المستوى الفرديّ والاجتماعيّ لا بدّ من تقوى عالية؛ لئلا يميل المصلح إلى هذا أو ذاك، يقول تعالى:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[4].

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[5].

ففي هذه الآيات الكريمة وغيرها تأكيدٌ واضحٌ على وجوب ملازمة عمليّة الإصلاح للتّقوى، وبهذا تتّضح أهمية التّقوى في هذا المجال.

والإحسان الذي يعدُّ سمةً من السّمات البارزة في رسالة الله تعالى، وهو

(١) في ظلال القرآن: ١٣٩/٤.

(٢) التّوبة: ٧.

(٣) الأنعام: ١٥٣.

(٤) الأنفال: ١.

(٥) الحجرات: ١٠.

السّلاح السّلمي لدرء السّيئات والدّفع لها، وعامل تحصيل محبة الله والنّاس، وقد أمر الله تعالى به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[١]، فاشترط الله فيه التقوى لئلا يكون الإحسان متكلّفاً ومَصْلَحياً وبارداً يفتقر إلى عنصر الحبّ والإخلاص؛ ولئلا يصاب المحسن بالإعجاب بنفسه، والمنّة على من أحسن إليه، من أجل ذلك أكَّدَ القرآنُ الكريمُ على ملازمة التّقوى في كلّ فعل حسن جميل، يقول تعالى:

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٢].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

ففي هذه الآية تصويرٌ دقيقٌ لأهميّة التّقوى الّتي (تجامع جميع المقامات المعنويّة) من خلال التّرتيب في سياق الآية (تقوى، إيمان، عمل صالح)، ثم (إيمان، تقوى، إحسان)، فكأنّه تعالى يريد أن يقول: الإيمان بلا تقوى هراء، وعمل بلا تقوى يصاب صاحبه بالرياء، وإحسان بلا تقوى هباء، يقول العلامة الطّباطبائي قدّس سرّه: «وأمّا تكرار التّقوى ثلاث مرات، وتقييد المراتب الثّلاث جميعاً به فهو لتأكيد الإشارة إلى وجوب مقارنة المراتب جميعاً للتّقوى الواقعي من غير غرض آخر غير ديني، وقد مرَّ في بعض المباحث: أنَّ التقوى ليس مقاماً خاصّاً دينيّاً، بل هو حالة روحيّة تجامع جميع المقامات المعنويّة، أي إنَّ لكلّ مقام

(١) النّحل: ٩٠.

(٢) النّساء: ١٢٨.

(٣) آل عمران: ١٧٢.

(٤) المائدة: ٩٣.

معنوي تقوًى خاصّاً يختصّ به»[١].

والصَّبر الذي هو من الإيمان كالرّأس من الجسد، أيضاً لا بدّ وأن يقترن بالتّقوى اقتراناً إلزاميّاً حتميّاً؛ لأنَّ الصابر بدون تقوى قد يقع في العناد والإصرار على الخطأ، وقد يعجب بقوّة إرادته؛ ولهذا جعلت التّقوى من لوازم الصّبر ليؤدّي الصّابر دوره في الكدح إلى الله بنجاح تامّ، ويفوز برضاه تعالى.

وقد أكّد القرآن الكريم على اقتران الصّبر بالتّقوى في مختلف المواطن السّاخنة؛ ففي ميدان الجهادِ الصبرُ والتّقوى شرطان من شروط الإمداد الإلهيّ، يقول تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[٢].

والصَّبر والتّقوى من عناصر النّصر على صعيدي الجهاد الأكبر والأصغر، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٣].

إذن الصّبر والمصابرة والمرابطة في سبيل الله لا بدّ لها من التقوى؛ لتحقيق الفلاح في الدّنيا والآخرة؛ لأنَّ الله لا يتقبّل إلا من المتّقين.

وهكذا نجد أنَّ التقوى مازجت جميع المقامات المعنويّة، وأصبحت بالنّسبة إليها بمثابة الرّوح من الجسد؛ فهي المُقَوِّم الأساسي لها جميعاً بلا استثناء؛ ولأنَّ الخصال والملكات الحميدة في جميع مجالات الحياة الإيمانيّة الفرديّة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/١٢٨-١٢٩.
(٢) آل عمران: ١٢٥.
(٣) آل عمران: ٢٠٠.

والاجتماعيّة لا يمكن أن تعطي ثمارها يانعةً بدون التّقوى، فهي كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**فَإِنَّ تَقْوى الله مِفْتاحُ سَدادٍ، وَذَخيرَةُ مَعادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ**[1]**، وَنَجاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بها يَنْجَحُ الطّالِبُ، وَيَنْجو الْهارِبُ، وَتُنالُ الرَّغائِبُ**»[2].

فما من خطوةٍ يخطوها المؤمن إلا والتّقوى شرطٌ في قبولها عند الله تعالى فهي سندٌ أساسيّ لمسيرة الإنسان المؤمن من بدايتها إلى نهايتها، فقد دخلت كشرط أساس - ولا أعني الشّروط الفقهيّة - في جميع الواجبات والمستحبّات والمباحات في العبادات والمعاملات.

فكلّ عملٍ من أعمال المؤمن لا بدّ وأن تلازمه التّقوى وبأيّ درجة من درجاتها؛ ليكون ذلك العمل خطوة للرّقي في معارج التّقوى، وبهذا تكون التّقوى مُقَوِّمةً للعلم والعمل، ورافعةً للإنسان إلى درجةٍ من درجات الكمال.

والعجيب في الأمر أنّ الاسلام العظيم أمرَ بالتزام خط التّقوى حتى مع المشانئين والمعادين للمؤمنين، وأن يكون تعامل المؤمنين مع الّذين يبغضونهم مما يقرّبهم إلى تقوى الله أيضاً، وأن يَتَحرّوا كلّ ما يقرّبهم إلى تقوى الله تعالى ولو في معاملة الأعداء؛ ولذا فإنّ الأمر بالعدل علّة لتحقيق التّقوى، يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

---

(١) من كلّ ملكة: أي كلّ ذنب موبق يملك الشّيطان فاعله.

(٢) نهج البلاغة: ٣٧٨، خطبة: ٢٢٩.

(٣) المائدة: ٨.

(فدعا [سبحانه وتعالى] إلى العدل، وعدَّه ذريعة إلى حصول التّقوى)[1].

وهكذا يتّضح من كتاب الله أنّ من واجب المؤمنين أن يقوموا بالعدل مع كلّ أحد؛ ولياً كان، أو عدواً؛ لأنّ العدل يقرّبهم إلى التقوى؛ وبذلك يكون العدل والإحسان والصّبر والجهاد... كلّها وسائل لتحقيق التّقوى؛ فإنّ الله تعالى خلق الإنسان؛ ليوحّده ويتّقيه.

فَوائِدُ التَّقْوى:

لا يمكن أن تحدّد فوائد التّقوى بحدود ما دامت هي من نتائج الشّعور بهيمنة الله تعالى، والإحساس بالمسؤولية أمامه، والشّعور بالتّقصير في عبادته؛ وهنا نذكر بعض فوائدها في حدود ما دلّتنا عليها روايات أهل بيت العصمة صلوات الله عليهم.

هذه الفوائد يمكن أن نقسمها على قسمين: فوائد في الدّنيا، وأخرى في الآخرة، وهذا التّقسيم (للتّوضيح لا للتّبعيض)؛ ما دام أمر الدّنيا في الإسلام ملازماً لأمر الآخرة.

أما أهمّ الفوائد التي دلّت عليها الآيات والأحاديث الشّريفة؛ فهي:

١- التّقوى دواء لكلّ الأمراض النّفسيّة:

الأمراض التي يصاب بها القلب كثيرة؛ منها: الجهل، والنّفاق، والحقد، والتّكبّر... والتّقوى هي العلاج الوحيد الواقي من هذه الخبائث؛ فلا تجد متّقياً حقيقيّاً يعرفُ الحقدَ، أو التّكبرَ، أو النّفاقَ، أو غيرها إلى قلبِهِ سبيلاً، وأدقُّ بيانٍ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٥/٢٣٧.

لفوائد التّقوى ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث يقول: «**فَإِنَّ تَقْوى الله دَواءُ داء قُلوبِكُمْ، وبَصَرُ عَمى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفاءُ مَرَضِ أَجْسادِكُمْ، وَصَلاحُ فَسادِ صُدورِكُمْ، وَطُهورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلاءُ عَشا أَبْصارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ وَضِياءُ سَوادِ ظُلْمَتِكُمْ**»(١).

وقال عليه السلام: «**داوُوا بِالتَّقْوى الأَسْقامَ، وَبادِروا بِها الْحِمامَ، وَاعْتَبِروا بِمَنْ أَضاعَها، وَلا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطاعَها**»(٢).

٢- التّقوى إحدى منابع المعرفة:

(عدَّ القرآن الكريم القلب مركزاً لسلسلة من الإلهامات والإلقاءات الإلهيّة حيث إنَّ كلّ إنسان وفي أيّ مستوى محافظٌ على طهارته القلبيّة، وعاملٌ، ومنفّذٌ لها؛ فإنَّ هذا المركز سيكون طريقاً للخلاص والعبوديّة، وقد صرّح القرآن بذلك كقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ** ﴾(٣))(٤).

وهذه الحالة لا تتحقّق إلا بتزكية النّفس من الأدران، يقول تعالى: ﴿ **وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾(٥).

فإذا طُهِّرت النّفس من خبائث الإنِّيَّةِ والأنانيّة، ومذامّ الأخلاق، وأدران الذّنوب أصبحت مؤهّلة، لتلقّي الفيض الإلهي، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه

---

(١) نهج البلاغة: ٣٤٠، خطبة: ١٩٨.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٤، ح/٦٠٢١.

(٣) الأنفال: ٢٩.

(٤) الشّهيد مرتضى مطهّري، من كتاب جهان بيني إسلامي باللّغة الفارسية.

(٥) الشّمس: ٧-١٠.

قال: «**الْعِلْمُ صِبْغُ النَّفْسِ، وَلَيْسَ يَفوقُ صِبْغَ الشَّيْءِ حَتّى يَنْظُفَ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ**»[١].

وهذه بديهية؛ فإنّ الورقة الملوثة لا تظهر عليها الكتابة واضحة، كذلك فإنّ نقاءَ صفحة القلب وبياضَها شرطٌ لانطباع العلم فيها؛ فإذا لوّث القلب بمرض الحقد، والحسد، والعجب، والتّكبّر، والغرور... الخ، فلا يكون قابلاً لتلقّي الفيوضات الإلهيّة، ولا يمكن أن يكون مصباحاً يشعّ النّور على الآخرين، ويفيض الحبّ والحنان عليهم، وعلى العكس عندما يمتلئ بتقوى الله يرزقه الله قوة التّمييز بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ، و الهدى والضّلال، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾[٢]، بمعنى (إن تتّقوا الله لم يختلط عندكم ما يرضي الله في جميع ما تقدّم بما يسخطه، ويكفّر عنكم سيّئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم)[٣].

إنَّ المعرفة لا تحجب عن القلوب الطاهرة، وإنّما الذي يحجبها عنها هي الذّنوب والمعاصي، وذمائم الأخلاق، فإنّها تكدّر القلب، وتجعله مظلماً لا يقبل النور؛ لأنَّ (القلوب كالأواني، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء، فـ[كذلك] القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: لولا أنّ الشّياطين يحومون على قلوب بني آدم؛ لنظروا إلى ملكوت السّماء)[٤].

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٨/٢٠، الحكم المنسوبة: ١١٠.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٥٦/٩.

(٤) الغزالي، إحياء علوم الدّين: ٩/٣، والمحجّة البيضاء للفيض الكاشاني: ١٥/٥-١٦.

ومن هنا يتّضح أنّ إشراق القلب، وجلاء البصيرة، لا يتحقّق بدون تحصيل التّقوى؛ فالتّقوى تساعد على صفاء القلب، وترسّخ العلم فيه، وجريان الحكمة منه، وهذا يحتاج إلى تخلية من كلّ الأدران بالمجاهدة الشّديدة للنّفس، فما (لم تحصل التّخلية لم تحصل التّحلية)[1] كما يقول علماء الأخلاق، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2].

والجهاد في الله هو مجاهدة العدوّ الباطنيّ للإنسان وهي نفسه التي بين جنبيه، وهو مفتاح أبواب الجهاد الأخرى؛ ولذا صار سبيلاً يفتح اللهُ به على عباده سبلَ الهداية من أوسع أبوابها.

إنَّ المرآة الملوّثة لا تعكس الصورة كاملة، والمصباح الذي تراكم عليه الدّخان لا يشع النّور، كذلك القلب الملوّث بالأدران وذمائم الأخلاق لا يمكن أن يتقبّل النّور الإلهي فضلاً عن أن يشعّه.

٣- التّقوى هي المخرج من الشّدائد والأزمات والمحن:

عقبات وأشواك طريق السّير والسّلوك إلى الله أكثر من أن تُحصى؛ ولذا جاء التّعبير القرآني في هذا المجال دقيقاً، وصريحاً، حيث يقول تعالى: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾[3]؛ فهناك المشاكل: العائليّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة، وعلى مختلف الأصعدة السّياسيّة، والاقتصاديّة، والفكريّة، والعسكريّة، وغيرها من التّحدّيات القويّة الّتي تواجه المؤمن في سيره

---

(١) الشّيخ النّراقي، جامع السّعادات: ١/ ١٠.

(٢) الشّمس: ٧-١٠.

(٣) الأنفال: ٧.

الرّسالي، وإذا أراد أن يواجهها بنفسه وقوّته؛ فإنّه سوف يعجز لا محال؛ ولذا جعل الله تعالى التّقوى السَّبيل الواضح الذي يُنزل به شآبيب رحمته، فيمنح الإنسان بها الإرادة الصّلبة، والعزيمة الماضية من خلال إحساسه وإيمانه بالمدد الإلهيّ، وهكذا جاءت الآيات والأحاديث مؤكّدة لهذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[1]، (أي ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾، ويتورّع عن محارمه، ولم يتعدَّ حدوده، واحترم لشرائعه، فعمل بها ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ من مضائق مشكلات الحياة)[2].

وفي هذا الباب وردت أحاديث كثيرة نذكر منها قول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «**وَلَوْ أَنَّ السَّماواتِ وَالأَرَضينَ كانَتا عَلى عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقى اللهَ، لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُما مَخْرَجاً**»[3].

«**وَاعْلَموا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ، وَنوراً مِنَ الظُّلَمِ**»[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنِ انْقَطَعَ إِلى اللهِ كَفاهُ كُلَّ مَؤونَةٍ، وَمَنِ انْقَطَعَ إِلى الدُّنْيا وَكَّلَهُ اللهُ إِلَيْها**»[5].

---

(١) الطّلاق: ٤-٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١٩/٣١٣-٣١٤.

(٣) نهج البلاغة: ٢١٩، خطبة: ١٣٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩٧، خطبة: ١٨٣.

(٥) بحار الأنوار: ٧٧/١٧٨.

٤- التّقوى مفتاح بركات السّماوات والأرض:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(١).

المقصود بالتّقوى هنا هي التّقوى الاجتماعيّة، أي لو وجد المجتمع المتّقي لله لفتح الله عليهم بركات السّماء والأرض، يقول العلامة الطّباطبائي: «إنّ افتتاح أبواب البركات مسبّب لإيمان أهل القرى جميعاً وتقواهم، أي إنّ ذلك من آثار إيمان النّوع الإنساني وتقواه لا إيمان البعض وتقواه، فإنّ إيمان البعض وتقواه لا ينفكّ عن كفر البعض الآخر وفسقه، ومع ذلك لا يرتفع سبب الفساد وهو ظاهر»(٢).

ومع هذا فعلى المستوى الفردي أيضاً التّقوى مفتاح بركات الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾(٣).

وقد روي أنّ هذه الآية نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، حيث (أسر العدوّ ابناً له، فأتى النبي ﷺ، فذكر له ذلك، وشكا إليه الفاقة، فقال له: اتقِّ الله واصبر، وأكثر من قول لا حول ولا قوّة إلا بالله، ففعل الرجل ذلك، فبينا هو في بيته إذ أتاه ابنه، وقد غفل عنه العدوّ، فأصاب إبلاً وجاء بها إلى أبيه)(٤).

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠١/٨.

(٣) الطّلاق: ٢-٣.

(٤) الطّبرسي، مجمع البيان: ٤٦٠/١٠.

قال صاحب الكشّاف: «فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدوّ فاستاقها»[(١)].

وأروعُ تعبيرٍ وبيانٍ لهذه الحقيقة ما قاله أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام:

«أوصيكُمْ عِبادَ الله بتَقْوى الله؛ فَإِنَّها الزِّمامُ وَالْقِوامُ، فَتَمَسَّكوا بوَثائِقِها، واعْتَصِموا بحَقائِقِها، تَؤُلْ بِكُمْ إلى أَكْنانِ الدَّعَةِ، وَأَوْطانِ السَّعَةِ، وَمَعاقِلِ الْحِرْزِ، وَمَنازِلِ الْعِزِّ»[(٢)].

٥- التّقوى تطهّر وتزكّي النّفس:

ما دام الإنسان يتجنّب الذّنوب والمعاصي، ويتحرّى الفضائل والمكارم ساعياً لنيل رضوان الله؛ فإنّ نفسه ستتميّز بالصّفاء والشّفّافية والطّهارة من الأدران وذمائم الأخلاق، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«التَّقْوى جِماعُ التَّنَزُّهِ وَالْعَفافِ».

«بالتَّقْوى تُقْطَعُ حُمَّةُ الْخَطايا».

«بالْوَرَعِ يَكونُ التَّنَزُّهُ مِنَ الدَّنايا».

«ثَمَرَةُ التَّوَرُّعِ النَّزاهةُ».

«بالْوَرَعِ يَتَزَكّى الْمُؤْمِنُ».

«كُنْ وَرِعاً تَكُنْ زَكِيّاً».

«وَرَعُ الْمَرْءِ يُنَزِّهُهُ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ»[(٣)].

---

(١) الزّمخشري، الكشّاف: ٤/٥٥٦.

(٢) نهج البلاغة: ٣٣٧، خطبة: ١٩٥.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٤-٢٧٥، ح/٦٠٠٧-٦٠١٦-٦٠١٧-٦٠١٨-٦٠٢٠-٦٠٢٢-٦٠٢٩.

٦- التَّقوى خيرُ زادٍ:

وقد أكّد القرآنُ هذه الحقيقةَ، يقول تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١].

(الزّاد هو الطعام الذي يتخذ للسّفر، والمزود وعاء يجعل فيه الزاد)[٢]، وفي تفسير مواهب الرحمن: «والسّفر على قسمين: سفر في الدنيا، وسفر من الدنيا، وفي كلّ منهما لا بدّ من الزّاد، وزادُ الأوّل هو: الطّعام والشّراب والمركب ونحوه، وزادُ الثّاني هو: معرفة الله تعالى، والطّاعة، والاستعداد للآخرة.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ خير الزّاد لهذا السّفر هو التقوى، أي فعل الطاعات، وترك المعاصي، وترك ما يوجب سخط الله تعالى، والتّقوى هي الصّراط المستقيم إلى الإنسانيّة الكاملة، والجنان العالية، وهي الارتباط الوثيق مع مالك الدنيا والآخرة»[٣].

وقد ورد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام من ذلك كثيراً؛ نذكر من ذلك:

«التَّقْوى خَيْرُ زادٍ».

«إِنَّ تَقْوى الله هِيَ الزّادُ وَالْمَعادُ، زادٌ مُبَلِّغٌ، وَمَعادٌ مُنْجِحٌ، دَعا إِلَيْها أَسْمَعُ داعٍ، وَوَعاها خَيْرُ واعٍ، فَأَسْمَعَ داعِيها، وَفازَ واعِيها».

«عَلَيْكُمْ بِالتَّقْوى؛ فَإِنَّهُ خَيْرُ زادٍ وَأَحْرَزُ عِتادٍ».

«لا زادَ كَالتَّقْوى».

---

(١) البقرة: ١٩٧.

(٢) الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان: ٥٢٣/٢.

(٣) السيد عبد الأعلى السّبزواري، مواهب الرّحمن: ١٥٢/٣.

«إِنَّكُمْ إِلى أَزْوادِ التَّقْوى أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلى أَزْوادِ الدُّنْيا»(١).

٧- التّقوى لباس يحمي الإنسان ويستره:

يقول تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾(٢).

كما يحتاج البدن إلى لباس يحميه من الحرّ والقرّ، ويجمله، كذلك لا بدَّ للرّوح والقلب والضّمير من لباس يحميه ويجمله، هذا اللّباس هو التّقوى، وهنا تشبيه قويٌّ الدلالة ومعبّر جداً عن حقيقة التَّقوى.

وقد اختلف المفسّرون به، فقيل: بأنّه العمل الصالح، وقيل: هو الحياء، وقيل: هو ثياب النّسك والتّواضع، وقيل: هو لباس الحرب والدرع والمغفر(٣)...

وقد ورد في تفسير هذه الآية عن الإمام الباقر عليه السلام: **«فَأَمّا اللّباسُ فَالثّيابُ الَّتي يَلْبَسونَ. وَأَمّا الرِّياشُ فَالْمَتاعُ وَالْمالُ، وَأَمّا لِباسُ التَّقْوى فَالْعَفافُ؛ لأَنَّ الْعَفيفَ لا تَبْدو لَهُ عَوْرَةٌ، وَإِنْ كانَ عارِياً مِنَ الثّيابِ، وَالْفاجِرَ بادي الْعَوْرَةِ وَإِنْ كانَ كاسِياً مِنَ الثّيابِ»**(٤).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثَوْبُ التُّقى أَشْرَفُ الْمَلابِسِ».

«مَنْ تَعَرّى عَنِ الْوَرَعِ ادَّرَعَ جِلْبابَ الْعارِ».

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٩-٢٧٢، ح/٥٩٣٩-٥٩٤١-٥٩٤٤-٥٩٤٥-٥٨٥٩.

(٢) الأعراف: ٢٦.

(٣) الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان: ٦٣٢/٤.

(٤) علي بن إبراهيم، تفسير القمّي: ٣٣٤/١.

«**مَنْ تَعَرّى عَنْ لِباسِ التَّقْوى لَمْ يَسْتَتِرْ بِشَيْءٍ مِنْ أَلْبابِ (أَسْبابِ) الدُّنْيا**».

«**مَنْ تَسَرْبَلَ أَثْوابَ التُّقى لَمْ يَبْلُ سِرْبالُهُ**»[1].

٨- التّقوى حصانةٌ وصيانةٌ:

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الإنسان يتعرَّض لمختلف المغريات والفتن التي تهدّد دينه بالخطر، وقد توقعه بالانحراف والسّقوط؛ ولهذا لا بدَّ له من حصانة تحميه عن السّقوط، وقد يقال: إنَّ العلم والعبادة وغيرهما هما الحصانة، وقد يكون ذلك صحيحاً إذا اقترن بالتّقوى، ولم يُجْعَلُ الْعلمُ آلةً للدّنيا؛ أمّا إذا كان طلب العلم للدّنيا فلا شكَّ بجعل الإنسان يتذبذب، ويتلوّن، ويبرّر مخالفاته، أمّا إذا تحلّى بالتّقوى، وأصبحت ملكة راسخة في نفسه فإنَّه يصبح محميّاً، وهذا ما جاء في كثير من أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام، يقول عليه السلام:

«**اعْلَموا عِبادَ الله، أَنَّ التَّقْوى دارُ حِصْنٍ عَزيزٍ، وَالْفُجورَ دارُ حِصْنٍ ذَليلٍ، لا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلا يُحْرِزُ[2] مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ، أَلا وَبِالتَّقْوى تُقْطَعُ حُمَّةُ الْخَطايا**»[3].

ويقول عليه السلام:

«**التَّقْوى حِصْنٌ حَصينٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ**».

«**الْجَأوا إِلى التَّقْوى؛ فَإِنَّهُ (فَإِنَّها) جُنَّةٌ مَنيعَةٌ، مَنْ لَجَأَ إِلَيْها حَسَّنَتْهُ،**

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٠، ح/٥٨٩٨-٥٨٩٩-٥٩٠٠-٥٩٠١.

(٢) يحرز: يحفظ.

(٣) نهج البلاغة: ٢٥٢، خطبة: ١٥٧.

وَمَنِ اعْتَصَمَ بها عَصَمَتْهُ».

«لا حِصْنَ أَمْنَعُ مِنَ التَّقْوى».

«لا صِيانَةَ لِمَنْ لا وَرَعَ لَهُ»[1].

٩- التَّقوى لا يُقبل بغيرها عملٌ:

إنَّ قيمة العمل في الإسلام بمقدار ما يحمل من دوافع شريفة، بعيدة عن المصلحيّة والنّفعيّة؛ ولذا فإنّ قبول العمل مشروط بصدق النّية، وطهارة الدافع، وهذا الأمر لا يتحقّق إلا عند المتّقين؛ ولذا يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2].

ومن هنا نجد النّصوص الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام تؤكّد ذلك، يقول عليه السلام: «**كونوا بقَبول الْعَمَلِ أَشَدَّ اهْتِماماً مِنْكُمْ بالْعَمَلِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَقِلَّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوى، وَكَيْفَ يَقِلُّ عَمَلٌ تُقُبِّلَ**»[3]، وفي رواية أخرى يقول عليه السلام: «**لا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوى، وَكَيْفَ يَقِلُّ ما يُتَقَبَّلُ**»[4].

١٠- المدحة والثّناء[5]: قال تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾[6].

١١- الحفظ والحراسة من الأعداء: قال تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا**

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٠، ح/٥٨٨٥-٥٨٨٧-٥٨٩٣-٥٨٩٤.

(٢) المائدة: ٢٧.

(٣) المتّقي الهندي، كنز العمال: ٦٩٧/٣، ح/٨٤٩٦.

(٤) نهج البلاغة: ٥٠٠، قصار الحكم: ٨٩.

(٥) هذه النّقطة وما تتلوها من نقاط أخذت من تفسير القرآن الكريم للفيلسوف الإسلاميّ صدر المتألّهين: ٢٣٧/١-٢٣٨.

(٦) آل عمران: ١٨٦.

يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[١].

١٢- التّأييد والنّصرة: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[٢].

١٣- إصلاح العمل: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ ﴾[٣].

١٤- المحبّة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٤].

١٥- القبول: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٥].

١٦- غفران الذّنوب: قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ﴾[٦].

١٧- الإكرام والإعزاز: قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ ﴾[٧].

١٨- البشارة عند الموت: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِۚ ﴾[٨].

---

(١) آل عمران: ١٢٠.

(٢) النّحل: ١٢٨.

(٣) الأحزاب: ٧٠-٧١.

(٤) التّوبة: ٤.

(٥) المائدة: ٢٧.

(٦) نوح: ٣-٤.

(٧) الحجرات: ١٣.

(٨) يونس: ٦٣-٦٤.

١٩- **النّجاة مـن النّـار**: قـال تعـالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾[(٢)].

٢٠- **الخلود في الجنّة**: قال تعـالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[(٣)].

كَيْفَ يَكْتَسِبُ الإِنْسانُ التَّقْوى ؟

لمّا عرفنا أنّ التّقوى ملكة تترسّخ في النّفس بالتّحرز واليقظة والمحافظة على استقامة المسير من زيغ الهوى؛ لتدفع المؤمن إلى فعل الواجبات والمستحبّات، وتمنعه عن فعل المحرّمات أو حتى المباحات؛ فهي إذن حالة واقية للمرء من الوقوع في محذورات الشّرع المقدّس، وتتحقّق هذه الملكة بحصول حالات ثلاثة في النّفس هي: الخوف، والرجاء، والحبّ... الخوفُ من الله والرَّجاء منه، والحبّ له.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ:

(**الخوف**) و(**الخشية**) مصطلحان قرآنيّان وردا في آيات من القرآن الكريم، والفرق بينهما عموم وخصوص من وجه؛ فقد نقل صاحب مجمع البحرين رحمه الله عن شيخ الطّائفة الطّوسي عليه الرحمة: «إنّ الخشية والخوف -وإن كانا في اللّغة بمعنى واحد- إلا أنّ بين خوف الله وخشيته في عرف أرباب

(١) مريم: ٧١-٧٢.

(٢) اللّيل: ١٧.

(٣) آل عمران: ١٣٣.

القلوب فرقاً، وهو: أنّ الخوف تألّم النّفس من العقاب المتوقّع بسبب ارتكاب المنهيّات، والتّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق - وإن كانت مراتبه متفاوتة جدّاً - والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل.

والخشية حالة تحصل عند الشّعور بعظمة الحقّ وهيبته وخوف الحَجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لمن اطّلع على حال الكبرياء، وذاق لذّة القرب؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]؛ فالخشيةُ خوفٌ خاصٌّ، وقد يطلقون عليها الخوف أيضاً»[2].

وقال الرّاغب الأصفهاني في مفرداته: «الخوف توقّع مكروه عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ... والخوف من الله لا يُراد به ما يخطر بالبال من الرُّعب كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنّما يراد به الكفّ عن المعاصي واختيار الطّاعات؛ ولذلك قيل: لا يُعَدُّ خائفاً من لم يكن للذُّنوب تاركاً. والتّخويف من الله تعالى هو الحثُّ على التّحرُّز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[3]»[4].

و«الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخْشى منه، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[5]»[6].

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) الطّريحي، مجمع البحرين: ١/١٢٣-١٢٤، باب (خشى).

(٣) الزّمر: ١٦.

(٤) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٢٢٥، باب (خوف).

(٥) فاطر: ٢٨.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٠٩.

أَنْواعُ الْخَوْفِ:

ورد في كتاب الخصال للشّيخ الصّدوق رَحِمَهُ الله أنّ: «أنواع الخوف خمسة: خوف، وخشية، ووجل، ورهبة، وهيبة. فالخوف للعاصين، والخشية للعالمين، والوجل للمخبتين، والرَّهبة للعابدين، والهيبة للعارفين.

أما الخوف فلأجل الذّنوب، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾[1].

والخشية لأجل رؤية التّقصير، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

وأما الوجل فلأجل ترك الخدمة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3].

والرَّهبة لرؤية التّقصير، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[4].

والهيبة لأجل شهادة الحقّ عند كشف الأسرار - أسرار العارفين - قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[5] يشير إلى هذا المعنى»[6].

(١) الرّحمن: ٤٦.
(٢) فاطر: ٢٨.
(٣) الأنفال: ٢.
(٤) الأنبياء: ٩٠.
(٥) آل عمران: ٢٨.
(٦) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٢٨١/١-٢٨٢.

حَقيقَةُ الرَّجاءِ:

إنّ ما يواجه الإنسان من مكروهات، أو محبوبات إليه، ينقسم حسب الزّمان على ثلاثة أقسام: إما موجود ماضٍ، وهذا يسمّى ذكراً وتذكّراً؛ أو موجود الآن، وهذا يسمّى وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإنما سمّي وجداً؛ لأنَّها حالة يجدها الإنسان في نفسه؛ أو شيء ينتظر وقوعه في المستقبل، ويسمّى ذلك انتظاراً وتوقّعاً؛ فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألمٌ في القلب، ويسمّى خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره، وتعلّق القلب به، وإخطار وجوده بالبال لذّة في القلب، وارتياح يسمّى ذلك الارتياح رجاءً.

فالرّجاء إذن هو ارتياح القلب لانتظار المحبوب عنده، ولكنَّ ذلك المحبوب المتوقّع لا بدَّ وأن يكون له سببٌ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرَّجاء عليه صادق، وإن كان انتظاره مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرَّجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التّمنّي أصدق على انتظاره[1].

التَّلازُمُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجاءِ:

من أجل استقامة شخصيّة المؤمن وتوازنها لا بدّ أن يتوازن فيها الخوف والرّجاء، وأن يتلازما، وأن لا يشغل القلب أحدهما دون الآخر، نعم قد ينشغل القلب بأحدهما دون الآخر في حال غفلةٍ وارتباك.

ومن شروط الرّجاء والخوف تعلّقهما بما هو مشكوكٌ فيه؛ لأنَّ المعلوم من

---

(١) المحجّة البيضاء: ٢٤٩/٧، بتصرّفٍ قليل.

الأشياء لا يُرجى ولا يُخاف، والمحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه - وهذا في غير واجب الوجود المطلق عزَّ وجلّ - فإنّه مرجو ومخاف منه، وهو معلوم الوجود، بل متيقن، ولكن لا يجوز انتفاؤه[١].

وقد أكد القرآن على التّلازم بين الخوف والرّجاء في عدّة آيات، يقول تعالى في وصف عباده المخلصين: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٢].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[٣].

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٤].

ففي جميع هذه الآيات نرى عباد الرّحمن يعيشون حالة الرّجاء في الوقت الذي يعيشون حالة الخوف، وقد أمر الله نبيّه بصيغة الأمر أن يكون ديدنه معه تعالى كذلك، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[٥].

كما أكّدت الرّوايات الكثيرة على هذا التّلازم بينهما:

عن الحارث بن المغيرة أو أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قلتُ له: ما كان في وصيّة لقمان؟ قال: **كانَ فيها الأَعاجيبُ، وَكانَ أَعْجَبَ ما كانَ فيها**

(١) ينظر: المحجّة البيضاء: ٧/٢٧٩.

(٢) الأنبياء: ٩٠.

(٣) الأعراف: ٢٠٥.

(٤) السّجدة: ١٦.

(٥) الأعراف: ٢٠٥.

أنْ قالَ لابْنِهِ: خَفِ اللهَ - عَزَّ وجَلَّ - خيفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ لَعَذَّبَكَ، وارْجُ اللهَ رَجاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُنوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ.

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: **كانَ أَبي يَقولُ: إنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلا وَفي قَلْبِهِ نورانِ: نورُ خيفَةٍ، ونورُ رَجاءٍ، لَوْ وُزِنَ هذا لَمْ يَزِدْ عَلى هذا، وَلَوْ وُزِنَ هذا لَمْ يَزِدْ عَلى هذا»**[(١)].

وفي مصباح الشّريعة، قال الصّادق عليه السلام: «**الْخَوْفُ رَقيبُ الْقَلْبِ، وَالرَّجاءُ شَفيعُ النَّفْسِ، وَمَنْ كانَ بِاللهِ عارِفاً، كانَ مِنَ اللهِ خائِفاً، وَإلَيْهِ راجِياً، وَهُما جَناحا الإيمانِ، يَطيرُ بِهِما الْعَبْدُ الْمُحَقِّقُ إلى رِضْوانِ اللهِ؛ وَعَيْنا عَقْلِهِ، يُبْصِرُ بِهِما إلى وَعْدِ اللهِ، وَوَعيدِهِ، وَالْخَوْفُ طالِعُ عَدْلِ اللهِ، بِاتّقاءِ وَعيدِهِ، وَالرَّجاءُ داعي فَضْلِ اللهِ، وَهُوَ يُحْيي الْقَلْبَ، وَالْخَوْفُ يُميتُ النَّفْسَ**»[(٢)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَوْفَيْنِ: خَوْفِ ما مَضى، وَخَوْفِ ما بَقِيَ، وَبِمَوْتِ النَّفْسِ يَكونُ حَياةُ الْقَلْبِ، وَبِحَياةِ الْقَلْبِ الْبُلوغُ إلى الاسْتِقامَةِ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ تَعالى عَلى ميزانِ الْخَوْفِ وَالرَّجاءِ لا يَضِلُّ، وَيَصِلُ إلى مَأْمولِهِ...**»[(٣)].

في هذه الرّوايات كلّها نرى أنّ الاقترانَ بين الخوف والرّجاء لازمٌ من لوازم مسيرة الإنسان إلى الله، وإعداده لتحمّل أعباء هذه المسيرة، ومن دون هذا

---

(١) الكافي: ٣/١٧٣-١٧٤، ح/١٥٩٩.

(٢) مصباح الشّريعة: ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٠-١٨١.

التّلازم تختلّ شخصيّته.

لِماذا التَّلازُمُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجاءِ؟

(إنَّ كلاً من الرَّجاء والخوف لو أخذا منفصلين أحدهما عن الآخر لأثَّر هذا على سلوك الإنسان المسلم تأثيراً سلبيّاً - كما يبدو ذلك من هذا النّص: [«**ارْجُ اللهَ رَجاءً لا يُجَرِّئُكَ عَلى مَعْصِيَتِهِ، وَخِفْ اللهَ خَوْفاً لا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ**»[1]] وغيره -؛ لأنَّ الرجاء بلا خوف يجرّئ على المعصية، والخوف بلا رجاء ييئس من رحمة الله تعالى، وسلوك اليائسين سلوكٌ منحرفٌ، والإنسان يعمل لآماله العريضة، ورجاؤه بالله تعالى أن يثيبه ويؤجره وينجيه من عذاب أليم)[2].

إنَّ الشّخصيّة الإسلاميّة ترتكز على دعائم ثلاث هي: الفكر، والعواطف، والسّلوك؛ وليس بين هذه الركائز الثّلاثة انفصالٌ، وإنّما هي أجزاء يكمل بعضها البعض الآخر؛ لِتُكَوّن كياناً واحداً، وإذا ما فقدت إحداهما اختلّ الكيان كلّه.

فالأفكار تخلق ألواناً من الإحساسات، والانفعالات بعظمة الخالق، وجلاله وجماله؛ والعواطف تفجّر الحركة، والفعاليّة في نفس الإنسان، وتعطي قوّة دفع، وحركة فكريّة عموديّة تترفّع بالإنسان إلى الذّوبان في حبّ الله تعالى والفناء فيه؛ ومن ثمّ هذه الحركة العموديّة التي تشدّ الإنسان إلى الله، تحرّكه لتغيير الواقع نحو رسالة الله بحركة أفقيّة يمتدّ بها إلى المجتمع، فتؤثّر فيه وتغيّره، وحينئذٍ

---

(١) وسائل الشّيعة: ١١/١٧٠-١٧١.

(٢) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الرّوحي: ١٧٠.

تتحوّل الأفكار والعواطف إلى سلوك متوازن تتجسّد من خلاله الشّخصية الإلهيّة...

إذن الإسلام ليس فكرةً عقليّةً مجرّدةً معزولةً عن واقع الحياة الاجتماعيّة، كما أنَّه ليس عواطف منخفضة ساذجة، فارغة عن الأفكار والمفاهيم حول الكون والحياة؛ لذلك نجد أنَّ الإسلام في تربيته العظيمة يفجّر العواطف الإنسانية النّبيلة على أساس فكري؛ ليوجد فيها تيّاراً مغيّراً في الحياة من الواقع الفاسد إلى الواقع السليم.

فالعواطف في كثير من الأحيان تكون انعكاساً للمفاهيم، ومن هنا ربط الإسلام بين المعرفة والإيمان؛ لينتج خشوعاً وضراعة «**مَنْ عَرَفَ اللهَ خَافَ اللهَ، وَمَنْ خافَ اللهَ سَخَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيا**»[1]؛ لذا جاء في مناجاة سيّد السّاجدين عليه السلام: «**سُبْحانَكَ، أَخْشى خَلْقِكَ لَكَ أَعْلَمُهُمْ بِكَ**»[2].

وإنما أمر الإسلامُ بالتّلازم والموازنة بين الخوف والرّجاء؛ لئلا يسيطر عليه الخوف، فيوقعه في القنوط واليأس؛ ولئلا يسيطر عليه الرّجاء فيوقعه بالإعجاب والغفلة والغرور، إذن التّلازم بين الخوف والرّجاء يحمي الإنسان من مرضين خطيرين، وهما: الإعجاب بنفسه وبأعماله وعقيدته، ويحميه كذلك من اليأس والقنوط حين يرتكس بالذّنوب؛ فحالة الخوف المتوازن تجعل الإنسان حذِراً يقِظاً من الوقوع في مخالفات الشّرع المقدّس من خلال إحساسه بالرّقابة الإلهيّة عليه، وحالة الرّجاء تخلق في نفسه أملاً كبيراً من خلال رجائه لرحمة الله الّتي

(١) الكافي: ١٧٦/٣، ح/١٦٠٢.

(٢) الصّحيفة السّجادية الكاملة: ٢٢١، دعاؤه في الإلحاح، دعاء: ٥٢.

وسعت كلّ شيء؛ فالخوف إذن ناتجٌ عن إدراك هيمنة الذّات المقدّسة، والإحساس برقابتها، وتوقّع لبطشها وعذابها؛ وحالة الرّجاء جاءت عن إدراك لرأفة الله، وحلمه، ورحمته، وغفرانه... وبذلك يعيش الإنسان متوازن السّلوك من خلال المزج بين الأفكار والعواطف.

إنَّ الشّخصيّة الإسلاميّةُ كما ارتكزت على أرضيّة فكريّة كذلك اعتمدت على العواطف السّامية، ومن هنا كانت الأفكار هي الينبوع الأساسي لأعمق العواطف الإنسانيّة التي تستمدّ جذورها من مفاهيم الإسلام، وأما العواطف السّاذجة المنخفضة، والقائمة على أساس الإحساس والمشاعر السّطحية فلا قيمة لها.

ويمكن أن نرسم معادلة لتأثير الخوف في تحقيق التّقوى على الشّكل الآتي:

خوف متوازن من الله ← قمع للشّهوات ← ترك للذّنوب واللّذّات ← قلع حبّ الدّنيا من القلب ← المواظبة على الذّكر والفكر ← المعرفة ← المحبّة لله والأنس به ← الورع والتقوى.

إنَّ الّذي أراده الإسلامُ للإنسان هو الخوف المعتدل، وهو تلك الحالة النّفسيّة الملازمة للعلم والقدرة، العلم بالله وأسمائه وصفاته وشرعته، والمعرفة بعيوب النّفس وأهوائها، وأخطار الاستجابة لها، والقدرة على التّحكّم برغائب النّفس، ودفع المحذور الّذي يخشى الوقوع فيه، وهذا الخوف هو الّذي يثمر الورع، والحذر، والتّقوى بالمجاهدة، والعبادة، والفكر...

وأما الحبّ الّذي يورث الإخلاص فهو تفريغ القلب من غير الله؛ لأنَّ القلب لا يسع أكثر من حبّ واحد أبداً، يقول تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي

جَوۡفِهِۦۚ ﴾[1]؛ فلا يمكن أن يجتمع حبّان حبّ الله وحبّ الدّنيا في قلب واحد؛ ولذا كان الولاء والحبّ محوري التّوحيد في التّصور الإسلامي، وأساسين من أسس العلاقات الاجتماعيّة الأصيلة التي تبتني عليها تلك العلاقات، يقول تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ** ﴾[2].

إنَّ حبّ الله هو مقياس الإيمان، ولا يجد الإنسان لذّة الإيمان بدونه، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا يَمْحُضُ رَجُلٌ الإيمانَ بالله حَتّى يَكونَ اللهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَبيهِ، وَأُمِّهِ، وَوَلَدِهِ، وَأَهْلِهِ، وَمالِهِ، وَمِنَ النّاسِ كُلِّهم**»[3]؛ من هنا فإنَّ حبّ الله ينقّي القلب، ويُخليه من غير الله، وإذا أحبَّ الإنسان شيئاً آخر لله فهذا الحبُّ امتدادٌ لحبّ الله، أو في الله، حتّى حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته، قال صلى الله عليه وآله: «**أَحِبّوني لِحُبِّ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَأَحِبّوا أَهْلَ بَيْتي لِحُبّي**»[4].

إذن حبُّ الله هو تطهيرٌ للقلب عن كلّ العلائق الأخرى من قريب، أو بعيد؛ هذا الحبُّ يجعل القلب صافياً خالياً لله فقط؛ ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حُبُّ الله نارٌ لا يَمُرُّ عَلى شَيْءٍ إِلا احْتَرَقَ**»[5]، وحرق الشّيء إفناؤه ونفيه من الوجود، وهكذا يطرد حبّ الله من القلب كلّ شيء، وهذه هي غاية

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) التّوبة: ٢٣.

(٣) السّيد ابن طاووس، فلاح السّائل: ١٠١، وبحار الأنوار: ٢٥/٧٠.

(٤) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٤٤٦، ح/٥٩٧، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٢٥٣/٢، ح/٧٩٣.

(٥) مصباح الشّريعة: ١٩٢-١٩٣، وبحار الأنوار: ٢٣/٧٠.

آمال العارفين ومنتهى أمنياتهم؛ وردت في الصحيفة السّجادية من دعاء الإمام السّجاد عليه السلام: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَفَرِّغْ قَلْبِي لِمَحَبَّتِكَ، وَاشْغَلْهُ بِذِكْرِكَ... وَامْنُنْ عَلَيَّ بِشَوْقٍ إِلَيْكَ**»[1]، كما ورد في دعاء آخر: «**اللَّهُمَّ... ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ كُلِّ مَنْ أَحَبَّكَ، وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلى حُبِّكَ**»[2].

كَيْفَ نُرَسِّخُ حُبَّ اللّٰهِ في قُلوبِنا ؟

كلّ مؤمن بالله تتوق نفسه إلى أن يزداد لله تعالى حباً، ويتمنّى أن يصل إلى حدّ الشّوق والوله، ولكن كيف السّبيل إلى ذلك؟ وهناك عقبات كثيرة تقف حاجزاً بينه وبين تحقيق أمله... من هذه العقبات حبّ الدنيا، والتّعلّق بزخارفها وطغيان الهوى في النّفس، وتأثير الذّنوب على صفحات القلب؛ ولذلك لا بدّ لمن يسعى لنيل حبّ الله من معاناة، ورياضة نفسيّة، ومجاهدات مختلفة.

هذا على النّحو الخاص؛ وأمّا على النّحو العام فقد أشارت الرّوايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام أنّ حُبَّ الله يتحقّق في نفس المؤمن إذا تحقّقت له عدة أمور؛ منها:

أولاً: المعرفة: ولمعرفة الإنسان لله فرعان: فرعٌ أصلي ذاتي منحه الله له، وهو المعرفة الفطريّة التي زوّد الله بها البشر منذ أخذ ميثاقه عليهم، وأشهدهم على أنفسهم، ولكنَّ هذه المعرفة قد تنطمس تحت ركام الذّنوب والمعاصي التي تتلبّد على صفحات القلب؛ فتجعلها مظلمةً سوداء لا تقبل النّور، ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ

(١) الصّحيفة السّجادية الكاملة: ٩١-٩٢، دعاؤه إذا أحزنه أمرٌ، دعاء: ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ١٨٢/٨٦.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١].

وأما الفرع الآخر فهو الاكتساب الذي يحصل للإنسان بالجدّ، والجهد، والمواصلة في تطهير النّفس من أدران الذّنوب، وذمائم الأخلاق.

إنّ المعرفة شرط أساسي من شروط الحبّ، ولا يمكن أن يحصل بدونها؛ فإنّ من لا يعرف الشّيء لا يمكن أن يحبّه... ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: **«نَجْوى الْعارِفينَ تَدورُ عَلى ثَلاثَةِ أُصولٍ: الْخَوْفِ، وَالرَّجاءِ، وَالْحُبِّ؛ فَالْخَوْفُ فَرْعُ الْعِلْمِ، وَالرَّجاءُ فَرْعُ الْيَقينِ، وَالْحُبُّ فَرْعُ الْمَعْرِفَةِ...»**، إلى أن قال: **«وَإِذا تَجَلّى ضِياءُ الْمَعْرِفَةِ في الْفُؤادِ هاجَ ريحُ الْمَحَبَّةِ، وَإِذا هاجَ ريحُ الْمَحَبَّةِ اسْتَأْنَسَ في ظِلالِ الْمَحْبوبِ، وَآثَرَ الْمَحْبوبَ عَلى ما سِواهُ، وَباشَرَ أَوامِرَهُ، وَاجْتَنَبَ نَواهيهُ، وَاخْتارَهُما عَلى كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِما...»**[٢].

ومن هنا تبيّن لنا أنّ الحُبَّ يتناسب تناسباً طرديّاً مع المعرفة، فكلّما ازدادت المعرفة ازداد الحبُّ واشتدّ، يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: **«فَوَعِزَّتِكَ يا سَيِّدي لَوْ انْتَهَرْتَني ما بَرِحْتُ مِن بابِكَ، وَلا كَفَفْتُ عَنْ تَمَلُّقِكَ، لِما انْتَهى إِلَيَّ يا سَيِّدي مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِجودِكَ وَكَرَمِكَ»**[٣].

ثانياً: ومما يرسّخ الحبّ في القلب ذكر نعم الله التي أسبغها علينا ظاهرة وباطنة؛ فإنّ الإنسان بفطرته جُبِلَ على حبّ من أحسن إليه، وأنعم عليه، فإذا ذكر نعم الله عليه، وتذكّرها دائماً فإنّ هذا يزيده انشداداً إليه وحبّاً له.

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) مصباح الشريعة: ١١٩-١٢٠.

(٣) بحار الأنوار: ٨٥/٩٨.

ولهذا نجد الروايات الشريفة تؤكّد على ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَحِبّوا اللهَ لِما يَغْذوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ»[١].

وعن الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «أَوْحى اللهُ عَزَّ وَجلَّ إلى نَجيِّهِ موسى عليه السلام: يا موسى، أَحْبِبْني وَحَبِّبْني إلى خَلْقي، قالَ: يا رَبّ، إنّي أُحِبُّكَ فكَيْفَ أُحَبِّبُكَ إلى خَلْقِكَ؟ قالَ: اذْكُرْ لَهُمْ نَعْمائي عَلَيْهِمْ، وبَلائي عِنْدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ لا يَذْكُرونَ إذْ لا يَعْرِفونَ مِنّي إلا كُلَّ خَيْرٍ»[٢].

وفي روية أخرى عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِداوُدَ عليه السلام: أَحْبِبْني وَحَبِّبْني إلى خَلْقي، قالَ: يا رَبّ، نَعَم أَنا أُحِبُّكَ فَكَيْفَ أُحَبِّبُكَ إلى خَلْقِكَ؟ قالَ: اذْكُرْ أَيادِيَّ عِنْدَهُمْ، فَإِنَّكَ إذا ذَكَرْتَ ذلِكَ لَهُمْ أَحَبّوني»[٣].

ما هِيَ النِّعَمُ الّتي يَذْكُرُها الإِنْسانُ؟

يختلف تذكّر النّعم حسب معرفة الإنسان، ومستوى إدراكه، وعمق فكره؛ فمنهم من يحسب النّعمة في حدود اللّذائذ الماديّة من المطاعم، والمشارب، والمراكب، والمناكح، ومنهم من يعدّ النّعمة نعومة الرّياش، ويسر المعاش، وسعة الدّار، وما إلى ذلك... وهذا النّوع هو ممّن قصر علمه، وضعف فكره، فلم يعد يفكر إلا بلذائذ الجسد؛ ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَضْلَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ إلا في مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ، فَقَدْ قَصُرَ عَلْمُهُ، وَدَنا عَذابُهُ»[٤].

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٤٤٦، ح/٥٩٧، وترتيب الأمالي: ٢/٢٥٣، ح/٧٩٣.

(٢) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧١٤، وترتيب الأمالي: ٢/١٠٠-١٠١، ح/٦٤٩.

(٣) بحار الأنوار: ٧٠/٢٢.

(٤) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧٢٤، وترتيب الأمالي: ٦/٤٥٦، ح/٣٢٢١.

وأمّا من أفاض الله عليه من نور المعرفة، وسعة العلم فإنّه ينظر إلى ما وراء ذلك كنعمة الوجود، والفكر، والشّعور، والهداية، والإيمان، والولاية لأولياء الله، والبراءة من أعدائه، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يحاول أن يُرَكّزَه في نفوس أصحابه، فقد ورد أنّه ﷺ قال لأصحابه: «**إنّي لأتَخَوَّلَكُم بِالْمَوْعِظَةِ تَخَوُّلاً مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْكُمْ، وَقَدْ أَوْحى إِلَيَّ رَبّي جَلَّ وَتَعالى أَنْ أُذَكّرَكُمْ بِالنّعْمَةِ، وَأُنْذِرُكُمْ بما اقْتَصَّ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتابِهِ**»، وتلا: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾[1] - الآية. ثمّ قال لهم: «**قولوا الآنَ قَوْلَكُمْ ما أَوّلُ نِعْمَةٍ رَغّبَكُمْ اللهُ [فيها] وَبَلاكُم بِها؟**».

فَخاضَ القومُ جميعاً، فذكروا نعم الله التي أنعم عليهم، وأحسن إليهم بها من المعاش، والرّياش، والذّرية، والأزواج إلى سائر ما بلاهم الله عزَّ وجلَّ به من أنعمه الظّاهرة، فلمّا أمسك القوم أقبل رسول الله ﷺ على عليّ عليه السلام، فقال: «**يا أبا الْحَسَنِ، قُلْ فَقَدْ قالَ أَصْحابُكَ**»، فقال: «**وَكَيْفَ لي بِالْقَوْلِ فِداكَ أَبي وَأُمّي، وَإِنَّما هَدانا اللهُ بِكَ**»، قال: «**وَمَعَ ذلِكَ فَهاتِ قُلْ ما أَوَّلُ نِعْمَةٍ بَلاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ بِها؟**».

قال: «**أَنْ خَلَقَني جَلَّ ثَناؤُهُ، وَلَمْ أَكُ شَيْئاً مَذْكوراً**»، قال: «**صَدَقْتَ فَما الثّانِيَةُ؟**».

قال: «**أَنْ أَحسَنَ بي إِذْ خَلَقَني، فَجَعَلَني حَيّاً لا مَواتاً**»، قال: «**صَدَقْتَ فَما الثّالِثَةُ؟**».

---

(١) لقمان: ٢٠.

قال: «أَنْ أَنْشَأَني - فَلَهُ الْحَمْدُ - في أَحْسَنِ صورةٍ، وأَعْدَلِ تَرْكيبٍ»، قال: «صَدَقْتَ فَما الرّابعَةُ؟».

قال: «أَنْ جَعَلَني مُتَفَكّراً واعِياً لا بُلْهاً ساهِياً»، قال: «صَدَقْتَ فَما الْخامِسَةُ؟».

قال: «أَنْ جَعَلَ لِيَ شواعِرَ أُدْرِكُ ما ابْتَغَيْتَ بِها، وَجَعَلَ لي سِراجاً مُنيراً»، قال: «صَدَقْتَ فَما السّادِسَةُ؟».

قال: «أَنْ هَداني لِدينِهِ، وَلَمْ يُضِلّني عَنْ سَبيلِهِ»، قال: «صَدَقْتَ فَما السّابعَةُ؟».

قال: «أَنْ جَعَلَ لي مَرَدّاً في حَياةٍ لا انْقِطاعَ لَها»، قال: «صَدَقْتَ فَما الثّامِنَةُ؟».

قال: «أَنْ جَعَلَني مَلِكاً مالِكاً لا مَمْلوكاً»، قال: «صَدَقْتَ فَما التّاسِعَةُ؟».

قال: «أَنْ سَخَّرَ لي سَماءَهُ، وَأَرْضَهُ، وَما فيهِما، وَما بَيْنَهُما مِنْ خَلْقِهِ»، قال: «صَدَقْتَ فَما الْعاشِرَةُ؟».

قال: «أَنْ جَعَلَنا سُبْحانَهُ ذُكْراناً قُوّاماً على حَلائِلِنا لا أُناثاً»، قال: «صَدَقْتَ، فَما بَعْدَ هذا؟».

قال: «كَثُرَتْ نِعَمُ اللهِ يا نَبِيَّ اللهِ وَطابَتْ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1]».

فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: «لِتَهْنِئْكَ الْحِكْمَةُ، لِيَهْنِئْكَ الْعِلْمُ يا أَبا

(١) النّحل: ١٨.

الْحَسَنِ، أَنْتَ وارِثُ عِلْمي، وَالْمُبيِّنُ لأُمَّتي ما اخْتَلَفَتْ فيهِ مِنْ بَعْدي»(١).

تَعْميقُ الرَّغْبَةِ فيما عِنْدَ اللهِ:

الرَّغْبَةُ في الشّيءِ الحرصُ عليه، والطّمع فيه، وإرادته بشدّة، والسّعي في تحصيله، وطلبُ كثيرٍ منه؛ ولا يوجد شيء في الدّنيا يستحقّ أن يرغب فيه الإنسان عن الله تعالى؛ لأنَّ كل شيء هو من الله، وإلى الله فليرغب المؤمن فيما عند الله، وليعمّق ذلك في نفسه؛ فإنَّ هذا مما يرسّخ الحبَّ في قلب الإنسان، وعلى هذا دلّت رواية إبراهيم بن داود اليعقوبي، عن أخيه سليمان بن داود، بإسناده رفعه، قال: «قال رجلٌ للنّبي ﷺ: يا رسول الله، علّمني شيئاً إذا أنا فعلته أحبّني اللهُ من السماء، وأحبّني النّاسُ من الأرض، فقال له: **ارْغَبْ فيما عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فيما عِنْدَ النّاسِ يُحِبُّكَ النّاسُ»**(٢).

إنّ خلق الرّغبة في النّفس لما عند الله تعالى مطلب العارفين بالله تعالى؛ ولذا نجد الإمام زين العابدين عليه السلام يتوسّل إلى الله تعالى أن يزيده رغبة إليه تعالى، يناجي ربّه فيقول: «**يا مَنْ يُرْغَبُ إِلَيْهِ وَلا يُرْغَبُ عَنْهُ... فَقَصَدْتُكَ يا إلهي بِالرَّغْبَةِ، وَأَوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجائي بِالثِّقَةِ بِكَ...**»(٣)، «**وَاجْعَلْ فِراري إِلَيْكَ، وَرَغْبَتي فيما عِنْدَكَ**»(٤)، «**وَاجْعَلْ رَغْبَتي إِلَيْكَ فَوْقَ رَغْبَةِ**

(١) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧٢٦-٧٢٧، وترتيب الأمالي: ٣٦٢/٦-٣٦٣، ح/٣٠٤٩.

(٢) كتاب الخصال: ٦١/١.

(٣) الصّحيفة السّجاديّة الكاملة: ٥٧-٥٨، دعاؤه في طلب الحوائج، دعاء: ١٣.

(٤) المصدر نفسه: ٩١، دعاؤه إذا أحزنه أمر، دعاء: ٢١.

الرّاغِبينَ...»[١].

إنّ ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الرغبة في أيّ شيء تجعل الإنسان يلتذّ بالسّعي لتحقيقه، ويَتحَمّل الصّعاب لنيله، وما عند الله لا ينال إلا بالصّبر، والتّحمل الشّديد والمصابرة؛ ولذا عندما تُخلق الرّغبةُ في النّفس يستسهل السّائرُ في طريق الله تعالى أعنفَ الصّعابِ وأشدَّها، بل يجد فيها لذّة لا يجدها أشدّ النّاس طلباً للدّنيا فيما ينال ويحقّق من متاعها، إنَّ الرَّغبة فيما عند الله مما تقوّي القلب بالسّكينة والطمأنينة بذكره، وفي الوقت نفسه تذلّل توقان شهوات النّفس؛ ولذا ورد في دعاء الإمام السّجاد عليه السلام: «**اللَّهُمَّ صَلّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَفَرِّغْ قَلْبي لِمَحَبَّتِكَ...**» إلى أن يقول: «**وَقَوِّهِ بِالرَّغْبَةِ إلَيْكَ... وَذَلِّلْهُ بالرَّغْبَةِ فيما عِنْدَكَ أيّامَ حَياتي كُلّها**»[٢].

إذن الرّغبة فيما عند الله مما تشدّ الإنسان إلى الله تعالى، وتزيد حبّه شيئاً فشيئاً حتى يترسّخ في النّفس، ويصبح ملكة فيها، وعند ذلك لا يميل الإنسان إلى غير الله تعالى، وبذلك تتحقّق التّقوى، ويكون المؤمن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٣].

لا يُشْكَل فيقال: إنّ الرَّغبةَ وليدةُ الحبّ، لا شكّ في ذلك، ولكنّ المقصود هو محاولة تعميق الرّغبة فيما يحبّه الله ويريده؛ ليكسب الإنسان حبَّ الله تعالى، فإذا أحبَّ الله عبداً قذف حبَّه في قلبه؛ لأنّ علاقة الحبّ بين العبد وربّه علاقة

(١) الصّحيفة السّجاديّة الكاملة: ١٩٨، دعاؤه لعرفة، دعاء: ٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ٩١، دعاؤه إذا أحزنه أمرٌ، دعاء: ٢١.

(٣) البقرة: ١٦٥.

متبادلة، وفق معادلة دقيقة وردت في نصوص أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام؛ فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ أَرادَ مِنْكُمْ أَنْ يَعْلَمَ كَيْفَ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الله فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ الله مِنْهُ عِنْدَ الذُّنوبِ، كَذلِكَ تَكونُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الله تَبارَكَ وَتَعالى**»(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ ما لَهُ عِنْدَ الله فَلْيَعْلَمْ ما لله عِنْدَهُ**»(٢).

هذه بعض العوامل التي ترسّخ الحبّ في قلب المؤمن، وهناك عوامل أخرى ذكرتها الرّوايات، وأحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام؛ منها: التّحبب إلى الله بأداء النّوافل، ففي حديث حنان بن سدير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: قالَ اللهُ: ما تَحَبَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِالنّافِلَةِ حَتّى أُحِبَّهُ، فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّذي يُبْصِرُ بِهِ، وَلِسانَهُ الّذي يَنْطُقُ بِهِ، وَيَدَهُ الّتي يَبْطُشُ بِها، وَرِجْلَهُ الّتي يَمْشي بِها، إِذا دَعاني أَجَبْتُهُ، وَإِذا سَأَلَني أَعْطَيْتُهُ**»(٣).

ومنها سماع المواعظ؛ فإنّها تحيي القلوب، وتنفض عنها غبار الذّنوب، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ**»(٤).

---

(١) كتاب الخصال: ٦١٧/٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٢٣٧.

(٣) البرقي، المحاسن: ٤٥٤/١، ح/١٠٤٧.

(٤) نهج البلاغة: ٤١٨، كتاب: ٣١.

ويقول عليه السلام: «أَيُّها النّاسُ، اسْتَصْبِحوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْباحِ واعِظٍ مُـتَّعِظٍ، وامْتاحوا[١] مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ[٢] مِنَ الْكَدَرِ»[٣].

قالوا في التَّقْوى:

١- النّبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكـونَ أَكْـرَمَ النّـاسِ فَلْيَتَّـقِ اللهَ عَـزَّ وَجَلَّ»[٤].

وفي وصيّته صلى الله عليه وآله لأبي ذر، قال: «أُوصيكَ بِتَقْوى اللهِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ»[٥].

٢- أمير المؤمنين عليه السلام: «التَّقْوى تَرْكُ الإِصْرارِ عَلى الْمَعْصِيَةِ، وَتَـرْكُ الاغْتِرارِ بِالطّاعَةِ»[٦].

«فَإِنَّ تَقْوى اللهِ مِفْتاحُ سَدادٍ، وَذَخيرَةُ مَعادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُـلِّ مَلَكَـةٍ[٧]، وَنَجاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بِها يَنْجَحُ الطّالِبُ، وَيَنْجو الْهارِبُ، وَتُنالُ الرَّغائِبُ»[٨].
الرَّغائِبُ»[٨].

«فَإِنَّ التَّقْوى في الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفي غَدٍ الطَّريـقُ إِلـى الْجَنَّـةِ،

(١) الامتياح: نزول البئر، وملء الدّلاء منها.

(٢) روّقت: صفيت.

(٣) نهج البلاغة: ١٨٠، خطبة: ١٠٤.

(٤) معاني الأخبار: ١٩٦.

(٥) المصدر نفسه: ٣٣٤.

(٦) التّفسير الكبير: ٢/٢١.

(٧) من كلّ ملكة: أي كلّ ذنب موبق يملك الشّيطان فاعله.

(٨) نهج البلاغة: ٣٧٨، خطبة: ٢٢٩.

مَسْلَكُها واضِحٌ، وَسالِكُها رابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُها حافِظٌ»(١).

«**اعْلَموا عِبادَ الله، أَنَّ التَّقْوى دارُ حِصْنٍ عَزيزٍ، وَالْفُجورَ دارُ حِصْنٍ ذَليلٍ**»(٢).

٣- صدر المتألّهين قُدِّسَ سِرُّهُ: «اعلم أنَّ التقوى كنزٌ عزيزٌ، فلئن ظفرتَ به فكم تجد فيه من جوهرٍ شريفٍ، وعلقٍ نفيسٍ، وخيرٍ كثيرٍ، ورزقٍ كريمٍ، وفوزٍ كبيرٍ، وغنمٍ جسيمٍ، وملكٍ عظيمٍ»(٣).

٤- السيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر قُدِّسَ سِرُّهُ: «إنّ التّقوى هي ميزان الكرامة والتّفاضل بين أفراد الإنسان»(٤).

٥- العلامة الطّباطبائي قُدِّسَ سِرُّهُ: «إنّ حقيقة التّقوى، وهي التّحرّز، والتّجنّب عن سخطه تعالى، والتّورّع عن محارمه، أمرٌ معنويٌّ يرجع إلى القلوب وهي النّفوس»(٥).

---

(١) المصدر نفسه: ٣١٢، خطبة: ١٩١.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥٢، خطبة: ١٥٧.

(٣) صدر المتألّهين، تفسير القرآن الكريم: ٢٣٧/١.

(٤) السيّد الشّهيد الصّدر، اقتصادنا: ٣٣٩.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ٣٧٤/١٤.

(الْبَحْثُ الثّاني)

الاسْتِقامَةُ

تَعْرِيفُ الاسْتِقامَةِ:

هي لزوم المنهج المستقيم بمواصلة الحركة فيه، وحفظه من التّحريف وأداء جميع متطلّباته، ولو كلّف ذلك التّضحية بالغالي والنّفيس... وبتعبير آخر: هي الثّبات على العقيدة الإلهيّة، ومواصلة الحركة الجديّة الفاعلة؛ لنشر وتحكيم شرعة الله في الأرض؛ امتثالاً لأمره في تحقيق إرادته تعالى، والصّبر على تجاوز العقبات والعوائق المعترضة لخطّ السّير نحو تحقيق الأهداف الكليّة لرسالة السّماء.

وبتعبيرٍ أدقّ: هي قوّة إيمانيّة، وطاقة رساليّة تنشأ في النّفس، وتترسّخ فيها من خلال المعرفة بالله تعالى، والعلم بأحكامه، والحبّ له، فتمنحها الصّمود الحركي في خطّ الإيمان، والمقاومة العنيفة للتّيّارات المعاكسة، والكدح المتواصل في طريق ذات الشّوكة بلا وهن، ولا ضعف، ولا استكانة، ولا تراجع، رجاء رضاه فقط، والتّقرّب إليه بقلب مطمئن عامر بالإيمان والحيوية، موقن بالنّصر على كلّ حال.

وبعد فهي كرامة إلهيّة يمنحها الله لخُلَّص عباده الصّابرين في البأساء والضّراء وحين البأس كما جاء في دعاء صاحب الزّمان قوله ﷺ: «**وَأَكْرِمْنا بِالْهُدى وَالاسْتِقامَةِ**»[1].

شُروطُ الْمَبْدَأ الصّالِحِ:

إنّ الثّبات والاستقامة مرتبطان بمدى الصلاحيّة الفكرية والعملية للمبدأ، وشموليته لجميع جوانب حياة الإنسان، والإيمان به، والوعي الكلّي له، والعمل وفق مقرّراته الموضوعيّة، والحركة نحو تحقيق أهدافه على المدى البعيد... فقد يكون المبدأ المُتَبَنّى صالحاً، ولكنّ المدّعي لحمله غير مؤمن به إيماناً راسخاً، أو يفهمه فهماً تقليديّاً، ويعتنقه اعتناقاً وراثيّاً، وحينئذٍ سيكون عملُهُ شكلياً أو متزلزلاً؛ لأنّه لم يفهمه فهماً سليماً، وإذا كانت المقدّمة خطأ فستكون النتيجة عكسيةً مخالفةً لمسار ومتبنّيات ذلك المبدأ.

وقد يكون المبدأ غير صالحٍ، أي مخالف لفطرة الإنسان، والعامل له متفانٍ في الدّعوة إليه، والحركة لتحقيق أهدافه.

كِلا الشّكلين من التّبني المذكور لا يمكن أن يؤدّي إلى الاستقامة والثّبات في خطّ المبدأ المتبنّى؛ لافتقاره إلى الشّروط المؤدّية إلى الثّبات والاستقامة.

إذن مقومات الاستقامة هي: صلاحيّة المبدأ، وفهمه فهماً صحيحاً، بل وعيه وعياً عميقاً، والتّفاني من أجله، وتجسيده في الواقع العملي فكراً، وعاطفة،

---

(١) الكفعمي، البلد الأمين: ٤٨٠.

وسلوكاً.

أما صلاحية المبدأ فهو الشّرط الأساس في استقامة الإنسان عليه، وهنا يجدر بنا أن نعرض بشكل إجمالي لشروط المبدأ الصالح الذي يمكن للإنسان الثّبات عليه رغم كلّ الظّروف والصعاب، ويمكن إجمال هذه الشّروط بالنقاط الآتية:

١- أن يكون قابلاً للإثبات العقلي، والاستدلال المنطقي، وبعبارة أخرى: أن لا يكون مخالفاً للعقل السّليم، والمنطق الصحيح، ونقول: العقل السّليم؛ لأنّ هناك ما يشبه العقل وليس بعقل؛ فقد ورد عن الصّادق عليه السلام أنّه سُئِلَ: «ما العقل؟» قال عليه السلام: «**ما عُبِدَ بِهِ الرَّحْمنُ، وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنانُ**»، قالَ: «قلتُ: فالذي كان في معاوية؟» فقال عليه السلام: «**تِلْكَ النَّكْراءُ**[1]**، تِلْكَ الشَّيْطَنَةُ، وَهِيَ شَبيهَةٌ بِالْعَقْلِ، وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ**»[2].

فالعقل السّليم هو: (قوّة إدراك الخير والشرّ والتّمييز بينهما... [و]ملكة وحالة في النّفس تدعو إلى اختيار الخير والنّفع، واجتناب الشّرور والمضارّ)[3].

إنَّ المبدأ الصّالح لا يختلف عن مدركات العقل السّليم أبداً؛ لأنَّ العقل دليل الإنسان إلى الله تعالى، يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**ما بَعَثَ اللهُ أَنْبياءَهُ وَرُسُلَهُ إلى عِبادِهِ إلا لِيَعْقِلوا عَنِ اللهِ، فَأَحْسَنُهُم اسْتِجابَةً أَحْسَنُهُمْ مَعْرِفَةً، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ أَحْسَنُهُمْ عَقْلاً، وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلاً أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً في**

(١) النّكراء: هي الدّهاء والفطنة.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٥/١، ح/٣.

(٣) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٩٩/١.

الدُّنْيا وَالآخِرَةِ»[١].

ودون التّعقل لحقائق الأمور والأشياء لا تحصل الاستقامة أبداً؛ فقد ورد في حديث الإمام الكاظم عليه السلام قوله: «**وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ الله، لَمْ يَعْقِدْ قَلْبَهُ عَلى مَعْرِفَةٍ ثابِتَةٍ يُبْصِرُها، وَيَجِدُ حَقيقَتَها في قَلْبِهِ، وَلا يَكونُ أَحَدٌ كَذلِكَ إِلا مَنْ كانَ قَوْلُهُ لِفِعْلِهِ مُصَدِّقاً، وَسِرُّهُ لِعَلانِيَتِهِ مُوافِقاً؛ لأَنَّ الله - تَبارَكَ اسْمُهُ - لَمْ يَدُلَّ عَلى الْباطِنِ الْخَفِيِّ مِنَ الْعَقْلِ إِلا بِظاهِرٍ مِنْهُ وَناطِقٍ عَنْهُ**»[٢].

إذن كلّ مبدأ مخالف للعقل لا يمكن أن يؤدّي بحامله إلى الثّبات والاستقامة.

٢- أن يعطي تفسيراً واضحاً، وكاملاً للحياة والوجود، يجيب فيه عن المسائل الأساسيّة الكلّية المرتبطة بالوجود الكلّي للإنسان، والكون، والحياة عموماً: مبدأً ومعاداً؛ ولا يكتفي بالتّفسيرات الجزئية النّاقصة على أن يكون هذا التّفسير ثابتاً، وقابلاً للاعتماد والإدامة إلى آخر مطاف حياة الإنسان.

٣- أن تكون له هدفيّةٌ بنّاءة، وسليمة، وواقعيّة تخلق في الإنسان شوقاً للحركة في تحقيق تلك الأهداف.

٤- أن يكون له قدرةٌ على إيجاد القدسيّة في نفوس معتنقيه.

٥- أن يكون قادراً على خلق الشّعور بالمسؤوليّة في أعماق حامليه.

٦- أن لا يكون متعارضاً مع الغرائز والدوافع الطبيعيّة في الإنسان، كما هي في الرهبانيّة المسيحيّة، المتعارضة تعارضاً كلّياً مع الغريزة الجنسية في الإنسان،

---

(١) الكافي: ٣٥/١، ح/١٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٩/١، ح/١٢.

هذا مع العلم أنَّ كبت هذه الغريزة أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً؛ لأنَّه مخالفٌ للطبيعة الإنسانيّة، ونتيجة ردّة الفعل على ذلك نجد أنَّ الحضارة الغربية المعاصرة قد أطلقت الزمام لهذه الغريزة دون ضابط أو قيد؛ بل أكثر من هذا ظهر ما يسمّى عندهم بـ(المشاعيّة الجنسيّة)[١]، وأشنع من ذلك كلّه أنّهم أباحوا (الشّذوذ الجنسيّ) بل عدّوه أمراً شرعيّاً وقانونيّاً.

أما المبدأ الواقعيّ للحياة فقد وضع في نظامه الاجتماعيّ ضوابط لهذه الغريزة، حَفَظَ بها الإنسانيّة من السّقوط في مستنقع الرذيلة، والضّياع، والتّمرّد، وأشبع حاجة الإنسان منها بشكل مشروع، حفظ به كرامة الإنسان، وبذلك حفظ به استمرار الجنس البشري طاهراً من الدّعارة، والانحراف الخلقي.

ومثال آخر على مخالفة المبادئ الوضعيّة لغريزة الإنسان: ما وقعت فيه الماركسيّة في محاولة القضاء على الملكيّة الفرديّة، وصهرها في ملكية المجتمع، وعلى عكسها ما وقعت فيه الرأسمالية الغربية؛ ودلالة المخالفة هي:

إنّ أقوى الغرائز عند الإنسان هي غريزة حبّ الذّات كما أثبتت ذلك البحوث النّفسيّة بمختلف مدارسها المعروفة... لهذا أخفقت الماركسيّة بعد أكثر من سبعين سنة من المقاومة برفضها للملكيّة الخاصّة، وتبني الملكية العامة كقاعدة وأساس في البناء الاقتصادي للمجتمع والدّولة، حتى تمرّد عليها أشدّ معتنقيها حماسة إليها؛ لأنَّها تعارضت مع الغرائز الأصلية في الإنسان، وفي الجانب الآخر نجد أنَّ الرأسمالية قد جعلت الملكية الخاصّة قطب الرَّحى في نظامها الاقتصادي دون ضوابط وحدود، وأطلقت العنان لها في حرية الكسب

---

(١) وهي تعدّد العلاقات الجنسيّة للرّجل أو المرأة بلا حدود.

والاستقلال، وشملت هذه الحرّية الجوانب الأخلاقية، والفكرية، والسّياسية، والاجتماعية دون حدود؛ ولهذا جَرَّتْ البشريَّةَ إلى ويلات، ودمارٍ، واستعباد للشّعوب، وتسلّط عليها، وقهر لها، حتى أصبح العالم اليوم على جرف هار.

أما الإسلام فقد أقرّ الملكيّة الخاصّة ضمن شروط معيّنة، نظّم فيها حياة الفرد والمجتمع، وفق مبادئ محدودة، في الوقت الذي جعل للفرد ملكية خاصة يمتلكها بجهده، ولكن ضمن حدود محددة؛ ومن خلال ربط العقيدة بالنّظام، والأصول بالفروع، خلق في نفوس معتنقيه دوافعاً رساليّة جعلت الملكيّة الخاصّة مُسَخَّرَةً للصّالح الاجتماعيّ العامّ.

٧ - أن يحتوي المبدأ على نظام كامل وشامل لجميع جوانب الحياة، وأن يكون مترابطاً مع خطّه العقائدي، مستنداً إليه، ومنطلقاً منه.

هذه مجمل الشّروط التي يجب توفّرها في المبدأ الصّالح للتّبني والعمل وفق مبادئه بثبات واستقامة.

مَعالِمُ الشَّخْصِيَّةِ الرّساليّة:

إنّ الشّخصية المبدئيّة تبتني على الإيمان بالمبدأ، والوعي له، والعمل به، والتّحرّك نحو تحقيق أهدافه، ولا شكّ أنّ هذه العوامل مترابطة ترابطاً جذريّاً لا يمكن أن يفصل بعضها عن البعض الآخر؛ فلا يصحّ الإيمان إذا لم يعتمد على الوعي العميق، والفهم السّليم القائم على الأدلّة العقليّة، والبراهين المنطقيّة، وكلُّ إيمانٍ لا يدعمه العلم والمعرفة الصّحيحة هو إيمانٌ واهٍ يمكن أن يتزلزل، وينهار بسرعة، وكلُّ علمٍ لا يؤدّي إلى عملٍ لقلقةٌ فارغةٌ لا قيمةَ لها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْعِلْمُ مَقرونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، والْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ**

أَجابَهُ وَإِلا ارْتَحَلَ»[١].

إذن الشّخصية المبدئيّة هي شخصيّة: مؤمنة، عالمة، عاملة، متحرّكة نحو تحقيق مُثل ومبادئ مرسومة لها في النّسيج العقائدي لذلك المبدأ؛ من أجل هذا نجد أنّ كلّ مبدأ من المبادئ المعروفة يحدّد لمعتنقيه مميّزات وشروطاً معيّنة، ويعمل لتأصيلها فيهم؛ لأجل استمراريّته، ودوامه، وحيويّته، ويُعيّن لهم محوراً يدورون عليه، ويتحرّكون في مجاله؛ ليحفظهم من الخروج عن النّهج المرسوم، ويكون ذلك بمثابة قطب الرّحى الّذي تدور عليه الحركة الكليّة للمبدأ المتبنّى؛ فعلى سبيل المثال: المسيحية اتّخذت التّثليث قطباً لها يدور عليه جميع المسيحيّين؛ واليهوديّة جعلت من تصوّرها العنصري لشعب الله المختار مداراً يدور عليه اليهود؛ وهكذا الماركسيّة جعلت من (**الدّيالكتيك**) أو التّناقض والصّراع بين الطّبقات قاعدةً لها.

وأما الإسلام فقد ربط الإنسان بخالقه مبدأً ومعاداً منه ينطلق، ولأجله يتحرّك، وإليه يعود، وجعل حياة الإنسان كدحاً متواصلاً إليه عزَّ وجلَّ، يقول تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ** ﴾[٢].

وعندما نستقرئ الواقع لجميع المبادئ في الدّنيا نجدها جميعاً تؤكّد على وجوب استقامة أتباعها وثباتهم في مواجهة العقبات، واتّخذت لتحقيق ذلك شتّى السّبل والوسائل؛ طقوس عبادية، وفرائض إلزامية كما في الأديان السماويّة والأرضيّة، مؤتمرات سنويّة، وجلسات أسبوعيّة كما في الأحزاب، أضف إلى

(١) نهج البلاغة: ٥٤٦، قصار الحكم: ٣٥٦.

(٢) الانشقاق: ٦.

ذلك إحياء الذّكريات التأريخيّة في مسار المبدأ؛ لأجل الاستقامة والثّبات، ومواصلة الحركة، وتحقيق الأهداف المعيّنة.

وفي ضوء هذا نستطيع القول: أن الاستقامة المبدئية هدف قائم بذاته تتحقق من خلاله كل الأهداف الأخرى، وما لم تتحقّق الاستقامة في داعية المبدأ لا يمكن أن يحقّق بقيّة الأهداف، ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(١)].

ولأهميّة وعظمة هذا الأمر قال ابن عباس: «ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله آية كانت أشدّ عليه، ولا أشقّ من هذه الآية؛ ولذلك قال لأصحابه – حين قالوا: أسرع إليك الشّيب يا رسول الله –: **شَيَّبَتْني هود والْواقِعَةُ**»[(٢)].

إنّ الشَّخصية القرآنيّة لها مميّزات، وخصائص، وأبعاد رساليّة ابتنت منها وقامت عليها؛ نذكرها بشكل استطرادي مختصر دون الدّخول في التّفاصيل؛ لأنَّها خارجة عن هذا البحث، وهذه المميّزات مقتبسة من أحاديث أهل البيت عليهم السلام خصوصاً زبور آل محمّد (الصّحيفة السّجاديّة)، وأبرز تلك الخصائص هي:

إنّها **مؤمنةٌ بوعد الله تعالى** إيمان يقين لا ريب فيه؛ وبما أنّ هذه الميزة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء الفوقي للشّخصية نجد أئمّة الهدى عليهم السلام يتوسّلون بالله تعالى أن يُثَبِّتَها فيهم، رغم ثباتها فيهم قولاً، وفعلاً؛ فقد جاء في دعاء أبي حمزة الثّمالي عن الإمام السجّاد عليه السلام: «**اللَّهُمَّ، إنّي أَسْأَلُكَ إِيْماناً لا أَجَلَ لَهُ دونَ لِقائِكَ، أَحْيِني ما أَحْيَيتَني عَلَيْهِ، وَتَوَفَّني إذا تَوَفَّيتَني عَلَيْهِ،**

(١) هود: ١١٢.

(٢) الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣٠٤/٥.

وابْعَثْني إذا بَعَثْتَني عَلَيْهِ... اللَّهُمَّ، إنّي أَسْأَلُكَ إيماناً تُباشِرُ بِهِ قَلْبي، وَيَقيناً حَتّى أَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يُصيبَني إلا ما كَتَبْتَ لي»(١).

كما ورد في أدعية أخرى: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لي ثَباتَ الْيَقينِ، وَمَحْضَ الإخْلاصِ، وَشَرَفَ التَّوْحيدِ، وَدَوامَ الاسْتِقامَةِ، وَمَعْدنَ الصَّبْرِ**»(٢).

راضية بقضاء الله، موقنة بأنَّ هذا القضاء لخيرها، وصلاحها، وتكاملها، قائلة في مواجهة كلّ الصعاب: ﴿**لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا**﴾(٣).

وهذه السّمة من السّمات الأساسيّة في شخصيّة المسلم؛ لأنَّها تملأ القلب طمأنينةً، ورضًى بكلّ ما يلاقي في سبيل الله تعالى؛ فعن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام أنَّه قال: «**الصَّبْرُ وَالرِّضا عَنِ اللهِ رَأْسُ طاعَةِ الله، وَمَنْ صَبَرَ وَرَضِيَ عَنِ اللهِ فيما قَضى عَلَيْهِ فيما أَحَبَّ، أو كَرِهَ، لَمْ يَقْضِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فيما أَحَبَّ، أَوْ كَرِهَ إلا ما هُوَ خَيْرٌ لَهُ**»(٤).

وعن أبي جعفر عليه السلام: «**أَحَقُّ خَلْقِ اللهِ أَنْ يُسَلِّمَ لِما قَضى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ عَرَفَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْقَضاءِ أَتى عَلَيْهِ الْقَضاءُ، وَعَظَّمَ اللهُ أَجْرَهُ، وَمَنْ سَخِطَ الْقَضاءَ مَضى عَلَيْهِ الْقَضاءُ، وَأَحْبَطَ اللهُ أَجْرَهُ**»(٥).

---

(١) السّيّد ابن طاووس، إقبال الأعمال: ١/١٧٣-١٧٥.

(٢) الشّيخ الطّوسي، مصباح المتهجّد: ٢٧٩.

(٣) التّوبة: ٥١.

(٤) الكافي: ٣/١٥٦، ح/١٥٨٠.

(٥) المصدر نفسه: ٣/١٦٢، ح/١٥٨٧.

مُسَلِّمَة لأمر الله تسليماً مطلقاً من دون لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ لا أمر لها مع أمره، وليس لها قدرةٌ على الخروج من سلطانه؛ لأنَّ «**الإِسْلامَ هُوَ التَّسْليمُ، وَالتَّسْليمُ هُوَ الْيَقينُ، وَالْيَقينُ هُوَ التَّصْديقُ، وَالتَّصْديقُ هُوَ الإِقْرارُ، وَالإِقْرارُ هُوَ الأَداءُ، وَالأَداءُ هُوَ الْعَمَلُ**»[1]؛ فالتّسليم إذن معنًى إيجابيٌّ فعّال، وحركةٌ جدّيّةٌ مغيّرةٌ للواقع الفاسد إلى واقع سليم، وليس معنًى انعزاليّاً انهزاميّاً كما فهمه الّذين عرّفوا الدّين بأنّه «أفيون الشّعوب».

مُتَطَلّعة إلى بلوغ درجة إيمانيّة عليا، ونيّة رشيدة، وسلوك طريقة لا زيغ فيها، وزيادة في العمل الصّالح، وإحساس بالتّقصير أمام الله؛ ولهذا تعمل العمل الصّالح، وتبقى وَجِلَةً؛ خَشيةً من عدم قبوله.

طامحة إلى تطهير نفسها من ذمائم الأخلاق، ومن أدران المعاصي، عاملة على تفريغ قلبها من غير حبّ الله تعالى، مائلة إلى طاعته، جارية في سبيله على كلّ حال.

زادُها من الدّنيا تقوى الله، ورغبتُها فيما عنده من النّعم، والخيرات، والرّحمة في دار الخلود؛ وقبل ذلك ساعية لنيل رضاه تعالى، فرضى الله غاية في كلّ عمل تقوم به.

لا تنسى ذكر الله فيما أولاها من النّعم، ولا تغفل عن إحسانه فيما ابتلاها من الفتن، فلا تيأس من إجابته، وإن أبطأ عنها في سرّاء، أو ضرّاء، أو شدّة، أو رخاء، أو عافية، أو بلاء.

راجية أن يغنيها الله من فضله، وأن ينفرد بحاجاتها، وأن يتولّى كفايتها،

---

(١) نهج البلاغة: ٥٠٧، قصار الحكم: ١١٨.

وأن لا يوكلها إلى نفسها، ولا إلى أحد من خلقه قريب، أو بعيد.

طالبة العون منه تعالى على شهواتها وأهوائها، منحسرة عن الذّنوب، متورّعة عن المحارم والشّبهات.

هواها فيما عند الله، ورضاها فيما يرد عليها منه على كلّ حال.

مهتدية بنور الله في الظلمات الفكريّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة، مستضيئة بمبادئ الله تعالى وأحكامه من كلّ شك.

أشغل قلبها خوف غمّ الوعيد، وشوق ثواب الموعود.

تعمل الحسنات شوقاً، وتهرب من السّيئات فرقاً وخوفاً، متحفّظة من الخطايا، محترسة من الزّلل في حال الرّضا والغضب.

مؤثرة رضا الله تعالى على رضا كلّ أحد على درجة واحدة في الأولياء والأعداء.

لا يخرجها الغضب من العدل، ولا يدخلها الرضا في الجور.

تستقلّ الخير من أعمالها ولو علت الجبال، وتستكثر الشرّ منها، ولو صغرت عن الذّرة.

صابرة في الشّدائد، وَقِرَة في الهزاهز، شاكرة في النّعماء؛ دعاؤها في الرّخاء كدعائها في الشّدّة والضرّاء.

سالمة الصدر من الحسد، فلا تحسد النّاس على ما آتاهم الله من فضله، ولكنّها ترجو أن ينعم الله عليها بأفضل ما أنعم به على الآخرين.

ملتزمة بعهد الله الّذي قطعته على نفسها أن لا تشرك به شيئاً، ولا تخلف له عهداً، ولو درَّ عليها ملك الدّنيا كلّها؛ لعلمها أنّ مخالفة العهد خيانة، و﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا**

﴿يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[1].

صادقة في قولها وفعلها مع الله، ورسوله، وأوليائه، وعامّة النّاس، وخاصّتهم، مؤثرة الصّدق حتى لو أضرَّ بها، متجنّبة الكذب حتى لو خدم مصالحها.

لا يجد الوهن إلى نفسها طريقاً عند ملاقاة الشّدائد والصّعاب في طريق الله تمضي بقوّة، وجدارة غير آبهة بكلّ ما أصابها في سبيل الله طمعاً بعفوه، ومغفرته، ورضوانه، ورحمته.

إذا رأت طغيان الباطل، وتعاليه، واجتماعه لحرب الحقّ، وأهله لا ينقص ذلك من إيمانها شيء، وإنّما تزداد إيماناً، وجهاداً ومواصلة في الكدح إلى الله تعالى.

دائمة التّفكير في عظمة الله تعالى المتجلّية في مخلوقاته من أصغر مخلوق إلى أكبر جرم سماوي، وفي حركة التأريخ، وجريانه، ومتغيّراته، وسننه، وما قام به أئمّة العدل، وأئمّة الضّلال، وعاقبة كلّ منهما.

معرضة عن اللّغو، وعن كلّ عمل لا يعود على الإنسانيّة بفائدة ماديّة أو معنويّة.

مسارعة إلى الخيرات لا يسبقها سابق، ولا يدفعها طمع، ولا يمنعها بخل، ولا جبن، ولا يشغلها طلب الدّنيا عن الآخرة، بل طلب الدّنيا عندها وسيلة للفوز بنعيم الآخرة الدّائم.

مُبَلِّغَة رسالة الله إلى النّاس، ومجاهدة في سبيله، لا تأخذها في الله لومة

---

(١) الأنفال: ٥٨.

لائم، ولا تخشى في هذا المسلك غير الله تبارك وتعالى، تدعو النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة.

تلك بعض مّزايا الشّخصيّة القرآنيّة، وكلّ تلك الخصائص ارتباط بالله تعالى، ولا نشكّ أنّ من ارتبط بالله تعالى ارتباطاً واعياً، وصادقاً ومخلصاً فلن يثنيه شيء، ولن تزلزله شدّة مهما بلغت؛ فإنّ جوهر الإسلام وروحه هو الارتباط بالله تبارك وتعالى، وما عداه متفرّع منه وراجع إليه؛ وما العبادات، والأذكار وجميع الفرائض من واجبات، ومستحبّات، ومكروهات، ومحرّمات، ومباحات بكلّ أحكامها إلا وسيلة لتَعبيد الإنسان لله، وتحقيق مَلكة التّقوى والورع فيه، بل (إنَّ مسيرة النّاس في رأي الإسلام يجب أن تكون مرتبطة بالله في الدّوافع والأساليب والأهداف، فبدون ارتباط المحدود بالمطلق، والمخلوقين بالخالق تنحرف مسيرة المخلوقين، وتضيع، ويبقى النّاس في أسر الفهم السّطحي الجاهلي للأشياء والأسباب، والأهداف.

وفي إطار الارتباط بالله فقط يمكن للنّاس أن يعيشوا الفهم الإسلامي للحياة، ويعملوا فيها بمقياسه)[1].

الاسْتِقامَةُ في القُرآنِ:

يمكن تقسيم العرض القرآنيّ للاستقامة على ثلاثة أقسام هي:

أوّلاً: التّأكيد على الاستقامة.

ثانياً: بيان عاقبة المستقيمين.

(١) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ١٦٢/١.

ثالثاً: وسائل الاستقامة.

أما التّأكيد عليها؛ فقد جاء بصيغة الأمر القطعيّ الّذي لا يقبل التّردّد والتّراجع؛ لأنَّ الأمر يفيد الوجوب كما يقول الأصوليّون، يقول تعالى:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(1).

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾(2).

﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(3).

إذا تأمّلنا جيّداً في هذه الآيات المتقدمة نجد أنَّ الأوامر قطعيّة ملزمة بوجوب الاستقامة والثّبات على امتثال أوامر الله تعالى، والصّمود في وجه العدوان على حرمات الله حتى يرتدّ منحسراً، كسيراً، مندحراً، مخذولاً، خاسئاً، ذليلاً، وبغير الاستقامة لا يمكن أن يتحقّق شيء من أهداف الإسلام العظيم؛ ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنِ اسْتَقامَ فَإِلى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلى النّار**»(4)، وجاء تأكيده على الاستقامة بعبارة أوضح في قوله عليه السلام: «**الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النّهايَةَ النّهايَةَ، وَالاسْتِقامَةَ الاسْتِقامَةَ**»(5).

وأما القسم الثّاني من آيات الاستقامة؛ فقد بيّنت عاقبة المستقيمين على دينهم الثّابتين على عقيدتهم، وزفّت لهم البشرى بالإمداد الغيبي، ونصرة عباده

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) الشّورى: ١٥.

(٣) التّوبة: ٧.

(٤) نهج البلاغة: ٢٠٥، خطبة: ١١٨.

(٥) نهج البلاغة: ٢٨٤، خطبة: ١٧٦.

المطهّرين من الملائكة المقرّبين إلى الله تعالى في الدّنيا والآخرة كما بشَّرهم تعالى بالجنّة والنّعيم الدّائم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[1].

إنَّ سعادة المجتمع البشري وازدهاره بالخير والبركات مشروط باستقامة الأمّة على منهاج أمر الله تعالى، وعلى الطّريقة الصّالحة في عبادته، ونيل تقواه، وهذا ما يُهطل السّماء رحمةً وبركةً على أهل الأرض.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[2].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وأما القسم الثّالث من آيات الاستقامة فقد بيّنت السّبل والوسائل المؤدّية إلى الاستقامة؛ نذكر منها على سبيل الإجمال:

الإِيمانُ بِالإِمْدادِ الْغَيْبِيّ:

يستمدّ المؤمن العون من الله تعالى على تجاوز العقبات في طريقه؛ لعلمه بأنَّه بعين الله تعالى لن ينساه، ولن يقليه، وأنَّه معه أين ما حلَّ وأين ما ارتحل.

إنَّ الشعور بالمعية الإلهية يمنح الإنسان قوّة جبّارة تتناسب تناسباً طرديّاً مع

---

(١) فصّلت: ٣٠-٣٢.

(٢) الجن: ١٦.

(٣) المائدة: ٦٦.

درجة إيمانه، ففي الساعات الحرجة والظروف الصعبة نجد الحبيب المصطفى ﷺ، حيث رأى الحزن والاضطراب بادياً على صاحبه - وهما في الغار، وكلّ العالم يطارده ليستأصل شوكة الإسلام - يقول له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(١) عَلامَ الحزن والاضطراب إذا كانت يد الله هي التي تسدّدك، وتعينك، وتوجّهك، وتكفيك كيد الأعداء؟!

وتأكيداً لهذه الحقيقة جاءت آيات الاستقامة صريحةً تبشّر المؤمنين بالإمداد الغيبي لهم معنويّاً ومادّياً متجسّداً بإنزال الملائكة لنصرتهم في جهادهم ضد العدوّ الكافر، يقول تعالى في وصف هذه الحقيقة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٣).

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(٤).

إنّ هذا الإحساس بالإمداد الغيبي يجعل المؤمن قويّاً مستقيماً لا يطلب

---

(١) التّوبة: ٤٠.

(٢) الأنفال: ٩-١٠.

(٣) الأنفال: ١٢.

(٤) آل عمران: ١٢٤-١٢٥.

العون من غير بارئه، وهذا هو السّلاح الجبّار الذي تسلّح به رسل الله على طول خطّ الرسالة؛ فقد كانوا يستمدّون النَّصر والعون من هذا الإيمان، واليقين بالإمداد الغيبي، وخير مثال على ذلك إبراهيم خليل الرّحمن عليه السلام حين يُلقى في النّار لم يطلب العون حتى من جبريل عليه السلام حين عرضه عليه كما في بعض الرّوايات، ولم يغيّر هذا الموقف من شعوره وإحساسه بنصر الله، وثقته الكاملة به، ولم يجرّه إلى الخوف، أو التّراجع قيد أنملة، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**لَمّا أُجْلِسَ إبْراهيمُ في الْمَنْجَنيقِ، وأَرادوا أَنْ يَرْموا بِهِ في النّارِ، أَتاهُ جِبْرَئيلُ عليه السلام، فَقالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يا إِبْراهيم ورَحْمَةُ الله وَبَرَكاتُهُ، أَلَكَ حاجَةٌ؟ فَقالَ: أَمّا إِلَيْكَ فَلا. فَلَمّا طَرَحوهُ دَعا اللهَ، فَقالَ: يا اللهُ، يا واحِدُ، يا أَحَدُ، يا صَمَدُ، يا مَنْ لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، فَحَسَرَتِ النّارُ عَنْهُ وَإِنَّهُ لَمُحْتَبٍ**[1]**، وَمَعَهُ جِبْرَئيلُ عليه السلام، وَهُما يَتَحَدَّثانِ في رَوْضَةٍ خَضْراءَ**»[2].

وهذا كليم الله موسى عليه السلام حين قال له أصحابه: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾[3]، يعني من جيش فرعون المطارِد لهم، وهم هاربون من بطشه وظلمه حيث البحر أمامهم، والعدوُّ خلفهم، أجاب: ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[4].

وهكذا رأينا خاتم الرسل صلى الله عليه وآله في ساعة العسر والشّدّة حين أقبلت زحوف قريش، وأمامها عَدد قليل من المؤمنين، وعُدد ضعيفة، يقول ابن مسعود:

---

(١) حسرت عنه أي انكشفت عنه، واحتبى بالثّوب: اشتمل به، جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

(٢) مجمع البيان: ٧/٨٧، وبحار الأنوار: ١٢/٢٤ .

(٣) الشّعراء: ٦١ .

(٤) الشّعراء: ٦٢ .

«ما سمعت مناشداً يَنْشدّ أشدّ من مناشدة محمّد ﷺ يوم بدر، جعل يقول: **اللَّهُمَّ إِنّي أَنْشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلَكْ هَذِهِ الْعِصابَةُ لا تُعْبَدْ**»(١).

تلك هي المواجهة الحقيقية، بقوة الله لا بقوّته، حيث تكالبت قوى الكفر والشّرك والنّفاق، وأجمعت على إطفاء شعلة التّوحيد، وأقبلت من كلّ مكان صوب المدينة المنوّرة، وهكذا لازال هاتفاً متضرّعاً بخشوع تتهاوى له الجبال الرّواسي، وترتعد منه السّماء حتى يسقط رداؤه(٢)، يستمطر النّصر، ويستمدّ العون من الله تعالى.

مُواصَلَةُ ذِكْرِ اللهِ تَعالى:

إنَّ لكُلّ مبدأ قاعدةً ينطلق أتباعه منها، ويرجعون إليها، ويستمدّون العون منها، ولمّا كان الإيمان بالله هو قطب الرّحى في التّصوّر الإسلامي مبدأ، وحركةً، ومعاداً، بل كلّ شيء يتعلّق بحياة الإنسان، وتقرير مصيره في الدّنيا والآخرة، وهذا هو مدلول الشّعار الإسلامي: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٣)، فقد سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يتلفّظ بهذا الشّعار، فقال عليه السلام: «**إنَّ قَوْلَنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إِقْرارٌ عَلى أَنْفُسِنا بِالْمُلْكِ، وَقَوْلَنا: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إِقْرارٌ عَلى أَنْفُسِنا بِالْهُلْكِ**»(٤).

وما دام الإنسانُ معرضاً للغفلة والنّسيان، وهما من أهمّ أسباب الزّلل والانحراف عن جادّة الحقّ؛ لذا يجب على المؤمن أن يواصل ذكر الله بطاعته،

(١) ابن كثير، السّيرة النّبويّة: ٢/٤١٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢/٤١١.

(٣) البقرة: ١٥٦.

(٤) نهج البلاغة: ٥٠١، قصار الحكم: ٩٣.

يقول رسول الله ﷺ: «**مَـنْ أَطـاعَ اللهَ فَقَـدْ ذَكَـرَ اللهَ، وَإِنْ قَلَّـتْ صَـلاتُهُ، وَصِيامُهُ، وَتِلاوَتُهُ، وَمَنْ عَصـى اللهَ فَقَـدْ نَسِـيَ اللهَ، وَإِنْ كَثُـرَتْ صَـلاتُهُ، وَصِيامُهُ، وَتِلاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ**»(١).

يقول العلامة الطّباطبائي معلّقاً على الحديث: «في الحديث إشارة إلى أنّ المعصية لا تتحقّق من العبد إلا بالغفلة، والنّسيان؛ فإنّ الإنسان لو ذكر ما حقيقة معصيته، وما لها من الأثر لم يقدم على معصيته»(٢).

ومن هنا كانت مواصلةُ الذّكر حصانةً ومناعةً تجعل المؤمن في يقظة وحذر وانتباه يمنعه من الوقوع في المخالفات الشرعية.

إذن الذّكر الدائم عاملٌ مهمٌّ، بل من أهمّ العوامل الّتي تؤدّي إلى الاستقامة المبدئيّة، وحينئذٍ يكون الإنسانُ في شعور دائم بأنَّه بعين الله، وأنَّ الله معه، هو دليله، ومعينه، وكافيه؛ ولهذا جاء البرنامج العبادي في الإسلام رابطاً للإنسان المؤمن بالله عزَّ وجلَّ في كلّ حالة من حالاته؛ لئلا يتعرّض للانحراف؛ ولأجل هذا نجد في سيرة الرسول ﷺ وسيرة أهل بيته المعصومين عليهم السلام أنَّ لكلّ حالةٍ ذكراً خاصّاً، وما من وضع خاصّ من أوضاع الإنسان سواء كان حركةً، أو سكوناً إلا وله ذكر خاصٌّ من نوم، أو أكل، أو لقاء، أو مجلس عام، أو خاص، أو حرب، أو سلم، أو شدّة، أو رخاء، ولعلَّ هذا هو مدلول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾(٣)، وهو كناية عن

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٣٩٩.

(٢) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٢/١.

(٣) النّساء: ١٠٣.

الذّكر المستوعِب لجميع الأحوال كما وصف تعالى عباده الذّاكرين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[(١)].

وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنَّه كان يذكر الله في كلّ أحواله، ولا يقوم، ولا يقعد إلا على ذكر الله، فعن أم سلمة أنَّها قالت: «كان رسول الله ﷺ بآخره [بآخر أمره] لا يقوم، ولا يقعد، ولا يجيء، ولا يذهب إلا قال: **سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتوبُ إِلَيْهِ**، فسألناه عن ذلك، فقال: **إِنّي أُمِرْتُ بِها**، ثمّ قرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[(٢)]»[(٣)].

إنَّ استمراريّة الذّكر تحفظ الإنسان من الزّيغ، والانحراف، والزّلل؛ لأنَّ الذّكر استحضارٌ لرقابة الله ومعيّته، ولا يمكن لمن يعيش الرّقابة الإلهية أن ينحرف عن جادّة الصّواب، وبهذا تتحقّق الاستقامة على خطّ الإيمان... فالصّلاة اليوميّة، وصلاة الجمعة، والعيدين وغيرها من الصلوات الواجبة والمستحبّة محطّات أمان من الغفلة والنسيان؛ ولذا كانت الصلاةُ ناهيةً عن الفحشاء والمنكر، بل عُدَّت مواصلةُ الذّكر صلاةً، وهو أبلغ تعبير عن أهمية الذّكر في استقامة حياة الإنسان الإيمانية؛ فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**لا يَزالُ الْمُؤْمِنُ في صَلاةٍ ما كانَ في ذِكْرِ اللهِ، إِنْ كانَ قائِماً، أو جالِساً، أو مُضْطَجِعاً؛ لأَنَّ اللهَ يَقولُ:** ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾»[(٤)].

---

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) النّصر: ١.

(٣) بحار الأنوار: ٢١/١٠٠.

(٤) تفسير العيّاشي: ١/٢٣٥.

وليست الصّلاةُ وحدها ذكراً، بل إنَّ الصّوم، والحجّ، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر كلّها فرائض تشدّ الإنسان إلى خالقه إذا لاحظنا الشّرط الأساسي فيها، وهو: (نيّة التّقرّب إلى الله تعالى)، حيث لا يُقبل أيّ عمل دونها، بل يجب أن تؤدّى خالصة لله، وبلا ضميمة أخرى إليها؛ وبإجماع الفقهاء أنَّ الإنسان إذا أدخل معها أيّ ضميمة أخرى أو قصد آخر، فقد فَقَدَ العملُ قيمته العبادية مهما كان كبيراً، ولو بمستوى بذل النّفس؛ لأنَّ الأصل في الإسلام: أنَّ قيمة العمل تنشأ من الدّوافع التي ينطلق منها العامل لا من المنافع التي ينتجها العمل، روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «**إِنَّما الأَعْمالُ بِالنّيّاتِ، وَلِكُلّ امْرِئ ما نَوى**»(١).

ولم يقتصر الإسلام في مسألة الذّكر على الفرائض اليوميّة المعروفة، بل شمل جميع شؤون الإنسان الأخرى؛ ليكون ذكر الله تعالى عنصراً فعّالاً في تربيته، وبناء شخصيته؛ ولهذا نرى أنَّ الذكر يواكبه من مبدأ تكوينه حين يوضع نطفة في رحم أمه، حيث يسمّي الواضع حين الوضع باسم الله، ومروراً بيوم ولادته، حيث يُؤَذَّن بأذنه اليمنى، ويُقام في اليسرى، وانتهاءً برحيله عن هذه الدنيا، حيث يخاطَب (يلقّن) - من باب مخاطبة الرّوح للرّوح - بأسس الإسلام العظيم: الله، الرسول، القرآن، الإمام، القبلة، القيامة، في آخر محطة يفارق فيها الدّنيا، ويحل في الآخرة.

ولا يقتصر الذّكر على اللّسان والقلب، بل يشمل جميع جوارح الإنسان، وجوانحه كما ورد عن بعض الصّالحين أنَّ «الذّكر مقسومٌ على سبعة أعضاء:

---

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٧/٧.

اللّسان، والرّوح، والنّفس، والعقل، والمعرفة، والسّرّ، والقلب. وكلّ واحد منها يحتاج إلى الاستقامة، فأمّا استقامة اللّسان فصدق الإقرار، واستقامة الرّوح صدق الاستغفار، واستقامة القلب صدق الاعتذار، واستقامة العقل صدق الاعتبار، واستقامة المعرفة صدق الافتخار، واستقامة السّرّ السّرور بعالم الأسرار، واستقامة القلب صدق اليقين، ومعرفة الجبّار؛ فذكر اللّسان الحمد والثّناء، وذكر النّفس الجهد والعناء، وذكر الرّوح الخوف والرّجاء، وذكر القلب الصّدق والصّفاء، وذكر العقل التّعظيم والحياء، وذكر المعرفة التسليم والرّضاء، وذكر السّر على رؤية اللّقاء»[1].

وتتجلّى حقيقة شمول الذّكر لجميع جوارح الإنسان، وجوانحه بشكل أدقّ وأوضح في رسالة الحقوق للإمام السّجّاد عليه السلام الّذي جعل على كلّ جارحة وجانحة حقّاً، وما هذا الحقُّ إلا ذكرُ الله تعالى؛ لأنَّ في إخضاعها لأحكام الله وتسخيرها لخدمته أعظمَ الذّكر، وهو الذّكر العملي.

والذّكر عملية متبادلة بين الذّاكر وربّه، وهذا عاملُ دفعٍ قويّ لمواصلة الذّكر، يقول تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[2].

وذكر الله للإنسان يعني شموله بلطفه له تعالى، وعنايته به، وقربه منه، ورضوانه عنه، وإدخاله في فيض رحمته، وإنزال السّكينة عليه، وإفاضة البركات عليه، وإلزامه كلمة التقوى التي تعدّ العمود الفقري للاستقامة المبدئيّة في خط الإسلام العزيز أرواحنا فداه...

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٢/٤٠٤.

(٢) البقرة: ١٥٢.

وقد أكّدت الرّوايات المستفيضة على عملية التّبادل هذه في الذّكر بين العبد وربّه، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ اللهُ تَعالى: ابنَ آدَم، اذْكُرْني في نَفْسِكَ أَذْكُرْكَ في نَفْسي، ابنَ آدَم، اذْكُرْني في خَلاء أَذْكُرْكَ في خَلاء، ابنَ آدَم، اذْكُرْني في مَلاء أَذْكُرْكَ في مَلاء خَيْر مِنْ مَلائِكَ**»، وقال: «**ما مِنْ عَبْدٍ يَذْكُرُ اللهَ في مَلاء مِنَ النّاسِ إلا ذَكَرَهُ اللهُ في مَلاء مِنَ الْمَلائِكَةِ**»(١).

والذّكر بعد ذلك عملية انفتاح عقليّ، وروحيّ، ونفسيّ لبصيرة الإنسان على الله تبارك وتعالى حتى يصبح الذّاكر لا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله، وفيه، وبعده؛ ثم هو استمطارٌ للألطاف الإلهيّة ببذل الطّاقة النّفسيّة، وعمليّة الذّكر هذه تحتاج إلى الجهد، والعناء، والخوف، والرّجاء، والصّدق، والصّفاء؛ ولهذا فليس الذّكر مجردَ حركةِ لسان، بل هو فيضٌ يطفح فيه القلب فيجري على اللّسان، وإدراك في العقل يحكم الجوارح، ويضعها على الصّراط السّوي، وهذا ما أكّدته وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «**يا عَلِيّ، ثَلاث لا تُطيقُها هذِهِ الأُمَّةُ: الْمُواساةُ لِلأَخِ في مالِهِ، وَإِنْصافُ النّاسِ مِنْ نَفْسِهِ، وَذِكْرُ اللهِ عَلى كُلّ حال، وَلَيْسَ هُوَ سُبْحانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَلا إِلهَ إلا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَكِنْ إِذا وَرَدَ على ما يُحَرَّمُ عَلَيْهِ خافَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ وَتَرَكَهُ**»(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**ما ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُ بِشَيْءٍ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ خِصالٍ ثَلاثٍ يُحْرَمُها**»، قيل: «وما هي؟»، قال: «**الْمُؤاساةُ في ذاتِ يَدِهِ، وَالإِنْصافُ**

---

(١) البرقي، المحاسن: ١/١١٠، ح/٩٨.

(٢) كتاب الخصال: ١/١٢٥.

مِنْ نَفْسِهِ، وَذِكْرُ الله كَثيراً، أَما إِنّي لا أَقولُ لَكُمْ: سُبْحانَ الله، وَالْحَمْدُ لله، وَلا إِلهَ إِلا الله، وَالله أَكْبَرُ، وَلَكِنَّ ذِكْرَ الله عِنْدَ ما أَحَلَّ، وَعِنْدَ ما حَرَّمَ عَلَيْهِ»(١).

ومن هنا نفهم أنّ الذكر أشمل وأعمّ من الألفاظ، بل هو استذكار واستحضار لأوامر الله تعالى لعبده، وإحساس العبد بحضوره، وهيمنته عزّ وجلّ، وشعوره بالمسؤولية أمامه، وكلما تنامى هذا الإحساس والشّعور دفع العبد إلى امتثال أوامر الله؛ لتحكيم إرادته تعالى في الفكر، والعاطفة، والسّلوك... وحينئذٍ يتحوّل ذكر الله إلى قوّة نفسيّة دافعة نحو الطّاعة، ومانعة عن المعصية، فهو قول يتحوّل إلى عمل، وإحساس يتحوّل إلى حركة في طريق الكدح إلى الله؛ لنيل رضاه تعالى.

وخلاصة القول: إنّ الذّكر الّذي يحقّق الاستقامة عند الإنسان ليس الذّكر اللّساني، وترديد بعض الأذكار والأوراد المعروفة من قبيل التّسبيح، والتّحميد، والتّكبير، والتّهليل فقط؛ وإنّما إذا كان جريانها على اللّسان نتيجة عمق الشّعور بالهيمنة الإلهيّة على حياة الإنسان؛ فالذّاكر يتحرّك ضمن كلّ أمرٍ أَمَرَ الله به، ويتوقّف عند كلّ نقطةٍ منع الله تعالى الولوج فيها، وبذلك يمتزج الإحساس الرّوحي بالقول اللساني؛ ليصبح قوّة جبّارة تمنح الإنسان الطّاقة، والحركة، والثّبات، والاستمرار في مقاومة التّيارات المعاكسة لخطّ الإيمان دون وهن، ولا ضعف، ولا استكانة، وهذا هو سلاح الربانيّين كما وصفهم الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ

(١) معاني الأخبار: ١٩٢.

وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١).

أَوْقَاتُ الذِّكْرِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

ولأهميّة هذه الشّعيرة العظيمة جاءت الآيات صريحةً بتعيين أوقات لها لتضع المؤمن أمام برنامج روحي منظّم يشدّه إلى الله تعالى، ولا ينساه لحظة واحدة من لحظات زحمات الحياة، وإلى هذه الأوقات نشير إشارة موجزة بدون تفصيل:

أوّلاً: **قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها**، يقول تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾(٢).

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾(٣).

ثانياً: **العشيّ والإبكار**، يقول تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾(٤).

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾(٥).

---

(١) آل عمران: ١٤٦-١٤٧.

(٢) طه: ١٣٠.

(٣) ق: ٣٩.

(٤) غافر: ٥٥.

(٥) آل عمران: ٤١.

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾[١].

والبُكْرَةُ هي: (أوّل النّهار)[٢]، والعشِيّ (من زوال الشّمس إلى الصّباح)[٣]، وفي مجمع البيان: (العشاء: من لدن غروب الشّمس إلى أن يولي صدر الليل)[٤].

ثالثاً: **البكرة والأصيل**، يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[٥].

ومعنى الأصيل: «العشيّ، وجمعه أصائل، ويقال أصل وآصال، وهو أصل اللّيل، أي أوّله ومبدؤه»[٦].

رابعاً: **أوقات السّحر**: وفي خصوص هذا الوقت جاءت آيات متعدّدة وفي صيغ مختلفة بين أوامر بالذّكر، وبين مدح للذّاكرين، يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[٧].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[٨].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[٩].

---

(١) مريم: ١١.

(٢) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٨٥، باب: (بكر).

(٣) المصدر نفسه: ٤٦٤، باب (عشي).

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ٧٤٥.

(٥) الأحزاب: ٤١-٤٢.

(٦) الشّيخ الطّوسي، التّبيان في تفسير القرآن: ٨/ ٣٤٨، وينظر: مجمع البيان: ٥٦٨/٨، ولسان العرب لابن منظور: ١٦/١١، باب (عشي).

(٧) المزّمّل: ١-٦.

(٨) الإسراء: ٧٩.

(٩) ق: ٤٠.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[(١)].

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾[(٢)].

في هذه الآيات صيغ آمِرَة بالذّكر والدّعاء: قم، رتّل، اسجد، سبّح، اصبر؛ وفيها دلالات عظيمة على أهمية الذّكر، وقيام اللّيل بذكر الله تعالى حيث يختلي الحبيب بحبيبه؛ ليبثَّ إليه همومه، ويرفع إليه مطالبه بتجرّد، وضراعة، وخشوع، وبكاء، وحبّ، وتوسّل أن يقبله في حضرته، ويدخله في واسع رحمته.

إنَّها حالات تستمطر الرَّحمة من الله على عباده الخاشعين المتوسّلين الّذين هجروا لذّة الرّقاد، وتلذّذوا بمناجاة الحبيب: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(٣)].

ولا يستوي هؤلاء الذّاكرون مع غيرهم من الرّاقدين: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٤)].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) الطّور: ٤٩.

(٢) الإنسان: ٢٦.

(٣) السّجدة: ١٦-١٧.

(٤) الزّمر: ٩.

(٥) الذّاريات: ١٥-١٨.

هذه بعض الأوقات الّتي عرضها القرآن الكريم للذّكر والدّعاء، ذكرناها للذّكرى بدون تفصيل خشية التّطويل والخروج عن موضوع البحث، وفي تذكّرها والالتزام بها دور عظيم في استقامة المؤمن في خطّ التّوحيد.

وأما ما ورد في الأخبار والأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام فلا يخرج عن هذا الإطار؛ لأنَّهم هم خزّان علم الكتاب، وعِدله الأصغر؛ فعندما نستقرئ النّصوص الواردة عنهم نجد أنَّهم عليهم السلام أشاروا إلى الحالات التي يستجاب فيها الدّعاء وهي على أنحاء، أهمّها[1]:

الأوّل: أوقات معيّنة أهمّها: الفجر، وبعد الزّوال، وبعد المغرب، وأوقات السّحر، وخصوصاً إذا مضى نصف اللّيل، وفي السّدس الأول من أول النّصف الأخير.

الثّاني: في حالات نفسيّة تعتري الإنسان أهمّها: حالة رقّة القلب، وسكونه، واطمئنانه، وقشعريرة الجلد، ودمع العين.

الثّالث: في حالات حدوث بعض الأحداث الكونيّة: كهبوب الرّياح، وزوال الأفياء، ونزول المطر.

الرّابع: في حالة القيام ببعض الأعمال العبادية: كقراءة القرآن، وعند الأذان، وعند التقاء الصّفين في الجهاد، وخصوصاً حالة حضور استشهاد مؤمن، وسقوط أوّل قطرة من دمه، وإذا رجعنا إلى زبور آل محمد عليهم السلام (الصّحيفة السّجاديّة) التي تعدّ بحقّ مدرسة الذّكر الإسلامي بعد كتاب الله، وسنة رسوله، نجد أن مُنشئها عليه السلام يذكر الله في أوقات مختلفة؛ منها يوميّة، ومنها أسبوعيّة،

(١) راجع تفصيل ذلك في الكافي لثقة الإسلام الكليني: ٣١٨/٤، باب (الأوقات والحالات التي تُرجى فيها الإجابة).

ومنها سنويّة، وله أذكار خاصة في الظواهر الكونيّة كالرّعد، والبرق، وظهور الهلال، وفي يومي الأضحى، والفطر المباركين، ويوم الجمعة، وحين يرى انغمار أهل الدّنيا بدنياهم، وحين يُنْعى إليه أحد.

وكلّ ذلك دروس عمليّة في استمداد العون والمدد من الله تعالى؛ ولترسيخ أشجار الشّوق والحبّ في نفوس المؤمنين ليستقيموا على النّهج القويم، وهذا المنهج يضعنا أمام برنامج عباديّ، تربويّ، تعبويّ، متكامل، طافح بذكر الله في مختلف حالات الإنسان.

وعندما نجمع بين كلّ ما تقدّم من أوقات الدّعاء في القرآن الكريم، والسّنّة المطهرة، نعرف أنَّه ليس من وقت من الأوقات إلا وله ذكر؛ والنَّتيجة النّهائيّة أنَّ الإنسانَ المؤمن يكون ذاكراً لله على كلّ حال، وفي كلّ وقت؛ وهذا هو سبيل الاستقامة الأساسي؛ لأنَّ مواصلة ذكر الله تجعل العبد في رحاب الله تعالى بشكل دائم، وتزيده قرباً منه جلَّ جلاله، وكلّما اقترب كلّما زاد اطمئنانه، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[1]، فإذا اطمئنَّ القلب ثبَتَ فيه الإيمانُ، واستقرَّت دعائمه، وتحقَّقت الاستقامةُ المبدئيّة فيه حتى يصبح لا يرى مؤثّراً في الوجود إلا الله تعالى، وهذه هي نهاية العلم، وزبدة الإيمان.

الانْتِصارُ للهِ تَبارَكَ وَتَعالى:

الانتصار لله هو أن يمضي المؤمن مستجيباً لأمر الله تعالى بنيّة خالصة، لنيل

(١) الرّعد: ٢٨.

رضاه بالتّقرّب منه؛ فالمنتصرُ لله منتصِرٌ على كلّ حال سواء كان غالباً أو مغلوباً، قاتلاً أو مقتولاً؛ لأنَّه فاز بإحدى الحسنيين؛ إمّا الشهادة -وهي منتهى أمنية المؤمنين-، أو الحياة بعزّ وسعادة في ظلّ عدالة الإسلام العظيم.

ولهذه الحقيقة شواهد كثيرة في التأريخ الرّسالي إذا نظرنا إلى النّصر من منظار العقيدة الإلهيّة، ولنقف قليلاً عند بعض النماذج التي انتصرت لله.

إنَّ خليلَ الرَّحمن عليه السلام حين حطَّم الأصنام، وتحدّى قومه كان منتصراً، وحين أُلقي في النّار مكتوف الأيدي كان منتصراً، وحين خرج منها مرفوع الرأس كان منتصراً.

وعلي عليه السلام حين صرع الأبطال في ميادين الجهاد كان منتصراً، وحين نزل سيف الغدر والنّفاق إلى رأسه الشّريف صرخ صرخة النّصر والفوز حتى دوت في السّماء، وارتجفت لعظمتها ملائكة الرَّحمن: «**فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**» كان منتصراً.

ولنتساءل بماذا فاز عليٌّ عليه السلام حين صرع في محرابه مضرّجاً بدمه؟ هل فاز بغير الاستقامة على دين الله إلى آخر لحظة من حياته، (هذا الرجل العظيم قال: «**فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**» كان أسعدَ إنسانٍ، ولم يكن أتعسَ إنسانٍ؛ لأنَّه كان يعيش لله، ولم يكن يعيش للدنيا، كان يعيش لهدفه، ولم يكن يعيش لمكاسبه، لم يتردّد لحظةً -وهو في قمّة هذه المآسي والمحن- في صحّة ماضيه، وصحّة حاضره، وفي أنَّه أدى دوره الذي كان يجب عليه)[١].

وأبو الشّهداء الحسين عليه السلام انتصر حين سقط مضمّخاً بدماء الرّسالة، وحين

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرّسالة الإسلاميّة: ٢٨٤-٢٨٥.

قُطِعَ رأسه الشريف، ورُفِعَ على الرّماح من العراق إلى الشّام؛ لأنَّه استجاب لله تعالى، ومضى ناصراً لدينه، متوكّلاً عليه دون سواه، راضياً بقضائه، وهذا هو منتهى النَّصر في منطق العقيدة الإلهيّة، وبهذا المنطق الرّسالي بقِيَ الحُسَيْنُ عليه السلام خالداً مُسيِّراً لعجلة التّأريخ إلى يومنا هذا، وإلى يوم القيامة، نستمدّ من مواقفه أسمى دروس الصّمود والتّحدّي لقوى الضّلال، وهذا هو عطاء الانتصار لله تعالى، يقول الأستاذ الشّهيد سيّد قطب: «والحسين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصّورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمةً؟ في الصورة الظّاهرة، وبالمقياس الصّغير كانت هزيمة. فأمّا في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيدٍ في الأرض تهتزّ له الجوانح بالحبّ والعطف، وتهفو له القلوب، وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيّعون وغير المتشيّعين من المسلمين، وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودّع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محرّكاً للأبناء والأحفاد. وربّما كانت حافزاً محرّكاً لخطى التأريخ كلّه مدى أجيال..»[(١)].

وموسى بن جعفر عليه السلام كان منتصراً على قوى البغي والعدوان حين أُلقي في طوامير السّجون، وحين أخرج من السّجن مسموماً شهيداً محمولاً على

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ١٨٩/٧-١٩٠.

أكتاف الحمّالين، فصار مناراً للمعذّبين في السّجون، وأمثولة حيّة يرتشف المؤمنون من بحرِ صبرِهِ وتحمّلِهِ دروسَ الصّبر في سبيل الله، وعلى نهجِهِ سار دعاةُ الإسلام في كلّ زمان.

وبهذه الرّوح انتصر الشّهيد الصّدر الأول والشّهيد الصّدر الثّاني رضوان الله عليهما، ولأجله تحمّلوا الموت الزّؤام.

ولو استطردنا في ذكر الشّواهد لاحتجنا إلى مجلّدات كثيرة بل لعلنا لا نقف على نهاية ذلك.

وخلاصة الكلام: إنَّ النَّصر في منطق الإسلام هو الاستجابة العملية الواعية على طريق الهدف المقدّس امتثالاً لأمر الله تعالى سواء كان المستجيب قاتلاً أو مقتولاً، غالباً في ميدان المعركة أو مغلوباً؛ وأمّا في التّفكير المادي فإنّ النّصر هو الغلبة على العدوّ، والصعود على كراسي الحكم.

إنّ المؤمن لا يريد إلا أن تكون كلمة الله هي العليا؛ ليحقّ الحقّ، ويبطل الباطل، ويسقي شجرة الإيمان بعرقه، بل بدمه؛ ليستمرّ تيار الإيمان حيّاً من جيل إلى جيل إلى يوم القيامة، وأمّا المادي فيريد أن يحكم ليتسلّط على الخلق، ويشبع نزواته في التّسلّط، وحبّ الظّهور، وشتّان ما بين الاثنين من حيث الوسيلة والهدف، والنّتيجة.

وَعْيُ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ:

رسالةُ اللهِ إلى خلقِهِ واحدةٌ على طول تأريخ الأنبياء والمرسلين من آدم إلى خاتم الرسل صلى الله عليه وعليهم أجمعين في أهدافها الكلية، وهي سلسلة واحدة على طول مسار البشرية؛ وكلّ رسول أو نبيّ يمثّل حلقة من الرّتل

الرّسالي في هذا الخطّ المتصل الرّابط بين الأمم والأجيال بعضها ببعض على طول خطى التّأريخ.

(وأديان السماء كافّة - في رأي الإسلام - دينٌ إلهيٌّ واحد، وُضِعَ بوضع الشّريعة الأولى، واكتمل باكتمال الشّريعة الأخيرة، ولم يختلف إلا بما تفرضه سنّة التّطوّر، ولم يتبدّل إلا بما يقتضيه سير الحكمة وحاجة المجتمع.

فدين الله، هذا الذي أُرسل به رسوله الأكبر ﷺ هو - بذاته - الّذي أوصى به أنبياءه السّالفين، وفرض على النّاس أن يقيموه ونهاهم أن يتفرقوا فيه)[1].

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[2].

ومن خلال هذا التّرابط بين المرسلين فإنَّ عرض قصص الأنبياء والرّسل يهدف إلى تثبيت المؤمنين واستقامتهم في المسير الطّويل إلى الله تعالى من خلال استلهام الدّروس والعبر من حياتهم الزّاخرة بالإيمان، والعلم، والجهاد، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

قال الفخر الرّازي في تفسيره الكبير: «اعلم أنَّه تعالى لمّا ذكر القصص

(١) الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته: ١٨٤-١٨٥.

(٢) الشّورى: ١٣.

(٣) هود: ١٢٠.

الكثيرة في هذه السّورة ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة»، ونحن نذكر **الأولى** فقط، وهي: «تثبيت الفؤاد على أداء الرّسالة، وعلى الصّبر، واحتمال الأذى؛ وذلك لأنَّ الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركاً خفَّ ذلك على قلبه كما يقال: المصيبة إذا عمَّت خفَّت، فإذا سمع الرسول هذه القصص، وعلم أنَّ حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا، سهل عليه تحمّل الأذى من قومه، وأمكنته الصّبر عليه»[1].

وفائدة **ثانية** نفيدها من سياق الآيات الكريمة، وهي أنَّ وعي أنباء الرّسل يوقف المؤمن على سنن الله في التأريخ، ويكشف له تلك السّنن على طول التأريخ البشريّ، وبذلك يكون واضح الرؤية، محدّد الهدف، ثابت الخطى في مساره، ومن خلال ذلك الوضوح يستلهم دروساً وعبراً قيّمة تمنحه الصّبر والصّمود في طريق التّضحية والفداء، يقول تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[2].

ونقصد بالوعي هو النّتيجة الحاصلة من الفهم، والحفظ، والقبول لما يتلقّى من أفكار ومفاهيم بحيث تمتزج في وجدانه، وعواطفه، وتتجسّد في سلوكه؛ ولذا قيل: «لا يعذّب اللهُ قلباً وعى القرآن»، قال ابن الأثير: «أي عَقَلَهُ إيماناً به وعملاً، فأمّا من حَفِظَ ألفاظه، وضيَّع حدودَه فإنَّه غير واعٍ له»[3].

---

(١) الفخر الرّازي، التّفسير الكبير: ٧٩/١٨.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٠٨/٥، باب (وعى).

فالوعي إذن مرحلة متأخّرة عن الحفظ، والفهم؛ فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرأً سَمِعَ مَقالَتي، فَوَعاها، فَرُبَّ مبلّغٍ أَوْعى مِنْ سامِعٍ**»(١).

إذن الهدف الأساسي من عرض قصص الأنبياء والرّسل ليس التّرف الفكري، أو التّسلية الأدبيّة، وإنَّما لتثبيت المؤمنين على دينهم في المواقف الحرجة التي يمرّون بها؛ لأنَّ الارتباط بهم روحيّاً وفكريّاً يمنح الإنسان القوّة في مواصلة الكدح إلى الله، وتحمّل المسؤولية الكبيرة أمامه تعالى؛ وكلّ ذلك بالنّتيجة يمنح المؤمن الثّبات والاستقامة على صراط الله القويم.

ولعلَّ من هذا المنطلق أمر اللهُ تعالى رسولَهُ الكريمَ ﷺ أن يذكر الأنبياء والرّسل بصريح القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾(٢).

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾(٣).

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾(٤).

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾(٥).

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(٦).

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾(٧).

---

(١) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٠٨/٥، باب (وعى).

(٢) مريم: ٤١.

(٣) مريم: ٥١.

(٤) مريم: ٥٤.

(٥) مريم: ٥٦.

(٦) ص: ١٧.

(٧) ص: ٤١.

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[1].

إنَّنا عندما نتأمّل جيّداً في الآيات المتقدّمة نجد أنها تُبرِزُ الصّفات المهمّة والحسّاسة في شخصيّات الأنبياء والمرسلين، وهي إشارة عظيمة إلى وجوب الاتّصاف بها، والتّمسّك بمدلولاتها.

إنَّها صفات تدلُّ على الاستقامة المبدئيّة، وتكون عاملاً فعّالاً في مواصلة السّير والسّلوك إلى الله، وبذلك نتعلّم منهم صلوات الله عليهم جميعاً: الصّدق مع الله، والصّبر على تحمّل مشاقّ الطّريق إليه، والإخلاص له في السّراء والضّراء، والخشوع، والضّراعة إليه، والوفاء بالوعد، والنّصيحة لخلقه تعالى.

ومن اللافت للنّظر أنّ ذكرهم عليهم السلام ورد بصيغة الأمر أي وجوب ذكرهم للتّأسّي والاقتداء بسيرتهم العطرة.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[2].

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[3].

---

(١) ص: ٤٥-٤٩.

(٢) الممتحنة: ٤.

(٣) الممتحنة: ٦.

التَّمَسُّكُ وَالاعْتِصامُ بِالْقَوْلِ الثّابِتِ:

يقـول تعـالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

يكاد يجمع أكثر المفسّرين أنّ القول الثّابت هو الإيمان، والتّوحيد، والحقّ؛ وهذه الكلمة أطبقت على الدّعوة إليها جميع رسالات السّماء عبر حلقاتها جميعاً، وعلى طول خطّها التّوحيدي بشعارها الخالد: «لا إِلـهَ إلا اللهّ»، الذي يمنح الإنسانَ الاستقلالَ الفكريّ، والهداية الرَّشيدة، والسّلوكيّة المستقيمة، وهو يمثّل قوّة رفض لكلّ الألوهيّات الموهومة، وينسف كلّ العقائد الفاسدة؛ لأنّه في الوقت الذي يمثّل قوّة رفض وسلب، يمثل قوّة جذب، وإيجاب، وتثبيت؛ فهو العمود الفقري في العقيدة الإسلاميّة؛ بل كلّ ما نزل في كتاب الله تعالى من دلالات عقليّة وبراهين فطريّة، ودساتير سماويّة تهدف إلى إرساء وتركيز عقيدة التّوحيد في النّفس البشريّة؛ لتوجد الإنسان الموحّد بكلّ ما للكلمة من أبعاد الثّبات والاستقامة على كلمة التّوحيد، وهدايته إلى صراط الله.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[3].

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) النّحل: ١٠٢.

(٣) الفرقان: ٣٢.

إنَّ الغرض الأساسي من نزول القرآن الكريم نجوماً متفرّقة حسب الوقائع، والأحداث، وحاجة الأمة إلى أمر معيّن هو تثبيت فؤاد الرسول ﷺ - رغم ثباته - وتربية الأمة على مراحل متعدّدة، وقد ثبت علميّاً أن التّعليم المرحلي (أثبت في النّفس، وأوقع في القلب، وأشدّ استقراراً، وأكمل رسوخاً في الذّهن، وخاصّة في المعارف التي تهدي إليها الفطرة؛ فإنَّ الفطرة إنّما تستعدّ للقبول وتتهيّأ للإذعان إذا أحسّت بالحاجة)[١].

والقول الثّابت الّذي جاء به القرآن الكريم، وقام عليه البناء الفوقي للأمّة الموحّدة، أعظم ذكر لمن أراد أن يستقيم ويثبت على دين الله، فإنَّه لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[٢]؛ ولذا فإنَّ مواصلةَ قراءةِ القرآن، ومتابعةَ البحثِ فيه، والتحرّي لأسرارِهِ سبيلٌ عظيمٌ من سبل الاستقامة، يقول أمير المؤمنين: «**وَما جالَسَ هَذا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إلا قامَ عَنْهُ بِزِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ: زِيادَةٌ في هُدًى، أو نُقْصانٍ مِنْ عَمًى...**

واعْلَموا أَنَّهُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقائِلٌ مُصَدَّقٌ، وأَنَّه مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيامَةِ شُفِّعَ فيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ[٣] **يَوْمَ الْقِيامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنادي مُنادٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ: أَلا إِنَّ كُلَّ حارِثٍ مُبْتَلًى في حَرْثِهِ، وَعاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ، فَكونوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْباعِهِ، وَاسْتَدِلّوهُ عَلى رَبِّكُمْ،**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٥/٢١١.

(٢) التّكوير: ٢٥-٢٨.

(٣) محل به القرآن: أي سعى به إلى الله تعالى، وقال في حقّه قولاً يضرّه ويوقعه في المكروه.

وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِموا عَلَيْهِ آراءَكُمْ، وَاسْتَغِشّوا فيهِ أَهْواءَكُمْ»(١).

وأخيراً فإنَّ العمل بما أمر الله تعالى في امتثال الواجبات، واجتناب المحرّمات هو حصيلة التّمسّك والاعتصام بالقول الثّابت، وبالعمل يثبّت اللهُ المؤمنَ في طريق الإيمان ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾(٢).

نَماذِج رِسالِيَّةٌ امْتُحِنَتْ فَاسْتَقامَتْ:

عندما نستعرض التّأريخ الرّسالي، ونتأمّل فيه جيّداً نجد فيه من المؤمنين من تعرّض لامتحانات رهيبة: ضغوط اجتماعيّة، وسياسيّة، وفكريّة، نفسيّة، وبدنية، فصبرت وتحدّت تلك الضغوط، ولم تستسلم لها اعتماداً على الله، وأملاً بنيل رضاه، فأصبحت أمثلةً حيّة يُقتدى بها على طول مسار خط الإيمان، ومشاعل تنير الدّرب للسّائرين إلى يوم القيامة.

إنّها نماذج استعلت على زخارف الدّنيا، واستهانت بالطّغاة، فلم تخضع لكلّ المؤثّرات والمغريات الدّنيوية.

وهذه النّماذج الحيّة حَرِيَّةٌ بالدّراسة، والتّحليل، والتّأمّل في مواقفها؛ فإنها رسالة سماويّة تجسّدت فيهم على الأرض، وعرّفتنا قوّة الإيمان، وصلابة المؤمن، ومدى ما يمكن أن يبذله المؤمن في سبيل الله، وقد ضرب القرآن الكريم أمثلة مهمّة من أولئك العظماء كمؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون،

---

(١) نهج البلاغة: ٢٨٤، خطبة: ١٧٦.

(٢) النّساء: ٦٦.

وأصحاب الأخدود، وموقف التّحدّي الّذي برز على سحرة فرعون بعد إيمانهم بالله حين عرفوا (فرعون)، وردّوا على تهديده حين قال لهم: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١]، فأجابوه بكلّ جرأة وتحدّ، وهم يعلمون أنّه الطاغية الذي يفعل ما يقول: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]؛ ولأهمية هذا الموقف وعظمته في تأريخ رسالات السّماء، جاء في القرآن الكريم عدّة مرات بصيغ مختلفة؛ منها الصيغة المتقدّمة، ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[٣].

هذا بالإضافة إلى قصص الأنبياء والمرسلين، وما تعرّضوا له من تحدّيات وضغوط، وما حدثنا التّأريخ به من صلابة أصحاب الرّسول الأعظم ﷺ، وأصحاب علي عليه السلام، وأولاده المعصومين عليهم السلام في مواجهة القوى المعاكسة لتيّار الحقّ والعدل، وصبرهم في طريق ذات الشّوكة؛ وها نحن نذكر بعض تلك النّماذج على سبيل المثال:

١- آسية بنت مزاحم:

هذه المرأةُ مثالٌ عظيمٌ من أمثلة الإيمان حيث إنَّها واجهت نوعين من الامتحانات والفتن في سبيل الله؛ فقد تجاوزت إغراء المال، والملك، والنّعيم

(١) الشّعراء: ٤٩.

(٢) الشّعراء: ٥٠-٥١.

(٣) طه: ٧٢-٧٣.

الدّنيوي في قصور فرعون، وما فيه من لـذّات كثيـرة، وظهـور اجتمـاعي يخطـف الأبصـار، وتسـيل لأجلـه لعـاب الرّجـال، وسـلطة كبيـرة تزهـق الأرواح بـالكلام والإشارة، وليس من الهيّن أن يتجاوز الإنسان كلّ ذلك لولا علوّ الإيمـان وقوّتـه، وهذا لا شكَّ أشدَّ من التّعذيب البدنيّ الشّديد الذي تحتمله مـن فرعـون بعـد أن اكتشف إيمانها.

قال الشّيخ المجلسي ناقلاً عن ابن عباس: «وأمّا امرأة فرعون آسية، فكانـت من بني إسرائيل، وكانت مؤمنة مخلصة، وكانت تعبد الله سرّاً، وكانت على ذلـك إلى أن قتل فرعون امرأة (حزبيل)[1]، فعاينت حينئـذٍ الملائكـة يعرجـون بروحهـا لما أراد الله تعالى بهـا مـن الخيـر، فـزادت يقينـاً، وإخلاصـاً وتصـديقاً، فبينـا هـي كذلك إذ دخل عليها فرعون يخبرها بما صنع بها، فقالت: الويل لك يا فرعون، ما أجرأك على الله جلَّ وعـلا؟ فقـال لهـا: لعلّـكِ قـد اعتـراكِ الجنـون الّـذي اعتـرى صاحبتكِ، فقالت: مـا اعترانـي جنـون لكـن آمنـت بـالله تعـالى ربّـي وربّـك وربّ العالمين، فدعا فرعون أمّها، فقال لها: إنَّ ابنتـك أخـذها الجنـون، فأقسـم لتـذوقنّ الموت، أو لتكفرنّ بإله موسى، فخلـت بهـا أمّهـا، فسـألتها موافقـة [فرعـون] فيمـا أراد، فأبت، وقالت: أمّا أن أكفر بالله فلا والله لا أفعل ذلك أبداً، فـأمر بهـا فرعـون حتّى مدّت بين أربعة أوتاد، ثمّ لا زالت تعذّب حتّى ماتت، كما قـال الله سـبحانه: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[2]»[3].

---

(١) هو اسم مؤمن آل فرعون.

(٢) الفجر: ١٠.

(٣) بحار الأنوار: ١٣/١٦٤.

وبهذا التّحمّل والصّبر والاستقامة استحقّت الخلود والذّكر الجميل عبر الأجيال المتعاقبة وإلى يوم القيامة؛ لتكون أُسوةً لبنات جنسها وغيرهنّ، يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

وهكذا يستعلي الإيمان على الكفر، وتبذل النّفوس رخيصة في سبيله، وترتفع الأرواح إلى بارئها ضاحكة مستبشرة؛ لاستقامتها على دين الله، وفوزها برضوانه الذي تهون من أجله كلّ شدّة وعذاب؛ فلقاء المحبوب، ونيل المطلوب يُحَوِّل أشواكَ العناء إلى زهور، والآلامَ إلى أفراح؛ فعن ابن عباس قال: «أخذ فرعون امرأته آسية حين تبيّن له إسلامها يعذّبها؛ لتدخل في دينه، فمرّ بها موسى وهو يعذّبها، فشكت إليه بإصبعها، فدعا الله موسى أن يخفّف عنها، فلم تجد للعذاب مسّاً، وإنّها ماتت من عذاب فرعون لها، فقالت وهي في العذاب: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، وأوحى الله إليها: أن ارفعي رأسك، ففعلت فأُريت البيت في الجنة بِنيَ لها من دُرّ، فضحكت، فقال فرعون: انظروا إلى الجنون الّذي بها، تضحك وهي في العذاب»(٢).

٢- سميّة أم عمّار بن ياسر:

من أوائل الّذين تعرّضوا لفتنة الجاهليّة، وتحمّلوا التّعذيب الشّديد عائلة آل ياسر: عمّار وأبوه وأمّه؛ وكانت هذه المرأة المؤمنة ممن عُذّبَ في الله تعالى، أرادت قريش منها أن ترجع عن الإسلام إلى الكفر، فأبت، فضربها أبو جهل

---

(١) التّحريم: ١١.

(٢) بحار الأنوار: ١٣/١٦٤.

بحربة في قلبها، فماتت، قال السّيّد علي خان المدنيّ: «كانت سميّة أمّ عمّار من الخيّرات الفاضلات، وهي أوّل شهيدة في الاسلام، وقد كانت قريش أخذت ياسراً وسميّة وابنيهما وبلال وجناباً وصهيباً، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس حتّى بلغ الجهد منهم كلّ مبلغ، فأعطوهم ما سألوا من الكفر، وسبّ النبي ﷺ بألسنتهم، واطمأنّ الأيمان في قلوبهم، ثم جاء إلى كلّ واحد منهم قومه بأنطاع الأدم فيها الماء، فألقوهم فيها، ثم حملوا بجوانبها، فلما كان العشي جاء أبو جهل، فجعل يشتم سميّة، ويرفث ثم وجأها بحربة في قلبها، فماتت، وهي أوّل من استشهد في الاسلام»[١].

٣- خبّاب بن الأَرْت:

من المؤمنين الأوائل الّذين عذّبوا في الله فثبتوا، أخذه الكفّار، وعذّبوه عذاباً شديداً، كانوا يعرّونه، ويلصقون ظهره بالرّضف، وهي (الحجارة التي حميت بالشّمس أو النّار)[٢]، ولووا رأسه، فلم يجبهم إلى شيء ممّا أرادوا منه.

قال العلامة بحر العلوم في رجاله: «خبّاب بن الأرت التّميمي، أبو عبد الله، أحد السّابقين الأولين الّذين عذّبوا في الدّين، فصبروا على أذى المشركين. رُوِيَ: أنّ قريشاً أوقدت له ناراً، وسحبوه عليها، فما أطفأها إلا ودك[٣] ظهره، وكان أثر النّار ظاهراً عليه في جسده»[٤].

وحينما سُئِلَ عمّا لقي من المشركين قال: «انظر إلى ظهري... أوقدوا لي

---

(١) السّيد علي خان الشّيرازي، الدّرجات الرّفيعة في طبقات الشّيعة: ٢٥٦ .

(٢) لسان العرب: ١٢١/٩ ، باب (رضف) .

(٣) الودك: الشّحم .

(٤) السّيّد مهدي بحر العلوم، الفوائد الرّجاليّة: ٣٣٤/٢-٣٣٥ .

ناراً وسُحِبْتُ عليها، فما أطفأها إلا وَدَك ظهري»[١].

وفي رواية: ألبسوه دروع الحديد، وصهروه في الشّمس، فبلغ منه الجهد ما شاء الله أن يبلغ من حرّ الحديد والشمس، قال الشّعبي: «إنّ خبّاباً صَبَرَ، ولم يعطِ الكفّار ما سألوا، فجعلوا يلزقون ظهره بالرضف، حتى ذهب لحم متنه»[٢].

ولهذا الصّبر والتّحمّل في سبيل الله نرى أنّ الإمام علي عليه السلام يترحّم عليه، ويذكر صبره واستقامته على دين الله، وهي شهادة عظيمة لا يعدلها شيء: «**رَحِمَ اللهُ خبّاباً، قَدْ أَسْلَمَ راغِباً، وَهاجَرَ طائِعاً، وَعاشَ مُجاهِداً، وَابْتُلِيَ في جَسَدِهِ أَحْوالاً، وَلَنْ يُضيعَ اللهُ ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾**[٣]»[٤].

٤- حجر بن عَدِيّ الكنديّ:

من خُلّص الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام، قال عنه المؤرّخون: له صحبة ووفادة، وجهاد، وعبادة، ومن أفاضل الصحابة وكبارهم مع صغر سنّه، ثقة معروف، شهد فتح مرج العذراء، وهو أوّل من قُتِلَ صبراً في الإسلام[٥].

قال أبو معشر: «كان حجر بن عدي رجلاً من كندة، وكان عابداً... ولم يحدث قطّ إلا توضّأ، وما يهريق ماء إلا توضأ، وما توضّأ إلا صلّى»[٦].

وكان قائداً شجاعاً أبيَّ النفس، عارفاً بالله تعالى، مقاوماً للظّلم، لا يبالي

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧٢/١٨ .

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة: ١١٤/٢ .

(٣) الكهف: ٣٠ .

(٤) السّيّد محسن الأمين، أعيان الشّيعة: ٣٠٤/٦.

(٥) ينظر: الشّيخ الأميني، موسوعة الغدير: ٧٠/١١-٧١ .

(٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٢١٢/١٢ .

بالموت في سبيل عقيدته، بذل كلّ ما يملك حتى جاد بنفسه في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وكان قدوة لأصحابه الّذين صبروا معه.

ومن أمثلة تفانيه في سبيل الله جوابه لأمير المؤمنين عليه السلام حين استنفر القوم لحرب أهل الجمل، فلم يجيبوه، فقام حجر، وقال: «لا يسوؤك الله يا أمير المؤمنين، مُرنا بأمرك نتّبعه، فوالله العظيم ما يعظم جزعنا على أموالنا أن تفرّق، ولا على عشائرنا أن تقتل في طاعتك»(١).

ولما أخذ مغفوراً إلى الشام بأمر ابن زياد، قال معاوية: «أخرجوهم إلى عذرى فاقتلوهم هنالك»، فحملوا إليها، فقال حجر: «ما هذه القرية؟»، قالوا: «عذراء»، قال: «الحمد لله، أما والله إنّي لأوّل مسلم نبح كلابها في سبيل الله، ثم أُتي بي اليوم إليها مصفوداً»(٢).

وفي أسد الغابة: «فلمّا أشرف على مرج عذراء، قال: إنّي لأوّل المسلمين كبّر في نواحيها»(٣).

وفي رواية أخرى: «الحمد لله، أما والله إنّي لأول مسلم ذكر الله فيها وسجد، وأول مسلم نبح عليه كلابها في سبيل الله، ثم أنا اليوم أحمل إليها مصفّداً في الحديد»(٤).

لقد وقف حجر وأصحابه موقفاً صلباً هزَّ الضّمير الإسلامي، وكشف زيف الحكم الأموي الّذي يضمر الكفر ويتقنّع بالإسلام؛ فقد قال رسول معاوية له

---

(١) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٢٧٣، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٥٨٦/٣، ح/١٥٨٠.

(٢) ابن سعد، الطّبقات الكبرى: ٢١٩/٦.

(٣) أسد الغابة: ٤٦٢/١.

(٤) المرزباني، مختصر أخبار شعراء الشّيعة: ٤٩-٥٠.

ولأصحابه: «إنّا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من عليّ، واللعنّ له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم، وإنَّ أمير المؤمنين يزعم أنَّ دماءكم قد حلَّت له بشهادة أهل مصركم عليكم، غير أنّه قد عفا عن ذلك، فابرؤوا من هذا الرجل نخلّ سبيلكم»، قالوا: «اللهُمَّ إنّا لسنا فاعلي ذلك»[1].

وتتجلّى عظمة صبر واستقامة حجر عندما قدّم للإعدام فقد ضرب المثل الأعلى في الفداء، والتّضحية، والثّبات على عقيدته، قال المرزباني: «ثم مشى إليه هدبة الأعور بالسّيف، فشخص إليه حجر، فقال: ألم تقل إنّك لم تجزع من الموت؟ فقال: أرى كفناً منشوراً، وقبراً محفوراً، وسيفاً مشهوراً، فما لي لا أجزع؟! أما والله لئن جزعت لا أقول ما يسخط الربّ، فقال له: فابرأ من عليّ، وقد أعد لك معاوية جميع ما تريد إن فعلت، فقال: ألم أقل إنّي لا أقول ما يسخط الربّ، والله لقد أخبرني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله بيومي هذا.

ثم قال: إن كنتَ أُمِرْتَ بقتل ولدي فقدّمْه، فَقَدَّمَهُ، فضُربت عنقُهُ، فقيل له: تعجّلتَ الثَّكْلَ؟ فقال: خفتُ أن يرى [ولدي] هول السّيف على عنقي، فيرجع عن ولاية عليّ عليه السلام، فلا نجتمع في دار المقامة الّتي وعدها الله الصّابرين»[2].

ثم قيل لحجر: «مُدَّ عنقك»، فقال: «إنَّ ذاك لدم ما كنت لأعين عليه»، فقُدّم، فضُرِبَتْ عُنُقُهُ[3].

وهكذا يمضي الأباة في خطّ الولاية الحقّة مستهينين بكلّ الصعاب مهما

---

(١) تاريخ الطّبري: ٢٧٥/٥.

(٢) مختصر أخبار شعراء الشّيعة: ٥٠.

(٣) الطّبقات الكبرى: ٢١٩/٦.

بلغت التّضحية بكلّ غالٍ ونفيس، وهذا هو منتهى الثّبات والاستقامة، وهذا هو الخلود الأبدي، وهكذا فليكن رجال العقيدة وإلا فلا.

٥- محمّد بن أبي عمير الأزدي:

من أصحاب الأئمّة الأطهار، وتلامذتهم، نبغ في الفقه، وصار علماً يرجع إليه حتى قيل فيه: «ابن أبي عمير أفقه من يونس [بن عبدالرّحمن]، وأصلح، وأفضل»[(١)].

عُذّب في سبيل الله تعذيباً رهيباً، وأصابه من الجهد والضّيق أمرٌ عظيمٌ، وسلب الطّغاة كلَّ شيء منه إلا كتبه التي ضمَّنها أحاديث أهل البيت عليهم السلام؛ فقد دفنها، وأصابتها رطوبة، أو أُرضة، وتلفت وبقي ما يحفظه منها أربعين جلداً سمّاها بعد ذلك نوادر[(٢)].

ومن نوادر صموده ما نُقِلَ عن الفضل بن شاذان: «سُعِيَ بمحمد بن أبي عُمَير -واسم أبي عمير زياد- إلى السّلطان: أنَّه يعرف أسامي عامّة الشّيعة بالعراق، فأمره السّلطان أن يسمّيهم، فامتنع، فجُرّد، وعُلّق بين العقارين، وضُربَ مائة سوط».

قال الفضل: «فسمعت ابن أبي عمير يقول: لما ضربت، فبلغ الضرب مائة سوط أبلغ الضرب الألم إليَّ، فكدت أن أسمّي، فسمعت نداء محمد بن يونس بن عبد الرّحمن يقول: يا محمّد بن أبي عمير، اذكر موقفك بين يدي الله تعالى، فتقوّيت بقوله، فصبرت ولم أخبر، والحمد لله»، قال الفضل: «فأضرّ به هذا الشّأن

(١) الشيخ الطّوسي، اختيار معرفة الرجال: ٢/٨٥٤ ح/١١٠٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

أكثر من مائة ألف درهم»[1].

هذا غيضٌ من فيضٍ من تلك النّماذج التي استقامت على دين الله تعالى، وتركت لنا أسمى الدّروس والعبر، وبقيت للأجيال مناراً خالداً إلى يوم القيامة؛ إنّهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2]، وما زالت تلك المدرسة الخالدة تقدّم النّماذج تلو النّماذج، ولن تتوقّف إلى يوم الدين.

وختاماً لهذا البحث أرى من الوفاء لتأريخ الصّمود الرّسالي أن أذكر من هذه النّماذج من عاصرناهم، ورأيناهم بأمّ أعيننا كيف أعادوا حركة الرّسالة من جديد، وأيقظوا الأمّة من سباتها العميق، وتحمّلوا من العذاب ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر في سجون حزب البعث الصّليبي، حيث سخّرت كلّ أساليب الوحشيّة البشريّة لإزهاق أرواح المؤمنين في زمن صار التّعذيب فيه فنّاً من فنون العصر الحديث؛ فقد استورد فرعون العراق خبراء متخصّصين في التّعذيب النّفسي والبدني؛ ولذا يمكن القول وبلا تردّد أنّ ما تحمَّله مؤمنو العصر من الإرهاب يفوق كلّ ما أقدم عليه الطّغاة في القرون السّالفة، فقد جمعوا إلى خبرتهم خبرات الوحوش البشريّة الأخرى، وأضافوا عليها، وبالرّغم من ذلك فقد صمد الدّعاة إلى الله صموداً أذهل الجلادين أنفسهم؛ فإنّ هذه الطّاقات التي أودعها الله في خلّص عباده أقوى من سياط الجلادين مهما بلغت، فـ«**ما ضَعُفَ بَدَنٌ عَمّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النِّيَّةُ**»[3].

---

(١) اختيار معرفة الرجال: ٢/ ٨٥٥، ح/١١٠٥.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

(٣) وسائل الشّيعة: ٣٨/١.

وما عرفناه من جرائم هذه المسوخ البشريّة قطرة من بحر جرائمهم في أقبية أبي غريب، ومديرية الأمن (الرّعب) العامّة في بغداد، والفضيلية، وغيرها؛ وها أنا أذكر نبذة من صمود هؤلاء الأبطال الرساليّين الّذين تأسّوا بالماضين من أسلافهم، وتركوا لنا سجلاً حافلاً بالمواقف الرّساليّة، فهذا الشَّهيد الرابع آية الله العظمى المفكّر الإسلامي العظيم السيد محمّد باقر الصّدر قُدِّسَ سِرُّهُ يرفض ما عرضه عليه فرعون العصر بقوّةٍ وجرأةٍ لا نظير لها؛ فقد أخبره رسول صدام بشروط عدّة لا بدَّ أن يستجيب لأحدها، وهي:

١- أن يتخلّى عن تأييد ودعم الثّورة الإسلامية في إيران وعن تأييده للسّيد الخمينيّ.

٢- إصدار بيان تأييد لبعض مواقفنا، وإن كان يصعب عليك تأييد مواقفنا الحزبيّة الخاصّة فأيّدْ مواقنا الوطنيّة وإنجازاتنا، كحلّ قضية الأكراد بمنحهم الحكم الذاتي، أو تأميم النفط مثلاً.

٣ - أن تُصدر فتوى بتحريم الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية.

٤- أن تنسخ تحريمك الانتماء إلى حزب البعث، وتصدر فتوى تجيز فيها الانتماء إليه.

٥- أن يجيئك مراسل صحيفة أجنبية أو عراقيّة يسألك مسائل فقهية أنت تضعها، وأجب عليها بما أحببت.

فسأله السّيد الشّهيد: «فإذا لم أستجب»، فأجابه: «كما قلت لك سيدنا- والله- لقد سمعت من لسان صدام أنَّه قال: سوف أعدمه»، فما كان من السيد الشهيد إلا أن يجيبه بصريح العبارة بلا خوف ولا تردد: «أخبر صدّاماً أنّي بانتظار تنفيذ وعده»، وقبل أن يغادر المبعوث أعاد عليه: «أخبر صدّاماً أنَّه في أيّ وقت

يريد إعدامي فليفعل»[1].

ويؤخذ من بيته بعد أن يحاصر فيه تسعة أشهر، ويودع في السّجن هو وأخته العلويّة الطاهرة بنت الهدى، ويعذّب تعذيباً رهيباً، فأبى إلا أن يبقى صامداً على رسالته، ويمضي إلى الله مضرّجاً بدمه صابراً محتسباً.

وهذا الشّهيد عبد الصّاحب دخيّل يعرض عليه المجرم ناظم گزار -لعنه الله- بين أن يذكر أسماء العاملين الإسلاميّين، وبين أن يُرمى في حوض التّيزاب، فقال متحدّياً له: «إنّ الدَّعوة هنا- مشيراً إلى صدره- فأتحدّاك أن تأخذ حرفاً واحداً»، وقال لهم مرّات عديدة: «أنا الدّعوة، وأنا المسؤول الأول فيها، ولستُ أعطيكم اسماً واحداً، ولن أكشف لكم عنها، وسوف أتحمّل التّعذيب في سبيل الله، وسوف ألقاه وأنا راضٍ»[2]، ويُلقى في حوض التّيزاب، ولم ينبس ببنت شفة.

وهذا الشّيخ عبد الجبّار البصريّ قُدِّسَ سِرُّه يؤخذ من بيته، ويعذّب تعذيباً شديداً، ولم ينتزعوا منه كلمةً واحدةً، ثم يطلق سراحه في يوم جمعة، ويصادف رجوعه من السّجن صلاة الظّهر من ذلك اليوم، فيدخل المسجد، ويعتلي المنبر، ويؤدّي واجبه الشرعي، ولم توقفْه كلّ أساليب التّهديد والإغراء، ولمّا فشلت كلّ أساليب الإغراء أُخِذَ مَرَّةً أخرى، وأودع السّجن، فكان مثالاً في الصّبر والاستقامة، وكان سلاحه الّذي يقاوم به الجلادين -وهو معلّق، والسّياط تلهب ظهره- «**الله أكبر**»، ولما ساقوه إلى ما يسمّى بمحكمة الثّورة، وأدخلوه في قفص الاتّهام، قال له المجرم مسلم الجبوري: لِمَ لَمْ تُعدمْ إلى اليوم؟ فقال الشّيخ:

---

(١) السّيّد كاظم الحائريّ، مباحث الأصول: ١/١٦٢-١٦٣.

(٢) فائق عبد الكريم، عبد الصّاحب دخيل سيرة قائد وتأريخ مرحلة: ٢١٩.

«سوء تقدير منكم، فإنّي جعلت من المنبر (دَكَّة)، ومن السّمّاعة (غرشة)، ولم أسكت يوماً عن خدمة الإسلام»، فقال المجرم السّفاح: هل تعرف ما هو حكمك؟ فقال الشّيخ بكلّ جرأة وتحدّ: «احكم كلّ ما شئت أن تحكم، فكلّما تحكم فهو لي، إعدامنا شهادة، وسجننا عبادة، وإطلاق سراحنا قيادة، وليس فيه شماتة، وإنّما الشّماتة عندما تسحب أنت ومن أمَّرَك إلى النار، وأنا أذهب إلى الجنّة»؛ وهكذا استمرَّ داعياً إلى الله، ومتحدّياً للظّالمين حتى مضى شهيداً مضرّجاً بدمه.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

---

(١) يوسف: ١١١.

(البَحْثُ الثّالِثُ)

الإِخْلاصُ

تَمْهِيد:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[(1)].

في النّفس الإنسانيّة عجائب من الأسرار الخفيّة، بما تحمله من أهواء متشعّبة ماديّة ومعنوية، وطموحات عريضة؛ لتحقيق متطلّبات الهوى، هذا من جانب، ومن جانب آخر تحتوي على جنبة خير، وهي الجنبة العقليّة التي تصارع تلك الأهواء، يقول تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[(2)].

فغريزةُ حبّ الظّهور، والتّسلّط، والتّملّك، وحبّ الجاه، والسّمعة، وغيرها من الغرائز الأخرى ممّا يشمله حبّ الذّات بكلّ أبعادِها غرائزُ مخفيّة في طيّات النَّفس، ولا يمكن التّحكّم بها إلا بـ(تركيز التّفسير الواقعيّ للحياة، وإشاعة فهمها

(١) البيّنة: ٥.

(٢) الشّمس: ٧-١٠.

في لونها الصّحيح، كمقدّمة تمهيديّة إلى حياة أخرويّة، يكسب الإنسان فيها من السّعادة على مقدار ما يسعى في حياته المحدودة هذه في سبيل تحصيل رضا الله. فالمقياس الخُلُقي - أو رضا الله تعالى - يضمن المصلحة الشّخصيّة، في نفس الوقت الّذي يحقّق فيه أهدافه الاجتماعيّة الكبرى. فالدّين يأخذ بيد الإنسان إلى المشاركة في إقامة المجتمع السّعيد، والمحافظة على قضايا العدالة فيه الّتي تحقّق رضا الله تعالى؛ لأنَّ ذلك يدخل في حساب ربحه الشَّخصي ما دام كلّ عمل ونشاط في هذا الميدان يُعَوَّضُ عنه بأعظم العوض وأجَلّه)[1].

إنَّ الإسلام العظيم بكلّ متبنّياته الفكريّة، والأخلاقيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة يهدف إلى صياغة إنسان متحكّم في أهوائه النّفسيّة، وموجّه لها نحو سلّم الكمال، والسّمو من خلال المفاهيم التي يحملها؛ ليصرف طاقاته النّفسيّة في سبيل تجسيد تلك المفاهيم كواقع موضوعيّ حيّ من خلال سلوكه المتمثّل بالأعمال الصالحة التي ترتقي به رويداً رويداً إلى لقاء الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2]، ولقاء الله - وهو أسمى تطلّعات المؤمن وأرقى أمنياته - لا بدَّ له من مقدّمات تمهيديّة وإعداد تكامليّ يهيئ الإنسان نفسه بها؛ ليكون لائقاً للحضور في ساحة القدس الأعظم، وهذه المقدّمات بعد الإيمان الصحيح، والاعتقاد السّليم، هي العمل الصّالح، ومضمونه، وجوهره هو التّحرّك في طريق الله؛ لنيل رضاه تعالى بتحقيق إرادته فقط، ولا يكون العمل صالحاً بكلّ ما للكلمة من معنى إلا إذا كان مجرّداً عن أيّ دافع آخر غير طلب رضا الله،

(١) الشّهيد الصّدر، فلسفتنا: ٥٥-٥٦.

(٢) الكهف: ١١٠.

والتّقرّب منه؛ أي أن لا يشرك في القصد والعمل أحداً مع الله، فقيمة العمل إذن تكتسب من خلال الدّوافع التي تكمن وراءه؛ وذلك لأنّ (الإسلام يريد أن يصنع الإنسان نفسه صنعاً إسلاميّاً فهو يتبنّى لأجل ذلك تربية هذا الإنسان، ويستهدف قبل كلّ شيء محتواه الدّاخلي والرّوحي وفقاً لمفهومه)[١] كما يتعهّد (بتربية أخلاقيّة خاصّة، تُعنى بتغذية الإنسان روحياً، وتنمية العواطف الإنسانيّة، والمشاعر الخُلُقيّة فيه. فإنّ في طبيعة الإنسان - كما ألمعنا سابقاً - طاقات واستعدادات لميول متنوّعة: بعضها ميول ماديّة تتفتّح شهواتها بصورة طبيعيّة كشهوات الطعام والشّراب والجنس، وبعضها ميول معنويّة تتفتّح وتنمو بالتّربية والتّعاهد؛ ولأجل ذلك كان من الطّبيعي للإنسان - إذا تُرك لنفسه - أن تسيطر عليه الميول الماديّة؛ لأنّها تتفتّح بصورة طبيعيّة، وتظلّ الميول المعنويّة واستعداداتها الكامنة في النّفس مستترة. والدّين باعتباره يؤمن بقيادة معصومة مسدَّدة من الله، فهو يوكل أمر تربية الإنسان وتنمية الميول المعنوية فيها إلى هذه القيادة وفروعها، فتنشأ بسبب ذلك مجموعة من العواطف والمشاعر النّبيلة، ويصبح الإنسان يحبّ القيم الخُلُقيّة والمثل الّتي يربّيه الدّين على احترامها، ويستبسل في سبيلها، ويزيح عن طريقها ما يقف أمامها من مصالحه ومنافعه)[٢].

إذن هدف الإسلام بناء نفسيّةٍ سليمةٍ زكيّةٍ، ولكنّ هذا البناء لا يتمّ إلا من خلال العمل، وهو تطبيق الإنسان أحكام الله على نفسه، وتجسيدها في سلوكه في سبيل الله؛ هذا مع العلم أنّ الأبحاث الفكريّة والعلوم النّفسيّة والأخلاقيّة قد أثبتت

---

(١) السيّد الشّهيد الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ٣٣٩.

(٢) فلسفتنا: ٥٧.

أنَّ للأعمال الخارجية تأثيراً على المحتوى الداخلي للإنسان، يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

يقول العلامة الطّباطبائي قُدِّسَ سِرُّهُ: «ويظهر من الآية:

أولاً: أنّ للأعمال السّيّئة نقوشاً وصوراً في النّفس تنتقش وتتصوّر بها.

ثانياً: أنَّ هذه النّقوش والصّور تمنع النّفس أن تدرك الحق كما هو، وتَحول بينها وبينه.

ثالثاً: أنَّ للنّفس بحسب طبعها الأوليّ صفاءً وجلاءً تدرك به الحق كما هو، وتميّز بينه وبين الباطل، وتفرّق بين التّقوى والفجور، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[2]»[3].

وقد دلّت روايات كثيرة على تأثير الأعمال السّيئة على محتوى الإنسان الداخليّ لما تتركه من آثار سيّئة وظلمات يتراكم بعضها على بعض حتى تكون حجاباً عن رؤية الحق، وقبول الفيض الإلهي، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**ما مِنْ عَبْدٍ إلا وَفي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، فَإذا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ في النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْداءُ، فَإنْ تابَ ذَهَبَ ذلِكَ السَّوادُ، وَإنْ تَمادى في الذُّنوبِ زادَ ذلِكَ السَّوادُ حَتّى يُغَطّي الْبَياضَ، فَإذا غُطِّيَ الْبَياضُ لَمْ يَرْجِعْ صاحِبُهُ إلى خَيْرٍ أَبداً، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[4]»[5].

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) الشّمس: ٧-٨.

(٣) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٣٤/٢٠.

(٤) المطففين: ١٤.

(٥) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٦٧٦/٣-٦٧٧، ح/٢٤٣٠.

إذن اتّضح لنا أنّ العمل له تأثيرٌ على المحتوى الداخلي للإنسان سلباً أو إيجاباً؛ فإذا كان سيّئاً انعكس على النّفس كدورات وظلمات تجعل القلبَ قاسياً فظّاً غليظاً محجوباً عن قبول النّور والفيض الإلهي، وإن كان صالحاً كان أثره صلاحاً، وصفاءً، ونورانيّةً، وشفافيّةً، يقول الإمام الخميني قدس سره: «يكون إخلاص العمل موجباً لخلوص القلب، فإذا صار العمل خالصاً تظهر على مرآة القلب أنوار الجلال والجمال»(١).

ولذلك حدّد الإسلام في برنامجه التّربويّ الأخلاقيّ، بل في جميع مبادئه وأحكامه، الأعمالَ الصّالحة، والأعمالَ الطّالحة، وترك للإنسان حريةَ الاختيار في سلوك أيّ السّبيلين، قال تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٢).

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ أَنْزَلَ كِتاباً هادِياً بَيَّنَ فيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهجَ الْخَيْرِ تَهْتَدوا، واصْدِفوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدوا**... [إلى أن قال عليه السلام:] **اتَّقوا اللهَ في عبادِهِ وَبِلادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤولونَ حَتّى عَنِ الْبِقاعِ وَالْبَهائِمِ، أَطيعوا اللهَ، وَلا تَعْصوهُ، وَإِذا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذوا بِهِ، وَإِذا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضوا عَنْهُ**»(٤).

ولما كان لكلٍّ من السّبيلين عوامل مساعدة في داخل النّفس الإنسانيّة؛

(١) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصّلاة: ٣٧٢، ترجمة: السّيّد أحمد الفهري.

(٢) الإنسان: ٣.

(٣) البلد: ١٠.

(٤) نهج البلاغة: ٢٧٤، خطبة: ١٦٧.

فالإسلام يهدف إلى صياغة إنسان تنتصر فيه قوى الخير والتّقوى على قوى الشّر والفجور، وهذا لا يتمّ إلا بتصفية الإنسان نفسه من أوضار الأهواء (الماديّة، والمعنويّة)، وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل السموّ والكمال الروحي، وبذلك تصبح النّفسُ مهيّأةً لقبول النّور الإلهيّ، وصالحةً لتطبيق مبادئ السّماء على ذاتها، وعلى المجتمع تطبيقاً سليماً، ويكون دافعها الامتثال لأمر الله تعالى؛ لتحقيق إرادته في الأرض دون طلب أيّ مكسب ماديّ أو معنويّ سوى وجه الله، يقول الشّهيد الثّاني قدّس سرّه: «والأمرُ الجامع للإخلاص تصفية السّرّ عن ملاحظة ما سوى الله تعالى بالعبادة؛ قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1]»[2].

وهذا هو الإخلاص التامّ لله تعالى، وبهذا المعنى يصحّ قول أصحاب القلوب السّليمة: إنّ الإخلاص (هو ستر العمل عن الخلائق، وتصفيته عن العلائق)[3]، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**طوبى لِمَنْ أَخْلَصَ لله عَمَلَهُ، وَعِلْمَهُ، [وَحُبَّهُ،] وَبُغْضَهُ، وَأَخْذَهُ، وَتَرْكَهُ، وَكَلامَهُ، وَصَمْتَهُ، وَفِعْلَهُ، وَقَوْلَهُ**»[4].

ويقول عليه السلام: «**تَصْفِيَةُ الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ، وَتَخْلِيصُ النِّيَّةِ مِنَ الْفَسادِ أَشَدُّ عَلى الْعامِلِينَ مِنْ طولِ الْجِهادِ**»[5].

فالإخلاص إذن هو: التّحرّر المطلق من قيود الأهواء النّفسيّة الماديّة

---

(١) الزّمر: ٢-٣.

(٢) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٣٢.

(٣) المحدّث المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ٨١/٧.

(٤) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ٦٦، وبحار الأنوار: ٢٩١/٧٧.

(٥) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٧٤/١٥، ح/١٤٨١٩.

والمعنويّة، والتّحرّك الجدّي الفاعل في طريق الله تعالى؛ لتحقيق إرادته عزَّ وجلَّ دون طلب شيء سوى رضاه تعالى.

والإخلاص يشمل جميع جوانب حياة الإنسان: الفكريّة، والأخلاقيّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة...

الإِخْلاصُ الْفِكْرِيُّ وَالْعَقائِدِيُّ:

أمّا الإخلاص الفكريّ والعقائديّ فهو سلامة الفكر من الزّيغ، والانحراف، والتّصوّر غير الصحيح عن الكون والحياة، وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بكمال التّوحيد بقوله: «**أَوَّلُ الدّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْديقُ بِهِ، وَكَمالُ التَّصْديقِ بِهِ تَوْحيدُهُ، وَكَمالُ تَوْحيدِهِ الإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ**»(١).

ولما كان التّوحيد هو قطب الرَّحى في الفكر الإسلاميّ، والأساس الّذي تقوم عليه كلّ المعارف الإسلاميّة، فلا بدَّ وأن يكون خالصاً صافياً من جميع الشّوائب الفكريّة كالتّصوّرات الوهميّة، والمعتقدات الفاسدة التي تجرّ الإنسان إلى الشّعور بوجود مؤثر في الوجود غير الله أو مع الله تعالى، والتّعلّق به دون الله، وما نراه من ضعفٍ، وتهافتٍ، وسقوطٍ في بؤرة الرّياء، والعجب في سلوك كثير من النّاس ما هو إلا نتيجة؛ لنقصان أو انحراف في اعتقادهم التّوحيديّ، يقول الإمام الخميني قدس سره: «فالرّياءات الأفعاليّة بأجمعها، والرّياءات القلبيّة أكثرها من نقصان التّوحيد الأفعالي، فمن يرى المخلوق الضعيف المسكين مؤثّراً في دار

---

(١) نهج البلاغة: ٤١، خطبة: ١.

التّحقيق، ويعدّه متصرفاً في مملكة الحقّ كيف يستطيع أن يرى نفسه غنيّاً عن جلب قلوب المخلوقين، ويخلص عمله، ويصفّيه عن شرك الشّيطان، فلا بدّ من أن تصفّى العين والمنبع حتى ينبع منها ماء صافٍ»(١).

والمنبع الصّافي الّذي يعنيه الإمامُ قدس سره هو القلب المتنوّر بنور التّوحيد الخالص حيث إنّ الإنسان إذا ملك التّوحيد قلبه، واستعمر نفسه فإنّ كلّ ما يصدر عنه سيكون خالصاً لله تعالى؛ ولهذا لا بُدَّ لمن أراد نيل درجة الإخلاص أن ينقّيَ قلبه من كلّ الشّوائب الفكريّة والعقائديّة حتى يصل إلى درجة لا يرى مؤثّراً في الوجود غير الله تعالى، وعند ذلك يستغني عن حاجة جلب أنظار النّاس إليه لكسب قلوبهم، ولينال عندهم مكاناً عليّاً.

ولو وعينا مبادئنا بشكلٍ صحيحٍ، وجسّدناها في الواقع العمليّ لعرفنا أنّ المكانة في قلوب النّاس لا تحصل إلا بإصلاح العلاقة مع الله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ أَصْلَحَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله أَصْلَحَ اللهُ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ أَمْرَ دُنْياهُ**»(٢).

الإِخْلاصُ الأَخْلاقِيُّ:

ويتفرّع عن الإخلاص العقائديّ الإخلاصُ الأخلاقيّ، وهو (أن تمتثل.. وتؤدّي أعمالك بسبب أنّ الله تعالى يأمر بها.. وأنّه تعالى أهل للعبادة، وواجب الطّاعة بحسب رؤية العقل العملي للإنسان)(٣).

---

(١) الآداب المعنويّة للصّلاة: ٣٠٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٩٩، قصار الحكم: ٨٤.

(٣) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الروحي: ٢٥٠.

ومصداق ذلك ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً من نارِكَ، وَلا طَمَعاً في جَنَّتِكَ، لكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتُكَ**»[1].

والسِّرُّ في ذلك أنَّ الإسلام يريدُ للإنسان أن يتجرّد في أعماله، وفي تهذيب أخلاقه، وتزكية نفسه لله تعالى؛ فإنَّ المسلك القرآني في تهذيب النفس لا يقوم على أساس الغايات والمصالح الدّنيوية، وما يقال: إن هذه الصفة محمودة عند النّاس، وتوفّر للإنسان سعادة وراحة[2].

إذن عندما يتّصف الإنسان بالأخلاق الحسنة لا لكي يكسب ثقة النّاس ومحبّتهم؛ وإنّما لأجل أنَّ التَّخلّق بالخلق الحسن محمود عند الله، وهذا المعنى ينبعث من منبع التّوحيد باستعمال معارفه العمليّة في صياغة الأخلاق الإسلاميّة الّتي تقوم على أساس رفع الرّذائل النّفسية بالمعارف الإلهيّة، (وبالجملة، إذا استحكم في القلب أصل التّوحيد الفعليّ للحقّ، وسقي بماء العلم التّوأم بالعمل اللّطيف الذي يقرع باب القلب، تكون نتيجته تذكر مقام الألوهيّة، ويصفى القلب للتّجلي الفعلي للحقّ. فإذا خلت الدّار من الغدّار والعش من الغش يتصرف في البيت صاحبه)[3].

وهكذا إذا تشبَّعت النّفس الإنسانيّة بالمعارف الإلهيّة، وبتوجّهٍ خالصٍ لله فستنطبع تلك المعارف على صفحات القلب، وتشرق في كلّ صفحةٍ صفةٌ حميدةٌ تبرز بشكل طبيعي في سلوك المخلص بلا تكلّف فيها، وهذا هو

---

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ١٨٦/٧٠.

(٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٧٣/١-٣٧٤.

(٣) الآداب المعنويّة للصّلاة: ٣٧٥.

الإخلاص العمليّ، وأقصد به تصفية العمل عن طلب رضا المخلوقين، وعن طلب حصول المقاصد الدّنيويّة الفانية، بل وحتّى عن رؤية استحقاق الثّواب على الأعمال الصّالحة التي يقدّمها العبدُ طاعةً لله تعالى مع استقلال عمل الخير مهما بلغ، واستكثار عمل السّوء مهما دقّ وصغر، ودلالة ذلك تساوي العمل في حالة السِّرِّ والعلن، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقالَتُهُ، فَقَدْ أَدّى الأَمانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبادَةَ**»[١]، وهذا هو تمام الإخلاص العمليّ لله وكماله.

ومن هنا تبرز أهميّة الإخلاص في حياة المؤمن، وهذه الأهميّة لا يمكن أن تحدّ بحدود هذه الألفاظ القاصرة خصوصاً إذا عرفنا أنّ العقيدة دون وعي وإخلاص ألفاظ فارغة لا قيمة لها، بل تصبح هواءً في شبك، وكفى الإخلاصُ عظمةً بأنّه كمالُ التَّوحيد، وبهذا تتبيّن لنا أهميّة الإخلاص، ويتجلّى لنا معناه الحقيقي، وهو «**تَصْفِيَةُ مَعاني التَّنْزيهِ في التَّوْحيدِ كَما قالَ الأَوَّلُ، هَلَكَ الْعامِلونَ إلا الْعابِدونَ، وَهَلَكَ الْعابِدونَ إلا الْعالِمونَ، وَهَلَكَ الْعالِمونَ إلا الصّادِقونَ، وَهَلَكَ الصّادِقونَ إلا الْمُخْلِصونَ، وَهَلَكَ الْمُخْلِصونَ إلا الْمُتَّقونَ، وَهَلَكَ الْمُتَّقونَ إلا الْموقِنونَ، وَإِنَّ الْموقِنينَ لَعَلى خَطَرٍ عَظيمٍ**»[٢].

وأما أهميّة الإخلاص في المجال الأخلاقيّ فدونه تكون الأخلاق الحسنة تصنّعاً وتكلّفاً ممقوتاً، سرعان ما تنقلب إلى عكسها في حالة عدم تحقّق الدّوافع الكامنة وراءها؛ فإنّ غرض الإنسان من الكمال الخلقيّ إما أن يكون اقتناء

---

(١) نهج البلاغة: ٤٠٩، كتاب: ٢٦.

(٢) مصباح الشّريعة :٣٧.

(الفضيلة المحمودة عند النّاس والثّناء الجميل منهم... [أو نيل] السّعادة الحقيقيّة للإنسان وهو استكمال الإيمان بالله وآياته، والخير الأخروي وهي سعادة وكمال في الواقع لا عند النّاس فقط، ومع ذلك فالمسلكان يشتركان في أنَّ الغاية القصوى والغرض فيها الفضيلة الإنسانيّة من حيث العمل)[١].

وفي هذين الفرضين لا يتحقّق الإخلاصُ الخلقيُّ -رضا الله بالكامل-؛ لأنّ المقصود به أنَّ الإنسان (إنَّما يريد وجه ربه، ولا همَّ له في فضيلة، ولا رذيلة، ولا شغل له بثناء جميل، وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة، أو جنة أو نار، وإنما همُّه ربُّه، وزاده ذلُّ عبوديته، ودليله حبُّه)[٢].

أَهَمِّيَّةُ الإِخْلاصِ في الْعَمَلِ:

إنَّ العقل والنَّقل يجمعان أنَّ أيَّ عمل -أقصد العمل الرساليّ- إذا خلا من الإخلاص مهما بلغ لا قيمة له في ميزان الإسلام؛ وذلك لأنَّ الإسلام (يهتمّ بدوافع العمل لا بمنافعه، ويرى أنّه يستمدّ قيمته من الدّوافع لا من المنافع، فلا عمل إلا بنيّة، وما لم تتوفّر النّيّة الصّالحة لا يكون العمل صالحاً مهما كانت منافعه التي تنشأ عنه)[٣] حتّى لو بذل الإنسانُ مالَهُ، وفعَّلَ عِلْمَهُ، وأراق دمَهُ دون إخلاص، وليس فوق بذل الدم شيء؟! حتى هذا ساقط الاعتبارِ إذا لم يكن عن نيّة خالصة لله تعالى؛ فقد جاء في الحديث الشّريف عن النّبي ﷺ: «**أَوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثَلاث: رَجَلٌ آتاهُ اللهُ الْعِلْمَ، فَيَقولُ اللهُ تَعالى: ماذا صَنَعْتَ**

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/٣٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ١/٣٧٤.

(٣) المدرسة القرآنيّة: ٣٣٩.

فيما عَلِمْتَ؟ فيَقولُ: يا ربِّ، كُنْتُ أَقومُ بِهِ آناءَ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، فيَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذِبْتَ، وتَقولُ الْمَلائِكَةُ: كَذِبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ: فُلانٌ عالِمٌ، أَلا فَقَدْ قيلَ ذلِكَ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً، فيَقولُ اللهُ تعالى: قَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَماذا صَنَعْتَ؟ فيَقولُ: يا ربِّ، كُنْتُ أَتصَدَّقُ بِهِ آناءَ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، فيَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذِبْتَ، وتَقولُ الْمَلائِكَةُ: كَذِبْتَ، [بَلْ] أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ: فُلانٌ جَوادٌ، أَلا فَقَدْ قيلَ ذلِكَ، ورَجُلٌ قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ، فيَقولُ اللهُ تعالى: ماذا صَنَعْتَ؟ فيَقولُ: أَمَرْتَ بِالْجِهادِ، فَقاتَلْتُ في سَبيلِكَ حَتّى قُتِلْتَ، فيَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذِبْتَ، وتَقولُ الْمَلائِكَةُ: كَذِبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ: فُلانٌ شُجاعٌ، أَلا فَقَدْ قيلَ ذلِكَ»(١).

وفي رواية أخرى عن النّبي ﷺ أيضاً قال: «إنَّ أَوَّلَ النّاسِ يُقْضى يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتَلْتُ فيكَ حَتّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كَذِبْتَ، وَلكِنَّكَ قاتَلْتَ لِيُقالَ: جَريءٌ، فَقَدْ قيلَ ذلِكَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ في النّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فيكَ الْقُرْآنَ، قالَ: كَذِبْتَ، وَلكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقالَ: قارِئُ الْقُرْآنِ، فَقَدْ قيلَ ذلِكَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ في النّارِ»(٢).

---

(١) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء: ١٢٦/٨.

(٢) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٣٤.

ومن ثمّ فإنّ الإخلاص هو الحصن الوحيد الذي يحمي الإنسان من أحابيل الشيطان وكيده، وخيله، ورجله، وبذلك يكون هو الضمانة الأهمّ لعدم الانحراف عن الصّراط السّوي، وكسر لتحدّي إبليس - لعنه الله - حين قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، ولكنّه عندما كشف الله له حقيقة المخلصين، وأنّهم خارجون عن سلطانه تراجع، واعترف بعجزه عن إغوائهم قائلاً: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]، وبذلك يكون المؤمن قد دخل في حصن الله الحصين وهو التّوحيد الخالص، وبه يسدّ على الشّياطين كلّ منافذهم، كما جاء في حديث السّلسلة الذّهبيّة عن أبي الصّلت الهروي رحمه الله قال:

«**كُنْتُ مَعَ عَليّ بنِ موسى الرِّضا عليه السلام حينَ رَحَلَ مِنْ نَيْسابورَ، وَهُوَ راكِبٌ بَغْلَةً شَهْباءَ فَإذا مُحَمَّدُ بنُ رافِعٍ، وَأَحْمَدُ بنُ حَرْبٍ، وَيَحْيى بنُ يَحْيى، وَإِسْحاقُ بنُ راهوَيْه، وَعِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَدْ تَعَلَّقوا بِلِجامِ بَغْلَتِهِ في الْمَرْبَعَةِ، فَقالوا: بِحَقِّ آبائِكَ الطّاهِرينَ حَدِّثْنا بِحَديثٍ قَدْ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبيكَ، فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنَ العُمارِيَةِ - وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ خَزٌّ ذو وَجْهَيْنِ - وَقالَ: حَدَّثَني أَبي الْعَبْدُ الصّالِحُ موسى بنُ جَعْفَر، قالَ: حَدَّثَني أَبي الصّادِقُ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ، قالَ: حَدَّثَني أَبي أَبو جَعْفَرَ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيّ باقِرُ عِلْمِ الأَنْبياء، قالَ: حَدَّثَني أَبي عَلِيُّ بنُ الْحَسَيْنِ سَيِّدُ الْعابدينَ، قالَ: حَدَّثَني أَبي سَيِّدُ شَبابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُسَيْنُ، قالَ: حَدَّثَني أَبي عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ عليهم السلام، قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله يَقولُ: قالَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ: إِنّي أَنا اللهُ لا إِلهَ إلا أَنا**

(١) ص: ٨٢.

(٢) ص: ٨٣.

فَاعْبُدوني، وَمَنْ جاءَ مِنْكُمْ بشَهادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللهُ بالإِخْلاصِ، دَخَلَ حِصْني، وَمَنْ دَخَلَ حِصْني أَمِنَ مِنْ عَذابي»[١].

وفي رواية أخرى قال: «**حَدَّثَني أَبي، عَنْ جَدّي، عَنْ أَبيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَباهُ يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ أَباهُ يَقولُ: سَمِعْتُ أَبي عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ عليه السلام يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله يقولُ: قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: لا إِلهَ إِلا اللهُ اسْمي، مَنْ قالَهُ مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ حِصْني، وَمَنْ دَخَلَ حِصْني أَمِنَ مِنْ عَذابي**»، قال الشّيخ الصّدوق قدس سره عن الإخلاص - بعد أن أورد هذا الحديث -: «أن يحجزه هذا القول عن ما حرّم الله عزَّ وجلَّ»[٢].

وفي رواية ثالثة بالسَّنَدِ نفسه: «**أَخْبَرَني جبْريل الرّوحُ الأَمينُ، عَنِ اللهِ تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُهُ، وَجَلَّ وَجْهُهُ: إِنّي أَنا اللهُ، لا إِلهَ إِلا أَنا وَحْدي، عِبادي فَاعْبُدوني، وَلْيَعْلَمْ مَنْ لَقِيَني مِنْكُمْ بشَهادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللهُ مُخْلِصاً بها أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ حِصْني، وَمَنْ دَخَلَ حِصْني أَمِن عَذابي**»، قالوا: «يا ابْنَ رسول الله، وما إخلاص الشهادة لله؟» قال عليه السلام: «**طاعَةُ اللهِ، وَرَسولِهِ، وَولايَةُ أَهْلِ بَيْتِهِ عليهم السلام**»[٣].

وبالإخلاص يفجّرُ اللهُ ينابيعَ الحكمةِ من قلب الإنسان المؤمن، ويجريها على لسانه، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعينَ يَوْماً فَجَّرَ اللهُ يَنابيعَ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلى لِسانِهِ**»[٤]؛ ولذلك أكّد القرآن الكريم أنّ كلّ

(١) الشّيخ الصّدوق، التّوحيد: ٢٤-٢٥.

(٢) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ١٣٧/٢.

(٣) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٨٤٩-٨٥٠، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٢١٧/١-٢١٨، ح/١٧٥.

(٤) ابن فهد الحلّي، عدّة الدّاعي: ٢١٨.

النّاس محضرون للحساب إلا المخلصين؛ فإنَّهم يجتازون عقبات القيامة بلا حساب، يقول تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[(١)].

وتؤكّد آيات أخرى أنَّ الله تعالى يعطي كلّ إنسان بمقدار عمله إلا المخلصين؛ فإنَّه تعالى يعطيهم بلا حساب ولا حدود، يقول تعالى: ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[(٢)].

كَيْفَ يَتَحَقَّقُ الإِخْلاصُ؟

لا يتحقّق الإخلاص في فكر الإنسان، وسلوكه إلا بمعرفة الله تعالى، معرفة تجعله يشعر، ويحسّ بهيمنته عزَّ وجلَّ، وإدراك نعمته قدر المستطاع؛ فإنَّ المعرفة تولد وتورث المحبة لله عزَّ وجلَّ، والمحبّة تورث الإخلاص، يقول العلامة الطّباطبائي قدس سره: «وأما محبّة الله سبحانه؛ فإنَّها تطهّر القلب من التّعلّق بغيره تعالى من زخارف الدّنيا وزينتها من ولد أو زوج أو مال أو جاه، حتى النّفس وما لها من حظوظ وآمال، وتقصر القلب في التعلق به تعالى، وبما ينسب إليه من دين، أو نبي، أو ولي، أو سائر ما يرجع إليه تعالى بوجه فإنَّ حبَّ الشّيء حبٌّ لآثاره.

فهذا الإنسان يحبّ من الأعمال ما يحبّه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويرضى برضا الله ولرضاه، ويغضب بغضب الله ولغضبه، وهو النّور الّذي يضيء له طريق العمل، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي

(١) الصّافات: ١٢٧-١٢٨.

(٢) الصّافات: ٣٩-٤٩.

ٱلنَّاسِ ﴾[١]»[٢].

ولا يتحقق الحبّ الّذي يورث الإخلاص إلا بعد مجاهدات نفسيّة، ومعاناة شديدة، يقول الشّهيد الثّاني قُدِّسَ سِرُّهُ: «هذه الدّرجة -وهي درجة الإخلاص- عظيمةُ المقدار، كثيرةُ الأخطار، دقيقةُ المعنى، صَعْبةُ المرتقى، يحتاج طالبها إلى نظر دقيق، وفكر صحيح، ومجاهدة تامة. وكيف لا يكون كذلك، وهو مدار القبول، وعليه يترتّب الثّواب، وبه تظهر ثمرة عبادة العابد، وتعب العالم، وجدّ المجاهد»[٣].

كلّ هذا لأجل اجتياز العقبات الواقعة في طريق الإنسان إلى الله، وأهمُّ هذه العقبات وأصعبها هي هوى النّفس وميولها وغرائزها؛ لذلك لا بدّ من اجتياز ذلك أولاً، فإذا تحقّق ذلك انتفى حبُّ الدُّنيا، والتَّعلُّق بها، والإنشداد إلى زخارفها؛ ولهذا لا بُدَّ للإنسان الذي يريد أن ينال درجة الإخلاص أن يكافح حالة التَّعلُّق بالدُّنيا؛ لكي يتحرَّر من سلطانها، فيملكها ولا تملكه، ويصبح مصداقاً لقوله تبارك تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[٤].

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١١/١٦٠.

(٣) منية المريد: ١٤٢.

(٤) الحديد: ٢٣.

(الْبَحْثُ الرّابِعُ)

الْعُبودِيَّةُ تَحَرُّرٌ وَانْطِلاقٌ

تَمهيدٌ:

أهمّ حقيقة دينيّة في حياة الإنسان تبرز فيها الإرادة الأساسيّة والهدف الأكمل من خلقه هي تعبيد نفسه لله تعالى، عن علمٍ، وطوعٍ، واختيارٍ؛ وهذه الحقيقة هي جوهر الإسلام وروحه، صحيح أنَّ الإسلامَ دينٌ: سياسةٍ، واجتماعٍ، واقتصادٍ، بل يشمل جميع جوانب الحياة الماديّة والمعنويّة... إلا أنَّ هذه الأمور كلّها أجزاء مترابطة يكمل بعضها البعض الآخر، والإسلام يريد أن يُكَوِّنَ كياناً واحداً مستقلاً: هو الإنسان العبد لربِّه دون سواه، أو العبد لله سبحانه وتعالى.

فالإسلام يريد السّياسيّ العابد، والاقتصاديّ الزّاهد، والاجتماعيّ الّذي يجسّد للمجتمع رسالة الله تعالى في سلوكه، وهذه الخصال كلّها أطرٌ لجوهرٍ اسمه (**العبوديّة لله تعالى**)، وهي أسمى درجات التّحرّر الدّاخليّ والخارجيّ، حيث إنَّها تتركّب من قطبين: قطب رفض «لا إله»، وقطب إثبات «إلا الله»، وفي اندماج هذين القطبين في شعور الإنسان، ووجدانه، وفكره، وعواطفه يبلغ نهاية التّحرّر عما سوى الله تعالى، وهي: الاستسلام لأمره، والرضى بقضائه وقدره، والتّطبيق لأحكامه، والخضوع لحكومته من دون اعتراض، أو تساؤل: لماذا؟

وكيف؟ ومتى؟

«**إِنَّ الإِسْلامَ هُوَ التَّسْلِيمُ**» إذن العبوديّة هي التّسليم المطلق لله تعالى.

بعد هذا نبحث الموضوع في نقاطٍ بشكل مفصّل:

ما هي حقيقة العبوديّة؟ ما هي العناصر المكوّنة للعبوديّة؟ ما هي العوامل التي تفسد العبوديّة؟ أيّ العوامل التي تخرج العبد من إطارها؟ ما هي نتائج وآثار العبودية في الشخصية؟

حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ:

العبوديّة لغةً هي: إظهار (غاية التّذلّل)[1] للسّيّد المعبود بامتثال أمره، والرضى بقضائه، والانتهاء عن نواهيه، والاندكاك في طاعته قلباً، وقالباً؛ فلا إرادة للعبد مع إرادة مولاه.

وفي الفكر الإسلاميّ تعني: تحكيم إرادة الله تعالى التّشريعيّة في إرادة الإنسان النفسيّة والعقليّة بصورة اختياريّة؛ فهي: تسليمٌ، وطاعةٌ، واتّباعٌ، وانقيادٌ مطلقٌ لأمر الله تعالى.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[3].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) ينظر: المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٨/١١-١٢.

(٢) لقمان: ٢٢.

(٣) الأنعام: ٧١.

﴿يَحْزَنُونَ﴾[(١)].

والتَّسليم يعني أن يُسخّر الإنسان - بمحض إرادته - كلّ طاقاته الفكريّة والنفسيّة، والجسميّة؛ لتحقيق إرادة الله تعالى في الأرض؛ فالعبد لا يرى هذه الطّاقات فيه إلا وديعة أودعها الله تعالى فيه، وأراد منه أن يصرفها في سبيله، كما أوضح ذلك الإمام الصادق عليه السلام لعنوان البصريّ عندما طلب من الإمام أن يفيض عليه من علمه؛ لينهل من معارفه، فقال عليه السلام: «... **فَإِنْ أَرَدْتَ الْعِلْمَ؛ فَاطْلُبْ أَوَّلاً في نَفْسِكَ حَقيقَةَ الْعُبودِيَّةِ، وَاطْلُبْ الْعِلْمَ باسْتِعْمالِهِ، وَاسْتَفْهِمِ اللهَ يُفْهِمْكَ**».

قال عنوان: «قلتُ: يا أبا عبد الله، ما حقيقة العبوديّة؟ قال: **ثَلاثَةُ أَشْياء: أَنْ لا يَرى الْعَبْدُ فيما خَوَّلَهُ اللهُ مُلْكاً؛ لأَنَّ الْعَبيدَ لا يَكونُ لَهُم مُلْكٌ، يَرَوْنَ الْمالَ مالَ الله، يَضَعونَهُ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، وَلا يُدَبِّرُ الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ تَدْبيراً**[(٢)]**، وَجَعَلَ اشْتِغالَهُ فيما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى أَنْ يُنْفِقَ فيهِ، وَإِذا فَوَّضَ الْعَبْدُ تَدبيرَ نَفْسِهِ إلى مُدَبِّرِهِ هانَ عَلَيْهِ مَصايِبُ الدُّنْيا، وَإِذا اشْتَغَلَ الْعَبْدُ بِما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى وَنَهاهُ لا يَتَفَرَّغُ مِنْهُما إِلى الْمِراء وَالْمُباهاةِ مَعَ النّاسِ، وَإِذا أَكْرَمَ اللهُ الْعَبْدَ بِهذِهِ الثَّلاثَةِ هانَ عَلَيْهِ الدُّنْيا، وَإِبْلِيسُ، وَالْخَلْقُ، وَلا يَطْلُبُ الدُّنْيا تَكاثُراً أَوْ تَفاخُراً، وَلا يَطْلُبُ ما عِنْدَ النّاسِ عِزّاً وَعُلُوّاً، وَلا يَدَعُ أَيّامَهُ باطِلاً، فَهذا أَوَّلُ دَرَجَةِ التُّقى.**

قالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

(١) البقرة: ١١٢.

(٢) ينبغي أن لا يفهم من قوله عليه السلام: «ولا يدبّر...الخ» أنّ هذا يفيد التّفويض المعروف عند بعض المذاهب، وإنّما هذا الحديث يقيّد بقوله عليه السلام: «لا جَبْرَ وَلا تَفْويضَ، بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ»، كتاب التّوحيد للشّيخ الصّدوق: ٢٠٦.

﴿وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(١)]»[(٢)].

فإذا تَخَلَّقَ الإنسان بهذه الخلائق، واعتنق تلك المبادئ عن إيمان، ووعـي، تكون (نفسه نفس عبد لله الذي هو ربّ كلّ شيء، فلا يرى نفسه، ولا شيئاً غيـره إلا مملوكاً لله، خاضعاً لربوبيّته، لا يؤوب إلا إلى ربّه، ولا يرجع إلا إليه كمـا قـال تعالى في سليمان وأيّوب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[(٣)])[(٤)].

ولعلّ هذا المعنى – والله أعلم – هو المراد من قوله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[(٥)].

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾[(٦)].

إذن حقيقة العبوديّة أن يضع العبد نفسه موضع الذّلّـة لربّـه، ويوجّه وجهـه إلى مقام قدسه، ويُسْكِنُ قلبه خشيته، بل ينقطع عن نفسه وعـن كـلّ شـيء آخـر؛ فلا يرى مؤثّراً في الوجود إلا إيّاه تبارك وتعالى، وإذا تحقّـق ذلـك فـي شخصـيّة المؤمن فإنَّه سيرفض كـلّ أشـكال الخضـوع، والتّبعيّـة لغيـر الله تعـالى، وهـذا هـو المقصود من شعار التّوحيد الخالد «**لا إِلهَ إِلا الله**»، يقـول السّـيّد الشّـهيد الصّـدر قُدِّسَ سِرُّهُ: «ونحن إذا لاحظنا الشّعار الرّئيسي الذي طرحته السّماء بهذا الصّدد: «**لا إِلهَ إِلا الله**»، نجد أنّها قرنت فيه بين شدّ المسيرة الإنسانية إلى المطلق الحـقّ، ورفـض

(١) القصص: ٨٣.

(٢) كشكول البهائي: ٢/٤٠٤-٤٠٥.

(٣) ص: ٣٠، ص: ٤٤.

(٤) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢٥٢/٦.

(٥) الأعراف: ١٨٨.

(٦) يونس: ٤٩.

كلّ مطلق مصطنع.

وجاء تأريخ المسيرة في واقع الحياة على مرّ الزمن؛ ليؤكد الارتباط العضويّ بين هذا الرفض، وذلك الشدّ الوثيق الواعي إلى الله تعالى، فبقدر ما يبتعد الإنسان عن الإله الحقّ ينغمس في متاهات الآلهة والأرباب المتفرّقين. فالرّفض والإثبات المندمجان في «**لا إلهَ إلا الله**» هما وجهان لحقيقةٍ واحدة، وهي حقيقة لا تستغني عنها المسيرة الإنسانيّة على مدى خطّها الطويل؛ لأنّها الحقيقة الجديرة بأن تُنْقِذَ المسيرة من الضّياع، وتساعد على تفجير كلّ طاقاتها المبدعة، وتحرّرها من كلّ مطلقٍ كاذبٍ معيقٍ»(١).

وكما أنّ العبوديّة لله تعالى هي التّحرّر من كلّ الضواغط الخارجيّة؛ فإنّ هذا التّحرّر لا يتحقّق للإنسان إلا إذا تحرّر من جميع الضواغط الداخليّة في نفسه، وهذا هو منتهى التّحرّر من نوازع النّفس الأمارة بالسّوء؛ يصقلها، ويصفيها، من كلّ الأدران، وذمائم الأخلاق، وهذه هي التّزكية الواردة في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾(٢).

وخلاصة الكلام: «إنّ العبودية لله وحده - متمثّلة في تلقّي الشّرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده - هي نقطة الانطلاق والتّحرّر البشريّ. الانطلاق والتّحرّر من سلطان الجبّارين والطّغاة، ومن سلطان السّدنة والكهنة، ومن سلطان الأوهام والخرافات ومن سلطان العرف والعادة، ومن سلطان الهوى والشّهوة. ومن كلّ سلطان زائف يمثّل الإصر الذي يلوي أعناق البشر، ويخفض

---

(١) السيّد الشّهيد الصّدر، الفتاوى الواضحة: ٧٥٨، نظرة عامّة في العبادات.

(٢) الشّمس: ٩-١٠.

جباههم لغير الواحد القهار»[١].

الْعَناصِرُ الْمُكَوِّنَةُ لِلْعُبودِيَّةِ:

العبوديّة لله حالة فكريّة تترسّخ -بالتّدريب والمران بصورة تدريجيّة -في النّفس، وتتحوّل كلّما تعمَّقت المعرفة بالله، وأسمائه، وصفاته، والعمل بأحكام رسالته من حالة شعورية إلى حالة سلوكية في الحياة، فهي ليست طقوساً يؤدّيها العبد، ولا كلمات يتلفّظ بها، وإنّما أداء هذه الشّعائر أثرٌ من آثارها، وتتكامل هذه الحالة في الإنسان إذا توفّرت فيه عناصر عدّة أهمّها:

١- المعرفة بالله تعالى: ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الإنسان كلّما زادت معرفته بالله تعالى ازداد ذلاً له، وخوفاً منه، وخضوعاً إليه، وتعظيماً لمقامه، ودون المعرفة لا يتحقّق شيءٌ من ذلك؛ ولهذا فإنَّ التَّعظيم، والخوف، والخضوع، والحبّ يتناسب تناسباً طرديّاً مع المعرفة، فكلّما ازدادت المعرفة ازدادت الهيبة، والخوف، والخضوع، والخشوع، والتّعبّد بالطاعة لله تبارك وتعالى... فلا يعصي الله تعالى من عرفه؛ وأقصد بـ(المعرفة) أن يدرك المؤمن بقلبه -لا بعقله فحسب -أي ما أدركه عقله من المعرفة ينزل على صفحات القلب حتى تنطبع عليه، وبعبارة الإمام الخميني قدّس سرّه: «أن يكتب السّالك بقلم العقل ما أدركه العقل بقوّة البرهان والسّلوك العلمي على صفحة قلبه، ويوصل إليه حقيقة ذُلّ العبودية، وعزّ الرّبوبيّة، ويحرّره من القيود، والحجب العلميّة»[٢].

فإذا أيقن الإنسان بوعي أنَّ الله تعالى خالقه وجميع الكون، وهو المنعم

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٥٠٩/١.

(٢) الإمام الخميني، آداب الصّلاة: ٢٩، طبعة: مؤسسّة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينيّ قدّس سرّه.

والمحيي والمميت، وأنّه بعينه تعالى أينما حلّ وارتحل، لا تخفى عليه خافية، يعلم لحظات الأبصار، وخواطر القلوب، وحركة الجوارح، وأنّ كلّ ذلك يكتب له، أو عليه؛ إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً، وأنّ الله تعالى هو الشّاهد عليه، والحاكم له؛ فإذا تأصّلت هذه المعرفة في القلب، وتحقّقت تحقّقاً وجدانيّاً أصبحت تجري في عروقه مجرى الدّم، فإنّها ستملك عليه كلّ وجوده، وتحكم مشاعره، وأحاسيسه، وسلوكه، وهذا ما كان أهل البيت عليهم السلام يصبون تحقيقه، ويؤكّدونه في مناجاتهم لله تعالى؛ ففي دعاء الصّباح للإمام السجاد عليه السلام يقول:

«أَصْبَحْنا وَأَصْبَحَتِ الأَشْياءُ كُلُّها بِجُمْلَتِها لَكَ: سَماؤُها، وَأَرْضُها، وَما بَثَثْتَ في كُلّ واحِدٍ مِنْهُما: ساكِنُهُ، وَمُتَحَرِّكُهُ، وَمُقيمُهُ، وَشاخِصُهُ، وَما عَلا في الْهَواءِ، وَما كَنَّ تَحْتَ الثَّرى.

أَصْبَحْنا في قَبْضَتِكَ، يَحْوينا مُلْكُكَ وَسُلْطانُكَ، وَتَضُمُّنا مَشيئَتُكَ، وَنَتَصَرَّفُ عَنْ أَمْرِكَ، وَنَتَقَلَّبُ في تَدْبيرِكَ، لَيْسَ لَنا مِنَ الأَمْرِ إِلا ما قَضَيْتَ، وَلا مِنَ الْخَيْرِ إِلا ما أَعْطَيْتَ»[1].

وهكذا يذيب العارف إرادته في إرادة الله تعالى، فلا يريد إلا ما أراد الله تعالى، وكلّما ازداد المؤمن معرفةً بالله ازداد خوفاً، وخشيةً، وخضوعاً، وعبوديةً لله، يقول أمير المؤمنين عليه السلام مناجياً ربّه: «**مَنْ ذا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ وَمَنْ ذا يَعْلَمُ ما أَنْتَ فَلا يَهابُكَ**»[2].

وفي مناجاة الإمام السجاد عليه السلام: «**سُبْحانَكَ أَخْشى خَلْقِكَ لَكَ أَعْلَمُهُمْ**

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٤٠، دعاء: ٦، دعاؤه عند الصّباح والمساء.

(٢) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٣٤١/٨٧.

بكَ»[١].

وفي الحديث الشّريف عن أبي عبد الله عليه السلام: «**مَنْ عَرَفَ اللهَ خَافَ اللهَ، وَمَنْ خافَ اللهَ سَخَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيا**»[٢].

ومعرفة الله لا تحصل إلا بتوفّر عواملها، ومن أهمّها: طهارة القلب من الأدران والآثام، ومذامّ الأخلاق؛ يقول الإمام الخميني قدس سره: «وما لم يحصل الخروج من أمّهات المذامّ الأخلاقية التي هي مبدأ لفساد المدينة الفاضلة الإنسانيّة، ومنشأ للخطيئات الظاهريّة والباطنيّة لم يجد السّالك طريقاً إلى المقصد، ولا سبيلاً إلى المقصود»[٣].

ومع طهارة القلب، وزكاة النّفس لا بدّ من بذل الجهد المتواصل في الكدح إلى الله تعالى، والتّعبير القرآني واضح صريح في ذلك: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ**﴾[٤]؛ فكلمة الكدح بلفظها ومعناها، ونغمتها تدلّ على أنّ المسير إلى الله تعالى يحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ، ومعاناةٍ طويلةٍ، ورياضةٍ متواصلةٍ، قال العلامة الطّباطبائي: «وقيل: الكدح جهد النّفس في العمل حتى يؤثر فيها... وعلى هذا فهو مضمّن معنى السَّير بدليل تعديته بـ(إلى)، ففي الكدح معنى السَّير على أيّ حال.

وقوله: ﴿**فَمُلَٰقِيهِ**﴾ عطف على ﴿**كَادِحٌ**﴾، وقد بيَّن به أنَّ غاية هذا السَّير والسَّعي والعناء هو الله سبحانه بما أنَّ له الربوبية. أي إنَّ الإنسان بما أنَّه عبدٌ

(١) الصّحيفة السّجاديّة الكاملة: ٢٢١، دعاء: ٥٢، دعاؤه في الإلحاح.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ١٧٦/٣، ح/١٦٠٢.

(٣) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصّلاة: ١٥٣.

(٤) الانشقاق: ٦.

مربوبٌ، ومملوكٌ مدبّرٌ، ساعٍ إلى الله سبحانه بما أنَّه ربُّه ومالكه المدبّر لأمره؛ فإنَّ العبد لا يملك لنفسه إرادة، ولا عملاً فعليه أن لا يريد، ولا يعمل إلا ما أراده ربُّه ومولاه وأمره به، فهو مسؤول عن إرادته وعمله»(١).

٢- ثم لا بدّ لمن أراد نيل مقام العبوديّة السّامي من الصّبر على مشاقّ الطّريق حتى تتحوّل المعاناة في سبيل نيل المطلوب، واللّقاء بالمحبوب إلى لذّة للسّالك، يستأنس بها في حياته، فما جعل الله عباده الصالحين أئمّةً وقادةً إلا بالإيمان، والصبر، والإخلاص، يقول تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾(٢).

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾(٣).

وتحقّق هذا الأمر لا يتمّ بالصبر فقط، بل لا بدّ من الاصطبار، وهي درجة من المعاناة أشدّ وأعلى من الصّبر حيث يحبس المريد نفسه على العبادة، ويجاهد أهواءه بقوّة، يقول تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾(٤)، ولا يستطيع أن يتحمّل مشاقّ الطريق، ومرارته بنفسه، وقوّته إذا لم يستمدّ الصَّبر من الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾(٥).

والصّبر الذي نقصده هنا هو الصّبر على الطاعة، والصّبر عن المعصية، وهو أول دعائم الإيمان، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإِيْمانُ عَلى أَرْبَع دَعائِم: عَلى**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٤٢/٢٠.

(٢) السّجدة: ٢٤.

(٣) الأعراف: ١٣٧.

(٤) مريم: ٦٥.

(٥) النّحل: ١٢٧.

الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهادِ؛ فَالصَّبْرُ مِنْها عَلى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ؛ فَمَنِ اشْتاقَ إِلى الْجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَواتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّماتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيا اسْتَهانَ بِالْمُصيباتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سارَعَ إِلى الْخَيْراتِ»[1].

فالصّبر إذن يضع الإنسان على خطّ متحرّك بين أملٍ يلوح ويبرق من بعيد، وبين ألمٍ ومعاناةٍ يكابد منها، ويصبر عليها حتى يتحوّل الأملُ إلى حقيقةٍ، والألمُ والمعاناةُ إلى قوّةٍ للنّوازع الذّاتيّة، والضواغط الخارجية، ومقاومةٍ لها.

٣- ثمّ العنصر المهمّ في تحقق العبودية لله هو الإخلاص في الطلب، أي التجرّد المطلق لأجل كسب رضى الله، فرضوانه تعالى غاية في كلّ عمل يقوم الكادح به، وهذا هو تمام الإخلاص.

وخلاصة القول: العبوديّة المطلقة لله تعالى تتحقّق في نفس الإنسان من خلال معرفته، وفعاليّته، وإرادته تحت رعاية الله، وهدايته، واستمداد العون منه تعالى، ولا يتحقّق ذلك إلا بالصّبر، والمعاناة، والمجاهدة النّفسيّة في سبيل الله تعالى.

وكما أنَّ معرفة الله تعالى أصل العبودية لله تبارك وتعالى وعمادها الّتي لا تقوم دونه؛ فإنَّ معرفةَ أحكامه تعالى، والتَّفقّهَ بها فرعُ تلك المعرفة؛ ولذلك فإنَّ من مهمات المسائل في الفكر الإسلامي هي التّفقّه بأحكام الله تعالى؛ لأنَّ طاعة العبد لا تتحقّق دون معرفة أوامر المولى ونواهيه، وكيف يمتثل أوامر الله تعالى من يجهل أحكامه؟

(١) نهج البلاغة: ٤٩٠، قصار الحكم: ٢٧.

ومن هنا جاء التّأكيد متواصلاً على التّفقّه بدين الله تبارك وتعالى، يقول أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**إذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً فَقَّهَهُ في الدّينِ**»[١].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**يا جابِرُ، - وَاللهِ - لَحَديثٌ تُصيبُهُ من صادِقٍ، في حَلالٍ وَحَرامٍ، خَيْرٌ لَكَ مِمّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ حَتّى تَغْرُبَ**»[٢].

وقال الصادق عليه السلام: «**حَديثٌ في حَلالٍ وَحَرامٍ، تَأْخُذُهُ من صادِقٍ، خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيا وَما فيها مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ**»[٣].

فمكسب يكسبه الإنسان تكون له هذه المثابة من الأجر والثواب العظيم لا يمكن أن يكون بهذه الأهمية إلا لأنّه يؤدّي إلى معرفة الله تعالى؛ ولذلك فإنّ شرط تذوّق المرء لحقيقة الإيمان هو التّفقّه في دين الله تعالى، يقول عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يَذوقُ الْمَرْءُ مِنْ حَقيقَةِ الإيمانِ حَتّى يَكونَ فيهِ ثَلاثُ خِصالٍ: الْفِقْهُ في الدّينِ، وَالصَّبْرُ عَلى الْمَصائِبِ، وَحُسْنُ التَّقْديرِ في الْمَعاشِ**»[٤].

والفقه هو العلم بأحكام الشّريعة المقدّسة، يقال: فَقِهَ الرّجلُ إذ صار فقيهاً؛ وقال ابن منظور: «الفقه: العلم بالشّيء والفهم له... والفقه في الأصل الفهم»[٥].

ولم ينحصر معنى التّفقّه بالتّفهّم، بل لا بدّ من التّبصّر بأحكام الله تعالى، قال صاحب مجمع البحرين: - في تعليقه على حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٧٧/١، ح/٤٩.

(٢) البرقي، المحاسن: ٣٥٦/١، ح/٧٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٨/١، ح/٧٦٦.

(٤) بحار الأنوار: ٨٥/٧١.

(٥) ابن منظور، لسان العرب: ٥٢٢/١٣، باب (فقه).

حَفِظَ عَلى أُمَّتي أَرْبَعينَ حَديثاً بَعَثَهُ اللهُ فَقيهاً عالِماً» - «قال بعض الشّارحين: ليس المراد به الفقه بمعنى الفهم؛ فإنّه لا يناسب المقام، ولا العلم بالأحكام الشّرعيّة عن أدلّتها التفصيليّة؛ فإنّه مستحدث، بل المراد البصيرة في أمر الدين، والفقيه أكثر ما يأتي في الحديث بهذا المعنى، فالفقيه هو صاحب البصيرة، وإليها أشار ﷺ بقوله: **لا يَفْقَهُ الْعَبْدُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَمْقُتَ النَّاسَ في ذاتِ اللهِ، وَحَتّى يَرى لِلْقُرْآنِ وُجوهاً كَثيرَةً، ثُمَّ يُقْبِلُ عَلى نَفْسِهِ، فَيَكونُ لَها أَشَدَّ مَقْتاً»**[1].

فالتّفقّه إذن هو التّبصّر في دين الله تعالى، وهو عبارة عن وضوح الرّؤية لما عليه الواقع في حقيقة أمره، وما تهدف إليه الرّسالة من حيث النّظرية، والتّطبيق لتغيير الواقع الفاسد إلى واقع سليم؛ فالبصير هو العارف بدين الله تعالى، الواعي لحكمه، والملتزم به، والمستقيم عليه، في كلّ الأحوال؛ ولهذا نقصد بذوي البصائر: (الفئة الواعية للإسلام على الوجه الصحيح، والملتزمة به في حياتها بشكل دقيق، بحيث تتّخذ مواقف مبدئيّة من المشكلات التي تواجهها في الحياة والمجتمع، ولا تقف على الحياد أمام هذه المشكلات، وإنّما تعبّر عن التزامها النّظريّ بالممارسة اليوميّة للنّضال ضدّ الانحرافات)[2].

يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3].

---

(١) الشّيخ الطّريحي، مجمع البحرين: ٣٥٥/٦، باب (فقه).

(٢) الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، أنصار الحسين: ١٨٦.

(٣) يوسف: ١٠٨.

إذن التّفقّه في دين الله يؤدّي إلى التّبصّر في أمر الله تعالى، والتّبصّر في أحكام الله يجعل الإنسان عبداً حقيقيّاً لله تعالى، يعي ما يسمع، ويطبّق ما يتلقّى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَإِنَّما الْبَصيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفكَّرَ، ونَظَرَ فَأَبْصَرَ، وانْتَفعَ بالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً**[1] **واضِحاً يَتَجَنَّبُ فيهِ الصَّرْعَةَ في الْمَهاوي، وَالضَّلالَ في الْمَغاوي**»[2].

الْعَوامِلُ الّتي تُخْرِجُ الإِنْسانَ مِنَ الْعُبودِيَّةِ للهِ تَعالى:

إنّ ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الإنسان في طريقه إلى الله يتعرّض لعقبات ومؤثّرات تقف عثرة في تحقيق الوصول إلى الله تعالى، في امتثال إرادته تعالى؛ وأهمّ هذه المؤثرات هي:

١- **الانصياع للأهواء**: وهي العدوّ الدّاخليّ للإنسان؛ فعندما ينصاع إليها، ويستسلم لها؛ فإنَّها تتحول إلى معبودٍ له دون الله تعالى، وهذا ما أكّده القرآن الكريم في عدّة آيات:

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[3].

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾[5].

---

(١) الجدد: الأرض الصّلبة.

(٢) نهج البلاغة: ٢٤٤، خطبة: ١٥٣.

(٣) الفرقان: ٤٣.

(٤) الجاثية: ٢٣.

(٥) الأنعام: ١١٩.

فاتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ، ويبعد الإنسان عن جادّة الصّواب، وبهذا يخرج الإنسان من كونه عبداً لله إلى عبدٍ لأهوائه وشهواته؛ وهذه هي أخطر العقبات التي تواجه الإنسان في حياته الرّساليّة، وإذا لم يقاوم أهواءه فلا بدّ أن ترديه في مستنقع الضّلالة.

٢- الجهل بالله وأحكامه: حيث إنَّ الجهلَ بالله تعالى وأحكامه داءٌ وبيلٌ يوقع الإنسان في مستنقعات الضّلال، ويخرجه من ولاية الله إلى ولاية الشيطان، يهيم في كلّ وادٍ مهلك؛ فمن لا يستضيء بنور العلم يتيه في ظلمات الغيِّ، ومن المعلوم أنَّ الطاعة لا تتحقّق بدون العلم، وطاعة بلا علم ولا معرفة لا اعتبار لها في ميزان الإسلام؛ لأنّ «**الْعامِلَ عَلى غَيْرِ بَصيرةٍ كالسّائِرِ عَلى غَيْرِ الطّريق، وَلا يَزيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ مِنَ الطَّريقِ إلا بُعْداً**»[1]، و«**لا يَقْبَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلاً إلا بِمَعْرِفَةٍ، وَلا مَعْرِفَةً إلا بِعَمَلٍ، فَمَنْ عَرَفَ دَلَّتْهُ الْمَعْرِفَةُ عَلى الْعَمَلِ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلا مَعْرِفَةَ لَهُ، إنَّ الإيمانَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ**»[2]، وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَلى غَيْرِ عِلْمٍ كانَ ما يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمّا يُصْلِحُ**»[3].

وأروع صورةٍ للعامل على غير علم ما رسمته ريشة أمير الحكمة والبيان علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال: «**الْمُتَعَبِّدُ عَلى غَيْرِ فِقْهٍ كَحِمارِ الطّاحونَةِ يَدورُ وَلا يَبْرَحُ، وَرُكْعَتانِ مِنْ عالِمٍ خَيْرٌ من سَبْعينَ رَكْعَة مِن جاهِلٍ؛ لأَنَّ**

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٥٠٧، ح/٧٠٥، وترتيب الأمالي للمحمودي: ١/١٦٠، ح/١١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٥٠٨، ح/٧٠٦، وترتيب الأمالي: ١/١٦١، ح/١١٧.

(٣) المحاسن: ١/٣١٤، ح/٦٢١.

الْعالِمَ تَأْتيه الْفِتْنَةُ، فَيَخْرُج مِنْها بِعِلْمِهِ، وَتَأْتي الْجاهِلَ، فَتَنْسِفهُ نَسْفاً، وَقَليلُ الْعَمَلِ مَعَ كَثيرِ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ كَثيرِ الْعَمَلِ مَعَ قَليلِ الْعِلْمِ وَالشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ»[١].

٣- حبُّ الدنيا: ورد في الحديث الشريف: «**حُبُّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطيئَةٍ**»[٢]، ولا شكَّ أنَّ من أحبَّ شيئاً انقاد إليه، ومن انقاد لشيء بغير أمر الله تعالى فقد عَبَدَهُ؛ ولذلك عندما يصبح حبُّ الدنيا هو قطب الرّحى في حياة الإنسان فإنَّه سيتمحور على ذلك القطب، ويتقوقع فيه، ولا يستطيع الخروج عن دائرته، وما لم يُخرج الإنسانُ حبَّ الدنيا من قلبه لا يمكن أن يدخل حبَّ الله فيه، فـ ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[٣]، وعندما يصبح الإنسان عبداً للدّنيا تصبح غايته الأولى والأخيرة حتى يعود لا يرى شيئاً غيرها، وبذلك تملكه الدّنيا، ولا يملكها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَكَذلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيا في عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُها مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَها عَلى الله، فَانْقَطَعَ إِلَيْها، وَصارَ عَبْداً لَها**»[٤].

وهكذا يستحوذ حبُّ الدُّنيا على القلب إلى أن يصل (إلى مستوى بحيث إنَّ الإنسان لا يرى شيئاً إلا ويرى الدُّنيا فيه، وقبله، وبعده، ومعه. حتّى الأعمال الصالحة تتحوّل عنده وبمنظاره إلى دنيا، تتحوّل عنده إلى متعة، إلى مصلحة شخصيّة، حتّى الصّلاة، حتى الصّيام، حتى البحث، حتى الدّرس، هذه الألوان كلّها تتحوّل إلى دنيا لا يمكنه أن يرى شيئاً إلا من خلال الدّنيا، إلا من خلال

---

(١) الشّيخ المفيد، الاختصاص: ٢٤٥.

(٢) الكافي: ٧٧١/٣، ح/٢٥٩٣.

(٣) الأحزاب: ٤.

(٤) نهج البلاغة: ٢٥٧، خطبة: ١٦٠.

مقدار ما يمكن لهذا العمل أن يعطيه من حفنة مال أو من كومة جاه لا يمكن أن يستمرّ معه إلا بضعة أيام معدودة»[١].

وإذا تأمّلنا في هذه العوامل الثّلاثة نجدها هي الأساس في كلّ المفاسد الاجتماعيّة، والأخلاقيّة، والسياسيّة؛ وكلّ ما حدث من جرائم، وظلم، ومفاسد في الجامعة البشرية على طول خط التّأريخ فإنّه من جراء هذه العوامل الثلاثة... فعندما ينصاع المرء لأهوائه، ويستحوذ حبّ الدنيا على قلبه يصبح جاهلاً بسرٍّ وجوده، وعلّة إيجاده، وبذلك يخرج الإنسان من كونه عبداً لله تعالى إلى عبدٍ للدُّنيا وأهوائه فيها.

نَتائِجُ الْعُبودِيَّةِ الْحَقَّةِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ:

إذا تحقّقت العبوديّة لله تعالى في شخصيّة الإنسان المؤمن فسيجد لها آثاراً بالغة الأهمية في حياته النّفسيّة، والعقليّة، والبدنيّة؛ نذكر منها:

١- يجد في نفسه الطمأنينة والرّضى والاستئناس بذكر الله تعالى في كلّ الأحوال السّلبيّة، والإيجابيّة، في الشّدّة، والرّخاء، وفي السّرّاء والضّرّاء، يقول العلامة الطباطبائي: «إنّ العبودية إذا تمكّنت من نفس العبد، ورأى ما يقع عليه بصره، وتبلغه بصيرته، مملوكاً لله، خاضعاً لأمره، فإنّه يرضى عن الله، فإنّه يجد أنّ كلّ ما آتاه الله فإنّما آتاه من فضله من غير أن يتحتّم عليه، فهو جود ونعمة، وأنّ ما منعه فإنّما منعه عن حكمة»[٢].

وأدقُّ وصف لذلك ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «**نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ في**

(١) الشّهيد الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ١٩٤.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٢٥٢.

الْبَلاءِ كَالَّتي نَزَلَتْ في الرَّخاءِ»[(١)].

٢- يصبح حرّاً من جميع القيود الدّاخلية كالحرص، والطّمع، والحسد، والجشع، والرّياء، والنّفاق، وجميع الأهواء النفسيّة التي تهبط به إلى مستوى الحيوان، كما أنّه لا يخضع للضغوط الخارجيّة؛ فلا يساوم، ولا يخادع، ولا يتزلّف للظّالمين مهما كلّفه ذلك من تضحيات؛ لأنَّه لا يرى مؤثّراً في الوجود إلا مولاه الحقّ.

٣- يحسّ ويشعر في أعماق نفسه بأنّه لا يملك من أمره شيئاً، وإنّما هو رهن إرادة الله تعالى وقدره، خاضعاً لحكمه، ممتثلاً لأمره، وبذلك يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ**﴾[(٢)].

٤- إنَّ قيمة الأعمال عنده تستمدّ من بواعثها لا من منافعها ونتائجها؛ لأنَّ العبد مسؤول عن الامتثال، وغير مسؤول عن النّتائج.

٥- ومن النّتائج المهمّة لتحقّق العبودية، أنَّ العبد لله تعالى لا يستطيع أن يصانع أو يضارع الظالمين؛ لأنَّ عبوديته لله تمنحه قوّة، وصلابة، تجعله يتمتّع بالاستقلال الفكري، فلا يمكن أن يخضع لما يخالف أمر الله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في بيان صفات العامل لإقامة هذا الدّين: «**لا يُقيمُ أَمْرَ اللهِ سُبْحانَهُ إِلا مَنْ لا يُصانِعُ، وَلا يُضارِعُ، وَلا يَتَّبِعُ الْمَطامِعَ»**[(٣)].

٦- الزّهد في الدنيا، وزخارفها، ومتاعها حتى تصبح لديه مزرعةً لآخرته،

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

(٣) نهج البلاغة: ٥٠٤، قصار الحكم: ١١٠.

همّه فيما يرضي الله تعالى فقط؛ لا تستهويه سمعة، ولا يطغيه مال، ولا سلطان، ولا تكبر عليه مصيبة، أو عقبة في طريق الله، فهو صبّار محتسب على كلّ حال.

٧- وأخصر عبارة وأروعها في سمات عبيد الله تعالى ما رسمه أمير المؤمنين عليه السلام في لوحةٍ متجسّدةٍ ناطقةٍ ماثلةٍ أمام عين النّاظر في وصف المتّقين من عباد الله تعالى، يقول عليه السلام: «**فَمِنْ عَلامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرى لَهُ قُوَّةً في دينٍ، وَحَزْماً في لينٍ، وَإِيماناً في يَقينٍ، وَحِرْصاً في عِلْمٍ، وَعِلْماً في حِلْمٍ، وَقَصْداً في غِنًى، وَخُشوعاً في عِبادَةٍ، وَتَجَمُّلاً في فاقَةٍ، وَصَبْراً في شِدَّةٍ، وَطَلَباً في حَلالٍ، وَنَشاطاً في هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ**»(١).

وهذه العبارة المباركة قد جمعت كلّ نتائج تحقق العبوديّة، وماذا يقول القائل بعد قول سيد عباد الله بعد نبيّه.

لِماذا يَسْتَعْبِدُ اللهُ تَعالى خَلْقَهُ؟

للجواب على هذا السؤال لا بدّ أن نعرف أوّلاً: ما العلّة من خلق الإنسان؟

إنّ الله تعالى إنّما خلق الإنسان؛ ليكون خليفته في الأرض، والخلافة تحتاج إلى سير تكامليّ يبني الإنسان شخصيته بها بصورة تدريجيّة؛ لتصبح قادرةً على حمل أعباء الخلافة عن الله تعالى.

ولمّا كان الإنسان ذات نوازع داخليّة، وشهوات، وميول، وأهواء، فلا بدّ من وضع عواصم تعصمه عن الوقوع في الزّلل، فشرَّع الله العبادات؛ ليبني الإنسان بها شخصيته بناءً إلهيّاً؛ إذن فالغرض من العبادة تكميل العبد لا منفعة المعبود،

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٣، خطبة: ١٩٣.

ولعلَّ هذا المعنى ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**أَمّـا بَعْـدُ؛ فَـإِنَّ اللهَ - سُبْحانَهُ وَتَعالى - خَلَقَ الْخَلْقَ حينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَـنْ طـاعَتِهِمْ آمِنـاً مِـنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصاهُ، وَلا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أَطاعَهُ**»[1].

وأما ألطف ما وصل إليه العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[2]، قال قدس سره: «قوله تعالى: ﴿**إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ استثناء من النَّفي لا ريب في ظهوره أنَّ للخلقة غرضاً، وأنَّ الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً، فقد قال: ﴿**لِيَعْبُدُونِ**﴾، ولم يقل لأُعبَد أو لأكون معبوداً لهم.

على أنَّ الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض، ويرتفع به حاجته، والله سبحانه لا نقص فيه، ولا حاجة له حتى يستكمل به، ويرتفع به حاجته، ومن جهة أخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغوٌ سفهيٌّ، ويُستنتج منه أنَّ له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته لا غرض خارج منه، وأنَّ لفعله غرضاً يعود إلى نفس الفعل، وهو كمال للفعل لا لفاعله، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان، وكمالٌ عائدٌ إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرَّحمة والمغفرة وغير ذلك»[3].

والنتيجة: أنَّ الله تبارك وتعالى إنّما يستعبد العباد؛ لكي تتكامل شخصيّاتهم فتسموا على حضيض الحيوانيّة، وتصبح مهيّأة لحمل رسالة الله تعالى، ومستعدّة

---

(١) الذّاريات: ٥٦.

(٢) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٣٨٦/١٨.

لقبول الرّحمة والفيض الإلهي، وبذلك يكونون خلفاء لله في أرضه.

وهذا النّوع من الاستعباد تحرير للإنسان من جميع الضّواغط الدّاخليّة والخارجيّة، وتهيئة للإنسان؛ لينطلق في رحاب الله، ويسكن بالتّالي جنّة الخلد في دار رحمة الله.

وختام القول: إنَّ العبوديّةَ مرتبةٌ ساميةٌ يحقّقها الله في عباده الصالحين، وخيرُ دليلٍ على علوِّ رتبتها ما في الشّهادة الثّانية: «**وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»؛ فقُدِّمَتْ العبوديَة على الرّسالة، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**أَحِبّونا بِحُبّ الإسْلامِ فَإِنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله قالَ: لا تَرْفَعوني فَوْقَ حقّي، فَإِنَّ الله تَعالى اتّخَذَني عَبْداً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَني رَسولاً**»(١).

(١) الهيثمي، مجمع الزّوائد: ٢١/٩.

(الْبَحْثُ الْخامِسُ)

الزُّهْدُ[1]

(1) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ مِنْ أَعْوَنِ الأَخْلاقِ عَلى الدّينِ الزُّهْدَ في الدُّنْيا**» الكافي: ٣/٣٣٢، ح/١٨٩٥ .

الزّهدُ لغةً: قال ابن منظور: «الزُّهد: ضدّ الرَّغبة والحرص على الدنيا...»[1].

وقال الرّاغب: «والزّاهد في الشّيء: الرّاغب عنه والرّاضي منه بالزّهيد، أي: القليل، ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[2]»[3].

ونقول: زهد في هذا الشّيء، أي رغب عنه، ولم يرغب فيه.

واصطلاحاً: هو حالة نفسيّة تولّد القناعة عند الإنسان، فتجعله يرغب عن مطالب النّفس، ويستجيب لها بمقدار حدّ الكفاية.

من أولى منطلقات الفكر الإسلامي في تربية الشّخصية الرّائدة هو تحريرها من الخضوع للضواغط الداخليّة المتمثّلة في الأهواء، والميول، والغرائز النّفسيّة؛ لأنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد في الكون الذي زوَّده الله تعالى بقوّتين: قوّة دافعة ملحّة ضاغطة وهي النَّفس، وقوّة مانعة منظّمة مميّزة وهي العقل؛ وأراد منه تغليب العقل على النَّفس.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ١٩٧/٣، باب (زهد).

(٢) يوسف: ٢٠.

(٣) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٣٠٠، باب (زهد).

والإنسان في مسيرته اليوميّة سواء كان في تعامله مع الله، أو مع نفسه، أو مع الطبيعة يقع بين هاتين القوّتين، فهو في نزاع وصراع داخلي بين قوّة متشعّبة الإرادات والنّوازع والأهواء والرّغبات؛ فهي تدفعه إلى طلب المال والسّلطان والجاه والشّهرة الواسعة، وتريد أن تنطلق ولا تتوقّف عند حدّ معيّن، ومرّة تدفعه إلى حبّ الرّاحة والدّعة والرّكون إلى كلّ ما تحب وتهوى... وهكذا.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يقف الشّرع الدّاخليّ الذي زوَّده الله تعالى به ليقول له: قف هنا، وتحرّك بهذا الاتّجاه، واعمل هذا العمل، واترك ذلك، ولا شكَّ أنَّ أوامر العقل وأحكامه تتعارض مع الرّغبة الجامحة في تحقيق الأهواء والميول؛ لأنَّ الأهواء والغرائز الحيوانيّة تريد منه أن يخلد إلى تراب الأرض، والعقلُ يريد أن يسمو إلى أعلى مراتب الكمال.

ورعايةً لذلك جاء الإسلام كنظام وتشريع إلهي للبشريّة أجمع؛ لتنظيم مسيرة الإنسان، ولخلق حالة التّوازن في حياته المادّية والمعنوية؛ لذلك لم يحرمه من تحقيق رغباته الفطرية، بل أباح له أن يتمتّع بها في حدود معيّنة ضمن نظام دقيق شرَّعه له، وأمره أن ينتهجه لتتوازن مسيرته الحياتية؛ ومن هنا حبَّبَ للإنسان الزُّهد في المعاني الدُّنيويّة الزّائلة كحبّ الظّهور، والجاه، والسّلطان، وكثرة المال، والعقار، وأن يأخذ منها بمقدار كفايته لا بمقدار رغباته؛ وفي الطّرف الآخر رَغَّبَه في نيل الخِلال والصفات الكريمة العالية: كالحكمة، والشّجاعة، والعفّة، والعدالة، ونيل الدَّرجات العالية من الإيمان، واليقين، والرّضا بأمر الله، والتَّسليم إليه، وهذه المعاني لا يمكن أن يحصل عليها ما لم يزهد بالمعاني الدُّنيويّة الزّائلة، ويتعلّق قلبه بالله تعالى؛ فعن علي بن إبراهيم، عن عليّ بن محمّد القاساني، عمَّن ذكره، عن عبد الله بن القاسم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إِذا**

أَرادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً زَهَّدَهُ في الدُّنْيا، وَفَقَّهَهُ في الدّينِ، وَبَصَّرَهُ عُيوبَها، وَمَنْ أوتِيَهُنَّ فَقَدْ أوتِيَ خَيْرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ»، وقال: «**لَمْ يَطْلُبْ أَحَدٌ الْحَقَّ بِبابٍ أَفْضَلَ مِنَ الزُّهْدِ في الدُّنْيا، وَهُوَ ضِدٌّ لِما طَلَبَ أَعداءُ الْحَقِّ**»، قلتُ: «جعلتُ فداك ممّا ذا؟»، قال: «**مِنَ الرَّغْبَةِ فيها**»، وقال: «**أَلا مِنْ صَبّارٍ كَريمٍ، فَإِنَّما هِيَ أَيّامٌ قَلائِلُ، أَلا إِنَّهُ حَرامٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَجِدوا طَعْمَ الإيمانِ حَتّى تَزهَدوا في الدُّنْيا**».

قال: وسمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إِذا تَخَلّى الْمُؤْمِنُ مِنَ الدُّنْيا سَما، وَوَجَدَ حَلاوَةَ حُبِّ اللهِ، وَكانَ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيا كَأَنَّهُ قَدْ خولِطَ، وَإِنَّما خالَطَ الْقَوْمَ حَلاوَةُ حُبِّ اللهِ، فَلَمْ يَشْتَغِلوا بِغَيْرِهِ**».

قال: وسمعته يقول: «**إِنَّ الْقَلْبَ إِذا صَفا ضاقَتْ بِهِ الأَرْضُ حَتّى يَسْمو**»[(١)].

حَقيقَةُ الزُّهْد:

لا يعني الزُّهد في الإسلام هجر الحياة الدّنيا بكلّ أشكالها، وتحريم لذائذها ولبس المسوح، والسّكن في الكهوف، واعتزال المجتمع البشريّ بصورة كلّية، والهيام في الفيافي والوديان، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**لَيْسَ الزُّهْدُ في الدُّنْيا بِإِضاعَةِ الْمالِ، وَلا بِتَحْريمِ الْحَلالِ، بَلِ الزُّهْدُ في الدُّنْيا أَنْ لا تَكونَ بِما في يَدِكَ أَوْثَقُ مِنْكَ بِما في يَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[(٢)].

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣٣٦/٣-٣٣٧، ح/١٩٠٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٢٥١-٢٥٢.

فالزُّهد إذن: ثقةٌ مطلقةٌ بالله تعالى، وأنَّ ما بيد الإنسان من معاني الدُّنيا هي ملك الله تعالى، جعلها وديعةً عنده، وأنَّ الله هو المانع وهو المعطي دون سواه؛ فإذا أيقن الإنسان بذلك بوعي وإخلاص، حينئذٍ يتحرّر من سيطرة أهوائه وميوله، ويوجّهها حيث يريد الله تعالى؛ فالزُّهد الحقيقيّ هو: (التّحرّر الدّاخليّ من قيد الشَّهوة والهوى، والانعتاق النَّفسيّ الحقيقيّ من الدُّنيا ومعانيها، وهو بذلك سبب ونتيجة في آن واحد للانقطاع إلى الله تعالى والارتباط بالسَّماء.. أو بالأحرى العبوديّة الكاملة لله في المشاعر والعواطف والسّلوك)[1].

إذن الزُّهد صفة نفسيّة تترسّخ في النَّفس بشكل تدريجيّ، وتزداد كلّما ازدادت المعرفة بالله تعالى، والمعرفة بحقيقة الدُّنيا، وإنّما نقول: الزُّهد معنى نفسيّ؛ لأنَّه ليس الزهد سوى التّحرّر الذّاتيّ من قيود الدّنيا وعلائقها بحيث يملكها ولا تملكه، فقد يزهد الإنسان بجانب من جوانب الحياة، ويحاول أن يبرز في جانب آخر من جوانبها كالشّهرة والسّمعة والجاه، وهذا شأن من يترك الدّنيا للدّنيا، ويخسر بذلك الدّنيا والآخرة... أمّا إذا وعى حقيقة الزُّهد في الإسلام وآمن به، وامتلك الإرادة القويّة، والعزيمة الماضية، وآمن بالنّظام الإلهيّ، وسلكه بوعي واقتدار فلا بدّ حينئذٍ أن يُحَكّمَ العقل والشّرع في سلوكه، وبذلك تتوازن مسيرته، فلا يميل إلى جانب دون آخر.

شُروطُ الزُّهْدِ:

قلنا: إنَّ الزُّهد هو الانصراف النّفسيّ عن الدّنيا، والرّغبة عن معانيها الزّائلة

---

(١) الشّهيد الشّيخ حسين معن، نظرات في الإعداد الروحيّ: ١٨٢.

والتّوجّه الكلّي؛ لنيل رضوان الله تعالى من خلال: امتثال أوامره، وتطبيق شريعته، وتحقيق إرادته في الأرض؛ ولذلك كان «**أَصْلُ الزُّهْدِ حُسْن الرَّغْبَةِ فيما عِنْدَ الله**»[1]، والكفّ عمّا حرّم الله تعالى، والتّنزّه عن الطّمع، والتّحلّي بالتّقوى والورع؛ فقد سُئِلَ الإمامُ الحسن عليه السلام: ما الزُّهد؟ قال: «**الرَّغْبَةُ في التَّقْوى، وَالزَّهادَةُ في الدُّنْيا**»[2].

وقد وضع علماءُ الأخلاق للزّهد شروطاً هي:

١- أن يكون المرغوب عنه [المعاني الدّنيويّة] مقدوراً عليه، حاصلاً لديه، ومسيطراً عليه، أو على الأقلّ القدرة على السّعي لأجل نيله، أمّا لو كان عاجزاً عن نيله، وتحصيله، ثمّ زهد فيه فليس هذا بزهدٍ، وإنما عجزٌ.

٢- أن يكون المرغوبُ عنه مرغوباً فيه من وجه من الوجوه، فمن زهد بشيء لا تميل إليه نفسه، وتنصرف عنه فهذا لا يسمّى زهداً، وإنّما الزُّهد أن ترغب النَّفس في شيء دنيويّ، ثم يقاوم الإنسان تلك الرَّغبة حتى تتحوّل إلى عادةٍ، وطبعٍ، وسلوكٍ.

٣- أن يكون المرغوبُ فيه خيراً من المرغوب عنه، وإلا ليس من المنطق في شيء أن ينصرف الإنسان عن الجواهر، ويرغب في الأعراض الزّائلة؛ وبناءً على هذا فإنَّ الزّاهد من رغب في تقوى الله، ونيل رضوانه، وانصرفت نفسه عن الزّخارف الدّنيويّة الفانية.

٤- أن يكون الهدف من الزّهد والانصراف النّفسي عن المعاني الدّنيويّة

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٥، ح/٦٠٥٨.

(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ١٥٨، والمحدث المجلسي، بحار الأنوار: ١٠٢/٧٨.

إلى الأهداف الإلهيّة مجرّداً عن كلّ معنى من المعاني الذّاتية الزّائلة كحب السّمعة، والشّهرة، والجاه، والحظوة عند السّلاطين، بل إنَّ أهل القلوب السَّليمة والنّفوس الزّاكية اشترطوا أن لا تكون لأجل الثّواب الأخروي أو الخلاص من عذاب جهنم، بل يجب أن يكون خالصاً مجرّداً حتى عن ذلك، وليس له من مطلبٍ سوى الشُّكر لله ونيل رضوانه، ولعلَّ هذا المعنى مصداقٌ لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نارِكَ، وَلا طَمَعاً في جَنَّتِكَ، وَلكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتُكَ**»[١].

أَهَمِّيَّةُ الزُّهْدِ في السَّيْرِ وَالسُّلوكِ إِلى اللّٰهِ تَعالى:

إذا تأمّلنا بدقّة في الأحاديث والرّوايات الواردة في الزُّهد عن النّبيّ وأهل بيته عليهم السلام نعرف أنَّ للزهد دوراً مهمّاً وفعّالاً وأساسيّاً في مسيرة الإنسان وكدحه إلى الله تعالى؛ لنيل رضوانه بتحقيق إرادته، ولذلك نجد الأحاديث الشّريفة وصفت الزهد بأنَّه: مفتاح الصّلاح، وأفضل الإيمان، وأفضل الطّاعات، وسجيّة المخلصين، وزين الحكمة، ورأس السخاء، وثمرة الدين وأصله، وأساس اليقين، وهو دلالة على حسن الرَّغبة فيما عند الله، وأنَّه مفتاح باب الآخرة، والبراءة من النّار، وترك كلّ شيء يشغل عن الله[٢].

وهذه الكلمات جميعاً دالة على أنَّ الزُّهد هو طريق الوصول إلى الله تعالى، بل إنَّ بعض الأحاديث الصَّحيحة أكَّدت بأنَّ الإنسان لا يمكن أن يذوق

(١) بحار الأنوار: ١٨٦/٧٠.

(٢) راجع: الكافي: ٣٣١/٣-٣٥٢، باب ذمّ الدّنيا والزّهد فيها، وتصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٥، باب الزّهد، وبحار الأنوار: ٣١٠/٧٠-٣٢٢، باب الزّهد ودرجاته.

طعم الإيمان ما لم يزهد في الدُّنيا، فعن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعته يقول: **جُعِلَ الْخَيْرُ كُلُّهُ في بَيْتٍ، وَجُعِلَ مِفْتاحُهُ الزُّهْدَ في الدُّنْيا**، ثمّ قال: **قالَ رَسولُ الله** صلى الله عليه وآله: **لا يَجِدُ الرَّجُلُ حَلاوَةَ الإيمانِ في قَلْبِهِ حَتّى لا يُبالي مَنْ أَكَلَ الدُّنْيا**»(١).

والسِّرُّ في ذلك أنَّ الانصراف إلى طلب الدُّنيا في كثير من الأحيان -بل أغلبها- يستحوذ على قلب الإنسان، فلا يدعه يفكّر في غيرها، وتصبح شغله الشّاغل، وحينئذٍ ينسى الله تعالى، فينسيه الله نفسه؛ ولهذا لا يمكن أن يتذوّق حلاوة الإيمان من انصرف قلبه عن الله تعالى إلى الدُّنيا، فما ﴿**جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ**﴾(٢)، وبالعكس عندما ينصرف قلب الإنسان عن حبّ الدُّنيا، ويكتفي منها بالكفاف فإنَّ آفاقه تتّسع حتّى تضيق الدّنيا بسعتها، فيسمو عليها، فلا يملؤه إلا حبّ الله تعالى؛ فحبُّ الله يشغلُ الإنسان عمّا سوى الله تعالى، فلا همَّ له سواه جل وعلا؛ فعن جابر، قال:

«دخلت على أبي جعفر عليه السلام، فقال: **يا جابِرُ، وَالله إنّي لَمَحْزونٌ، وَإنّي لَمَشْغولُ الْقَلْبِ**، قلتُ: جُعِلْتُ فداك، وما شُغُلُكَ؟ وما حُزْنُ قَلْبِكَ؟ فقال: **يا جابِرُ، إنَّهُ مَنْ دَخَلَ قَلْبَهُ صافي خالِصِ دينِ الله، شَغَلَ قَلْبَهُ عَمّا سِواهُ؛ يا جابِرُ، ما الدُّنْيا؟ وَما عَسى أَنْ تَكونَ الدُّنْيا؟ هَلْ هِيَ إلا طَعامُ أَكَلْتَهُ، أَوْ ثَوْبٌ لَبِسْتَهُ، أَوْ امْرَأَةٌ أَصَبْتَها؟**»(٣).

(١) الكافي: ٣٣٢/٣، ح/١٨٩٤.
(٢) الأحزاب: ٤.
(٣) الكافي: ٣٤٣/٣، ح/١٩٠٨.

دَوْرُ الزُّهْدِ في حَياةِ الإنْسانِ:

للزُّهد دورٌ مهمٌّ في سعادة الإنسان، واستقراره، واطمئنانه؛ وذلك لأنَّ حياة الإنسان لا يمكن أن تخلو من عقبات ومشاكل تواجهه في كلّ حين، وهذا أمرٌ شاملٌ لكلّ إنسان سواء كان حاكماً، أو محكوماً، غنيّاً كان، أو فقيراً ما دام الابتلاء سنَّةً إلهيّةً لا ينجو منها إنسان مهما كان، فالحياة الدُّنيا تتقلّب بأهلها من حال إلى حال، فلا استقرار لها، ولا اطمئنان لأيّ وضع من أوضاعها، فما عرّفنا التاريخ أنَّ أحداً استقرت به الدُّنيا في لذّاتها أو مرارتها، واستمرّت على نفس المنوال، فلا القوي يبقى قويّاً، ولا المعافى يبقى معافًى، ولا الغنيّ يبقى غنيّاً؛ لأنَّ التّحوّل والتَّغيّر والتَّقلّب سنّةٌ لا يفلت منها أحد مهما كان، ومن كان؛ ولهذا فالمغرور من غرَّته، والشَّقي من ألهته، وقد حذَّر أمير المؤمنين عليه السلام من تقلّب الدُّنيا قائلاً: «**أوصيكُمْ عِبادَ الله بتَقْوى الله، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا؛ فَإنَّها دارُ شُخوصٍ، وَمَحَلَّةُ تَنْغيصٍ، ساكِنُها ظاعِنٌ، وَقاطِنُها بائِنٌ، تَميدُ بِأَهْلِها مَيَدانَ السَّفينَةِ تَصْفِقُها الْعَواصِفُ**[١] **في لُجَجِ الْبِحارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ**[٢]**، وَمِنْهُمُ النّاجي على مُتونِ الأَمْواجِ، تَحْفِزُهُ**[٣] **الرِّياحُ بِأَذْيالِها، وَتَحْمِلُهُ عَلى أَهْوالِها، فما غَرِقَ مِنْها، فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَما نَجا مِنْها فَإلى مَهْلَكٍ**»[٤].

هذا حال من استوعبت الحياة الدُّنيا كلَّ حياته، فلم يعد يفكّر بسواها، بل يحاول أن يسخّر أقدس المقدّسات لأجلها، بل قد ينصب الدّين شركاً وفخّاً

---

(١) تصفقها العواصف: تضربها بشدّة ضرباً بعد ضرب.

(٢) الغرق الوبق: الهالك.

(٣) تحفزه: تسوقه.

(٤) نهج البلاغة: ٣٣٨، خطبة: ١٩٦.

لاصطيادها، فهو لا يبصر غيرها، وصدق أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «**مَنْ أَبْصَرَ بها بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْها أَعْمَتْهُ**»(١)، وفي نص آخر يقول عليه السلام: «**سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيا طَرِيقَ الْعَمى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصارِهِم عَنْ مَنارِ الْهُدى، فَتاهوا في حَيْرَتِها، وَغَرِقوا في نِعْمَتِها، وَاتَّخَذوها رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ، وَلَعِبوا بِها، وَنَسوا ما وَراءَها**»(٢).

هكذا تفعل الدّنيا بمحبّها، المستغرق بها؛ وأما الزّاهد بها فلا يمكن أن يكون كذلك، ولهذا فإنَّ الإسلام حثَّ على الزُّهد بها؛ لأنَّ للزُّهد فيها آثاراً عمليّةً وضعيّةً في مسيرة الإنسان، ومن تلك الآثار:

١- الرّاحَةُ وَالاطْمِئْنانُ وَعَدَمُ الْقَلَقِ عَلى شَيْءٍ:

من المعلوم أنَّ الإنسان مفطورٌ ومجبول على حبّ الرّاحة والدّعة، (فلو أنَّك في كلّ أدوار التّمدّن، والتّوحّش، والتّديّن، والعناد رجعت إلى هذا الإنسان، الجاهل والعالم، والوضيع والشريف، والمدنيّ والبدويّ، وسألته: «لِم كلّ هذا التّعلق المتنوّع والأهواء الشّتى، وما الغاية من تحمّل كلّ هذه المشقّات والصّعوبات والمعاناة في الحياة؟» فإنَّهم جميعاً وبكلمة واحدة وبلسان الفطرة الصّريح يجيبون قائلين: بأنَّ كلَّ ما يتوخونه إنّما هو لراحتهم، والغاية النّهائيّة والمرام الأخير وأقصى ما يتمنّونه هو الرَّاحة المطلقة الخالية من كلّ تعب ونصب)(٣).

---

(١) نهج البلاغة: ١٢٨، خطبة: ٨١.

(٢) المصدر نفسه: ٤٢٤-٤٢٥، كتاب: ٣١.

(٣) الإمام الخمينيّ، الأربعون حديثاً: ١٨١.

وهذه الرّاحة المطلوبة لا تتحقّق إلا بالزُّهد؛ وذلك لأنَّ الزُّهد يمنح الإنسان نفساً منقطعة إلى الله لا يمكن أن تأسف على شيء لم تظفر به، ولم تفرح بشيء حصلت عليه؛ لأنَّها زهدت بكلّ ما في الدنيا، وعدَّتها وسيلةً تأتي وتروح، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام في أحاديث كثيرة، منها قوله عليه السلام:

«الزُّهْدُ في الدُّنْيا الرّاحةُ الْعُظْمى».

«الزُّهْدُ أَفْضَلُ الرّاحَتَيْنِ».

«ثَمَرَةُ الزُّهْدِ الرّاحَةُ».

«وَمَنْ أَحَبَّ الرّاحَةَ فَلْيُؤْثِرِ الزُّهْدَ في الدُّنْيا»[1].

٢- التَّبَصُّرُ في عُيوبِ الدُّنْيا:

الزّاهد في الدّنيا اتّخذها معبراً إلى حياة دائمة خالدة ينظر إلى الحياة الدُّنيا نظرة الدّارس المتفحّص لكلّ أمر يريد أن يقوم به؛ ولهذا تنكشف له مواضع القوّة والضّعف، والخير والشّر، وتتحقّق بذلك الرّؤية الدّقيقة، والوضوح التّام في الأهداف والوسائل؛ ولذلك تراه لا يسلك مسلكاً إلا إذا كان فيه لله رضا، ولخلقه صلاح، وهذه هي حقيقة الزُّهد؛ فقد سأل رسول الله صلى الله عليه وآله جبريل عليه السلام قائلاً: **«فَما تَفْسيرُ الزُّهْدِ؟»** فقال: **«الزّاهِدُ يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّ خالِقَهُ، وَيُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُ خالِقَهُ، وَيَتَحَرَّجُ مِنْ حَلالِ الدُّنْيا، وَلا يَلْتَفِتُ إِلى حَرامِها، فَإِنَّ حَلالَها حِسابٌ، وَحَرامَها عِقابٌ، وَيَرْحَمُ جَميعَ الْمُسْلِمينَ كَما يَرْحَمُ نَفْسَهُ، وَيَتَحَرَّجُ مِنَ الْكَلامِ كَما يَتَحَرَّجُ مِنَ الْميتَةِ الّتي قَد اشْتَدَّ نَتَنُها، وَيَتَحَرَّجُ عَنْ**

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٦، ح/٦٠٧٧-٦٠٧٨-٦٠٧٩-٦٠٨٠.

حُطامِ الدُّنْيا وَزينَتَها كَما يَتَجَنَّبُ النّارَ أَنْ تَغْشاهُ، وَأَنْ يُقْصِرَ أَمَلَهُ، وَكَأَنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَجَلَهُ»(١).

فالزُّهد في الدُّنيا يكشف للإنسان معايب الدنيا، ويحميه من السّقوط في مهاويها؛ لأنَّه يتمتّع بالرّؤية الدّقيقة، والوضوح في الهدف، وإلى هذا المعنى أشار سيّد الزّاهدين الإمام علي عليه السلام قائلاً: «**ازْهَدْ في الدُّنْيا يُبَصِّرُكَ اللهُ عُيوبَها، وَلا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفولٍ عَنْكَ**»(٢).

إذن الزّاهد هو ذلك العبد اليقظ الفطن المتأمّل بكلّ قول يقوله، أو فعل يفعله، أو خطوة يخطوها في مسيره إلى الله، وبهذا يكون في سلامة من أمره، يقول عليٌّ عليه السلام: «**لَوْ زَهِدْتُمْ في الشَّهَواتِ لَسَلِمْتُمْ مِنَ الآفاتِ**»(٣).

٣- إنَّ الزُّهْدَ يُثْمِرُ الْحِكْمَةَ:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**بِالزُّهْدِ تُثْمِرُ الْحِكْمَةُ**»(٤)؛ لأنَّ الزّاهد يتخلّى عن شهوات الدُّنيا، ويتمرّد على رغبات النّفس، ويخالف أهواءها، وحينئذٍ تتزكّى نفسه، ويطهر قلبه، وتصبح أرضية النّفس مهيّأة لقبول الفيوضات الإلهية كالمعرفة بالله، والتّفقّه في أحكامه، والامتثال لأوامره، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه؛ وبذلك يرزقه الله الهدى، والنّور، والبصيرة، والصّلاح، والإصلاح، يقول أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**مَنْ زَهِدَ في الدُّنْيا أَثْبَتَ اللهُ الْحِكْمَةَ في قَلْبِهِ، وَأَنْطَقَ بِها لِسانَهُ، وَبَصَّرَهُ عُيوبَ الدُّنْيا داءَها وَدَواءَها، وَأَخْرَجَهُ مِنَ**

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٢٦١.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٦، ح/٦٠٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٧، ح/٦٠٩٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٦، ح/٦٠٨٩.

الدُّنْيا سالِماً إلى دارِ السَّلام»[١].

والحكمة هي وعي المعارف الإلهيّة، ورسوخها في النّفس، وتهذيبها بها، واصطباغها بتلك المعارف والعلوم، حتى تتحوّل المعرفة إلى ملكة تملك على الإنسان كلّ جوانب حياته، وتضعه على جادّة الصّواب، وتسوقه إلى إتقان العلم والعمل في سبيل الله، وبذلك يضع الأمور مواضعها التي أرادها الله تعالى.

وما يقال: إنَّ الحكمة هي معرفة الله الواحد الأحد، والتّفقّه في دينه بمعرفة القرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، أو أنَّها النَّبوة، أو الخشية، أو الفهم، والفطنة، والقدرة على التّمييز بين الإلهامات الإلهيّة، والوساوس الشّيطانيّة، وبين الحقّ والباطل، هي مظاهر الحكمة وإفرازاتها ونتائجها، وليس الحكمة كلّها؛ فقد يفهم الإنسان القرآن والسّنّة، ولا يعي حقائقها، وغاياتها، ومقاصدها، ولا يمتثل لأوامرها فلا يكون حكيماً، وإنَّما الحكيم من وعى كلَّ ذلك، وعمل به، وانقاد إليه، وانطبعت نفسه به حتى عادت لا ترى مؤثّراً في الوجود إلا الله، وبذلك تستطيع أن تتوازن في مسيرتها بين متطلّبات البدن، ومقتضيات الرّوح، وتوفّق بين العقيدة والعمل، وتنساق نحو الكمال المطلوب منها في معرفة الله، ومعرفة أحكامه، وصياغة الحياة على شاكلتها، وبذلك تكون الحكمة (هي تلك المطالب الحقّة التي ترتسم في النَّفس، وتوجب التّوفيق بين الاعتقاد والعمل، والسّوق إلى الكمال المنشود للإنسان)[٢]، وهكذا **«مَعَ الزُّهْدِ تُثْمِرُ الْحِكْمَةُ»**[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٣٣/٢.

(٢) السّيد السّبزواري، مواهب الرّحمن: ٣٢٣/٤.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٧، ح/٦١٠٣.

٤- بِالزُّهْدِ تَهونُ الْمَصائِبُ:

إنَّ حياةَ الإنسان -مهما كان، ومن كان- مليئةٌ بالمعوّقات والصّعوبات والمصائب والأهوال ما دامت متغيّرة من حال إلى حال، وكلّما كان الإنسان مُنشدّاً إلى الدُّنيا، ومنغمراً في لذائذها، ومستغرقاً في حبِّها فإنَّ أدنى المصائب والصّعاب تكبر عليه، وتضعف نفسه أمامها، وقد يسحقه الجزع، ويطحنه الأسى، وتظلم في عينه الدُّنيا، وتتحوّل حياته إلى جحيم لا يطاق، أما لو كان زاهداً فيها فلا تجزع نفسه، ولا تعظم عليه المصائب؛ لأنَّ الدُّنيا في عقيدته قنطرة يعبر منها إلى دار الرَّحمة والرضوان، فكلّما كان زهد الإنسان أشدّ وأبلغ في نفسه، وأوعى في مسيرته، تهون عليه المصائب، وتسهل عليه الشّدائد، وتتفتّت على سندان زهده مطارق المحن مهما بلغت من الشّدّة؛ فإنَّ «**مَنْ زَهِدَ في الدُّنْيا هانَتْ عَلَيْهِ الْمِحَنُ**»، و«**اسْتَهانَ بِالْمَصائِبِ**»[1].

٥- الزُّهْدُ حَصانَةٌ لِلدّينِ:

إنَّ القوى المعاكسة لمسيرة الإنسان إلى الله كثيرةٌ، وعسيرةٌ، منها داخل النّفس، كحبّ الذّات الذي يتفرع منه حبّ الدنيا بكلّ أشكالها كحبّ المال، والولد، والنّساء، والسمعة، والشّهرة، والظّهور، والتّسلّط، وما تبتدعه النّفس من طرق ملتوية للوصول إلى إشباع رغباتها، هذا من جانب، ومن جانب آخر تواجه الإنسان ضواغط خارجيّة من طواغيت الأرض وأذنابهم، وما يبدونه لأجل إخضاع الآخرين من ترغيب، وترهيب، وإغراء، وخداع... ومن ناحية ثالثة ما يحوكه الشّيطان لإغواء الإنسان من رصد، ووسوسة، وتزيين، ووعد، ونزغ،

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٧، ح/٦٠٩٥-٦٠٩٩.

وهمز، واستفزاز، واحتناك للإنسان؛ ليستحوذ عليه، ويطوّقه من جميع جوانبه، ويجعله من جنوده...

كلُّ تلك الضواغط تَعرض للإنسان في سيره وسلوكه إلى الله، فتُعرِّض دينه لأخطار فظيعة قد تخلخل علاقاته بالله، وقد تهوي به إلى السّقوط في ظلمات الذّات، وحبائل الشّيطان، وجنوده من الإنس والجن، فتخرجه من ولاية الله إلى ولاية الشيطان، لا سيّما إذا دخلت إليه من جانب الأطماع الماديّة أو المعنويّة والتي لا يميّزها إلا من نَوَّرَ الله قلبه بحبّه، وزَهَّدَهُ في الدُّنيا، إنَّ السبيل الأسلم للنّجاة من هذه المخاطر والحصانة الأقوى للحماية منها هو الزُّهد في الدّنيا وجميع زخارفها، والاكتفاء منها بما يُقوّم الإنسان، ويقوّيه على طاعة الله تعالى؛ ولهذا ما سقط من سقط في حبائل النَّفس والشّيطان إلا بالطمع والآمال البعيدة... أما عندما يزهد المؤمن في الدّنيا فإنَّ جميع أهواء النّفس، وضغوط الطّاغوت، وشباك الشّيطان لا يمكن أن تحرفه عن دينه، أو تضعّف علاقته بربه، يقول سيّد الزّاهدين علي عليه السلام: «**مَنْ زَهِدَ في الدُّنْيا حَصَّنَ دينَهُ**»[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ** عليه السلام: **إِنَّ مِنْ أَعْوَنِ الأَخْلاقِ عَلى الدّينِ الزُّهْدَ في الدُّنْيا**»[2].

ومن هنا كان الزُّهد باباً من أبواب الحقّ، بل هو من أفضلها؛ لأنَّ الزُّهد من الخصال التي تقرّب العبد من الله تعالى، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أَوْحى الله إِلى موسى** عليه السلام: **إِنَّ عِبادي لَمْ يَتَقَرّبوا إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ ثَلاثِ**

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٧٧، ح/٦٠٩٧.

(٢) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٣١١/١١.

خِصالٍ، قالَ موسى: يا رَبِّ، وَما هِيَ؟ قال: يا موسى، الزُّهْـدُ فـي الـدُّنْيا، وَالْوَرَعُ عَنِ الْمَعاصي، وَالْبُكاءُ مِنْ خَشْيَتي... [إلى أن قال:] **أَمّا الزّاهدونَ في الدُّنْيا فَفي الْجَنَّةِ**»(١).

وفي رواية أخرى: كان فيما ناجى الله به موسى عليه السلام: «**وَلا تَـزَيَّنَ فِـيَّ الْمُتَزَيِّنونَ بِمِثْلِ الزُّهْدِ في الدُّنْيا عَمّا يَهِمّ الْغِنى عَنْـهُ...** [إلى أن قال:] **وَأَمّـا الْمُتَزَيِّنونَ لي بِالزُّهْدِ في الدُّنيا فَإِنّي أُبيحَهُمْ الْجَنَّةَ بِحَذافيرِها يَتَبَـوّؤن مِنْهـا حَيْثُ يَشاؤونَ**»(٢).

٦- الزُّهْدُ تَحَرُّرٌ وَانْطِلاقٌ:

ومن أعظم ثمرات الزُّهد أنَّه يحرّر الإنسان من أهوائه ونزواته، ويمنحه البصيرة في الحياة، ويحرّره من جميع زخارف الدُّنيا بكلّ ما للكلمة من أبعاد حقيقيّة للحرّيّة؛ فليس الحرّيّة هي التّحلّل والخروج عن المبادئ والقيم والأخلاق الكريمة، والانطلاق بلا حدود، ولا قيود، بل هي انطلاق في رحاب الله تعالى، والهيام بحبّه، وليس الحرّيّة كما طبّلوا لها في الغرب في مجال السياسة، والاجتماع، والاقتصاد... ولكنَّ الحقيقة أنَّ الحرية لا هذا ولا ذاك (ولكنّها في الزُّهد والتّحرّر الذاتي، وأنَّ الحرية تجاوز القيود التي تُكَبِّل الإرادة الإنسانيّة، وتمنع الإنسان من الإبداع والفعاليّة في مجال النموّ والتّكامل، وتحقيق إنسانيته وعبوديته لله، وهذه القيود هي (ثانياً) القيود الخارجية.. الطبيعية والاجتماعية، ولكنَّها (أولاً) القيود الذاتية.. قيود التّخلّف العقلي، وضيق الأفق،

---

(١) وسائل الشّيعة: ١١/١٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ١١/١٧٧-١٧٨.

ومادية الإحساس، وقيود العاطفة المكبَّلة بالمال والطين، والجاه والشهرة، والجنس والقناطير المقنطرة)(١).

في رِحابِ الزّاهِدينَ:

ليس من السهل على نفس الإنسان أن تزهد في الدُّنيا مع حبّه للبقاء فيها وتعلّقه بزخارفها، وتطلّعه إلى المزيد منها، وقد عَرَّفَنا أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أنّ ابن آدم يشيب، وتشبّ معه خصلتان: الحرص وطول الأمل(٢)، وهو أدقّ تعبير عن مدى التصاق الإنسان بتراب الأرض، وحبّ البقاء، وقد عبَّر القرآن عن هذا الطّموح الدُّنيوي بقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(٣).

تلك هي الحقيقة الأدقّ لمدى عمق حبّ الدنيا في نفس الإنسان، فكيف يستطيع أن يرتفع عن هذا التّراب، ويصعد إلى نور السّماء؟ ولهذا لا بدّ من عوامل مساعدة على ذلك، ولعلَّ من أكثرها تأثيراً في النَّفس هو التّأمّل في حياة الأنبياء، والأئمّة الأطهار، وأولياء الله، وعباده الصّالحين، ومحاولة التّأسّي بهم، والسّير على نهجهم؛ فإنَّ النَّفس الإنسانيّة في الأعمّ الأغلب تنقاد للنّفوس القدسيّة إذا آمنت بقدسيّتها، وتعلَّقت بها، فحينئذٍ يسهل الانقياد لها؛ ولذا أمر الله البشريّة أن تتأسّى بأكمل خلقه صلوات الله عليه وآله، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٤).

---

(١) نظرات في الإعداد الروحيّ: ١٨٣.

(٢) ورد في الحديث الشريف: «يَشيبُ ابنُ آدَمَ، وَيَشِبُّ فيهِ خِصْلَتانِ: الْحِرْصُ وَطولُ الأَمَلِ»، بحار الأنوار: ٢٢/٧٣.

(٣) البقرة: ٩٦.

(٤) الأحزاب: ٢١.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾(١).

وفي آية أخرى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(٢).

ورغم أنَّ رسول الله ﷺ أكمل خلق الله من الأوّلين والآخرين نجد أنَّ الله تعالى بعد أن يذكر سلسلة من الأنبياء في سورة الأنعام، ويشير إلى هدايته تعالى لهؤلاء الصّالحين، وتفضَّله عليهم بالكتاب، والحكم، والنّبوة، يأمر رسوله الأكمل(بالاقتداء بهم، فقال: ﴿ ذَلِكَ ﴾، وهو إشارة إلى ما تقدَّم ذكره من التَّفضيل، والاجتباء، والهداية، والاصطفاء، ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾(٣))(٤).

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(٥)، فكأنَّه يقول: «اقتدِ بصبر أيّوب، وسخاء إبراهيم، وصلابة موسى، وزهد عيسى»(٦).

وإنَّما خاطب الله نبيه ﷺ ليُسْمِعَنا أنَّنا أولى بالاقتداء والتّأسّي والاهتداء بهداهم، فمهما بلغ الإنسان من المستوى العالي من الكمال فهو بحاجة لأن يفتّش عن المثال الذي يضع أقدامه حيثما وضع أقدامه، ويترسَّم خطاه؛ ولهذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**فتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ ﷺ؛ فَإِنَّ فيهِ أُسْوَةً لِمَنْ**

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) الأحزاب: ٦.

(٣) الأنعام: ٩٠.

(٤) الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان: ٥١٢/٢.

(٥) الأنعام: ٩٠.

(٦) مجمع البيان: ٥١٣/٤.

تَأَسّى، وَعَزاءً لِمَنْ تَعَزّى، وَأَحَبُّ الْعِبادِ إلى اللهِ الْمُتَأَسّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ، قَضَمَ الدُّنْيا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْها طَرْفاً، أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيا فَأَبى أَنْ يَقْبَلَها، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ»(١).

ثم يعطي عليه السلام صوراً عملية لسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ليرسم لنا لوحة رائعة لزهد رسول الله صلى الله عليه وآله وعدم إعارته أهمية لزخارف الدنيا، فيقول عليه السلام: **«وَلَقَدْ كانَ صلى الله عليه وآله يَأْكُلُ عَلى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمارَ الْعاري، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُ على بابِ بَيْتِهِ فَتَكونُ فيهِ التَّصاويرُ، فَيَقولُ: «يا فُلانَةُ - لإِحْدى أَزْواجِهِ - غَيِّبِيهِ عَنّي؛ فَإِنّي إذا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيا وَزَخارِفَها».**

فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيا بِقَلْبِهِ، وَأَماتَ ذِكْرَها مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغيبَ زينَتُها عَنْ عَيْنِهِ؛ لِكَيْلا يَتَّخِذَ مِنْها رِياشاً، وَلا يَعْتَقِدَها قَراراً، وَلا يَرْجو فيها مَقاماً، فَأَخْرَجَها مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَها عَنِ الْقَلْبِ، وَغَيَّبَها عَنِ الْبَصَرِ»(٢).

تلك هي حقيقة الزُّهد كما جسَّدها رسول الله صلى الله عليه وآله، وصوَّرها لنا أمير المؤمنين عليه السلام، ونحن نذكر صوراً أخرى رويت لنا عن زهد رسول الله صلى الله عليه وآله في سيرته العمليّة:

١- عن ابن عباس قال: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل عليه عمر، وهو على حصير قد أثّر في جنبه، فقال: يا نبيَّ الله، لو اتّخذت فراشاً، فقال: **ما لي وَلِلدُّنْيا،**

---

(١) نهج البلاغة: ٢٥٨، خطبة: ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه.

ما مَثَلي وَمَثَلُ الدُّنْيا إلا كَراكِبٍ سارَ في يَوْمٍ صائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ساعَةً مِنْ نَهارٍ، ثُمَّ راحَ وَتَرَكَها»(١).

٢- وعن ابن سنان قال: «سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: **دَخَلَ عَلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله رَجَلٌ، وَهُوَ عَلى حَصيرٍ قَدْ أَثَّرَ في جِسْمِهِ، وَوِسادَةٍ مِنْ ليفٍ قَدْ أَثَّرَتْ في خَدِّهِ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ وَيَقولُ: ما رَضِيَ بِهذا كِسْرى وَلا قَيْصَر، إِنَّهُمْ يَنامونَ عَلى الْحَريرِ وَالدّيباجِ، وَأَنْتَ عَلى هذا الْحَصيرِ؟ قالَ: فَقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: لأَنا خَيْرٌ مِنْهُما، وَالله لأَنا أَكْرَمُ مِنْهُما وَالله، ما أَنا وَالدُّنْيا، إِنَّما مَثَلُ الدُّنْيا كَراكِبٍ مَرَّ عَلى شَجَرَةٍ، وَلَها فَيْءٌ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَها، فَلَمّا أَنْ مالَ الظِّلُّ عَنْها ارْتَحَلَ، فَذَهَبَ وَتَرَكَها»**(٢).

وأروع من ضرب المثل الأعلى في الزُّهد بالدُّنيا بعد رسول الله هو سيّد الأوصياء عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي اكتفى من دنياه بطمريه، وسدَّ فورة جوعته بقرصيه، وصدق عمر بن عبد العزيز بقوله: «ما علمنا أحداً في هذه الأمّة أزهد من عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد النّبي صلى الله عليه وآله»، وقال ابن عيينة: «أزهد الصحابة عليّ بن أبي طالب عليه السلام»(٣).

وكان صلوات الله عليه يُعلّم النّاس الزُّهد بسلوكه قبل قوله، في ملبسه، ومأكله، ومسكنه، ومركبه، فقد رُئي وعليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم، ورئي وعليه إزار مرقوع، فقيل له في ذلك، فقال: «**يَقْتَدي بِهِ الْمُؤْمِنونَ، وَيَخْشَعُ**

(١) بحار الأنوار: ١٦/٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٦/٢٨٢-٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ٤٠/٣٢٠.

لَهُ الْقَلْبُ، وَتُذَلُّ بِهِ النَّفْسُ، وَيَقْصُدُ بِهِ الْمبالِغ»(١).

بل يُفضّل خادمه قنبر على نفسه بالثّوب الأفضل، فقد روى الأصبغ وأبو مسعدة والباقر عليه السلام: «أنّه أتى البزّازين، فقال لرجل: **بِعْني ثَوْبَيْنِ**، فقال الرّجل: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك، فلمّا عرفه مضى عنه، فوقف على غلام، فأخذ ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، فقال: **يا قَنْبَرُ، خُذ الَّذي بِثَلاثَة**، فقال: أنت أولى به؛ تصعد المنبر، وتخطب النّاس، فقال: **وَأَنْتَ شابٌّ، وَلَكَ شَرَهُ الشَّباب، وَأَنا أَسْتَحْيي مِنْ رَبّي أَنْ أَتفَضَّلَ عَلَيْكَ، سَمِعْتُ رَسولَ الله** صلى الله عليه وآله **يَقولُ: أَلْبِسوهُمْ مِمّا تَلْبَسونَ، وَأَطْعِموهُمْ مِمّا تَأْكُلونَ، فَلَمّا لَبِسَ الْقَميصَ مَدَّ كُمَّ** القميص، فأمر بقطعه، واتّخاذه قلانس للفقراء، فقال الغلام: هلمّ أكفُّه، قال: دعه كما هو فإنّ الأمر أسرع من ذلك»(٢).

بل رفض أن يلبس ولو ثوباً من أموال بيت المال، وعن الأصبغ بن نباتة أنّه عليه السلام قال مخاطباً أهل العراق: «**دَخَلْتُ بِلادَكُمْ بِأَشْمالي**(٣) **هذِهِ، وَرِحْلَتي، وَراحِلَتي ها هي، فإن أَنا خَرَجْتُ مِنْ بِلادِكُمْ بِغَيْرِ ما دَخَلْتُ فَإِنَّني مِنَ الْخائِنينَ**»(٤).

وأما طعامه؛ فقد روَّض نفسه بأشد أنواع الترويض، وقد أكّد ذلك في كتابه إلى عثمان بن حنيف قائلاً: «وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أروضُهَا بِالتَّقْوى لِتَأْتِيَ آمِنَةً

(١) بحار الأنوار: ٣٢٣/٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣٢٤/١٦.

(٣) الصّحيح - كما في لسان العرب - أسمالي تقول: «سَمَلَ الثَّوب يَسْمُلُ سُمولاً وَأَسْمَلَ: أَخْلَقَ، وَثَوْبٌ سَمِلةٌ وَسَمَلٌ وَأَسْمالٌ» راجع: لسان العرب: ٣٤٥/١١، باب (سمل).

(٤) بحار الأنوار: ٣٢٥/٤٠.

يَوْمَ اَلْخَوْفِ اَلأَكْبر، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانبِ اَلْمَزْلَقِ، وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إلى مُصَفَّى هذا الْعَسَلِ، وَلُبابِ هذا الْقَمْحِ، وَنَسائِجِ هذا الْقَزِّ، وَلكِنْ هَيْهات أَنْ يَغْلِبَنِي هَوايَ، وَيَقودَني جَشَعي إلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ»[1].

ولهذا كان موضع تعجّب أصحابه ومريديه، لما يرونه من خشونة عيشه، وجشوبة مطعمه، فكانوا يعترضون عليه، ويتساءلون عن هذا المسلك الوعر؛ فقد (ترصّد غداءه عمرو بن حريث، فأتت فضّة بجراب مختوم، فأخرج منه خبزاً متغيّراً خشناً، فقال عمرو: يا فضّة، لو نخلت هذا الدقيق وطيّبتيه، قالت: كنت أفعل فنهاني، وكنت أضع في جرابه طعاماً طيّباً فختم جرابه؛ ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام فَتَّهُ في قصعة، وصَبَّ عليه الماء، ثمّ ذرّ عليه الملح، وحسر عن ذراعه، فلمّا فرغ، قال: **يا عَمْرو، لَقَدْ حانَتْ هذِهِ** -ومدَّ يده إلى محاسنه- **وَخَسِرْتُ هذِهِ أَنْ أُدْخِلَها النّارَ مِنْ أَجْلِ الطَّعامِ، وَهذا يَجْزيني**)[2].

وحين رأى عديّ بن حاتم شطف عيشه في غذائه الّذي لم يزد على كُسَيرات من خبز شعير، وجريش ملح، فقال: «إني لا أرى لك يا أمير المؤمنين لتظلّ نهارك طاوياً مجاهداً، وباللّيل ساهراً مكابداً، ثمَّ يكون هذا فطورك»، فقال عليه السلام[3]: [من الخفيف]

علّل النّفس بالقنوع وإلا   طلبت منكَ فوق ما يكفيها

وأما مسكنه؛ فقد رفض أن يسكن قصر الإمارة في الكوفة، وسمّاه قصر

---

(١) نهج البلاغة: ٤٤١، كتاب: ٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢٥/٤٠.

(٣) المصدر نفسه.

الخبال[١]، وسكن كما تسكن رعيته، وقد قال ولده الإمام الباقر عليه السلام: «**وَلَقَدْ وَلّى النّاسَ خَمْسَ سِنينَ؛ ما وَضَعَ آجُرَةً عَلى آجُرَةٍ، وَلا لَبنَةً عَلى لَبنَةٍ، وَلا اقْتَطَعَ قَطيعَةً، وَلا أَوْرَثَ بَيْضاءَ وَلا حَمْراءَ إِلا سَبْعَمائة دِرْهَمٍ فَضُلَتْ مِنْ عَطائِهِ أَرادَ أَنْ يَبْتاعَ بِها لأَهْلِهِ خادِماً**»[٢].

تلك هي الروح الزّاهدة المتعالية على تراب الأرض، والمتطلّعة لنور السّماء حتى أصبح الزّهد في زخارف الدُّنيا زينة لها، فلقد زيَّن الله عليّاً عليه السلام بالزُّهد كما نطق بذلك معلّمه وقائده وحبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: «**إِنَّ اللهَ زَيَّنَكَ بزينَةٍ لَمْ يُزَيِّنْ الْعِبادَ بِشَيْءٍ أَحَبّ إِلى اللهِ مِنْها، وَلا أَبْلَغ عِنْدَهُ مِنْها؛ الزُّهْدُ في الدُّنْيا، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطاكَ ذلِكَ، جَعَلَ الدُّنْيا لا تَنالُ مِنْكَ شَيْئاً، وَجَعَلَ لَكَ مِنْ ذلِكَ سيماء تُعْرَفُ بِها**»[٣].

وفي حديث عمّار: «**يا عَلِيُّ، إِنَّ اللهَ قَدْ زَيَّنَكَ بزينَةٍ لَمْ يُزَيِّنْ الْعِبادَ بزينَةٍ أَحَبّ إِلى اللهِ مِنْها، زَيَّنَكَ بِالزُّهْدِ في الدُّنْيا، وَجَعَلَكَ لا تَرْزأ مِنْها شَيْئاً، وَلا تَرْزأ مِنْكَ شَيْئاً**»[٤].

ونحن إذا توقّفنا قليلاً، وتأمّلنا في هذه الأحاديث التي تعطي معنى واحداً، ودلالة واحدة، نعرف قيمة الزُّهد في الدُّنيا من خلال تكرار رسول الله صلى الله عليه وآله لها، وإن هذه الخَليقَة هي زينة لأعظم شخصيّة عرفها التّأريخ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله،

(١) قال نصر: «ولما قدم عليٌّ عليه السلام الكوفة نزل على باب المسجد... فقالوا له: أتنزل القصر؟ قال: **قَصْرُ الْخَبالِ لا تُنْزِلونيهِ!!**»، بحار الأنوار: ٣٢/٣٥٥.

(٢) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٩٦٦، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٢/٢٢٣، ح/٧٧٥.

(٣) البرقي، المحاسن: ١/٤٥٤، ح/١٠٤٦.

(٤) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٢٨١، وترتيب الأمالي: ٤/٤١٦، ح/٢٠٥٠.

فماذا يقول القائل في خِلّة تكون زينة محبوبة عند الله لعليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه وآله.

مِنْ حِكاياتِ الزّاهِدينَ:

١- عن سويد بن غفلة قال: «دخلت على عليّ عليه السلام، وليس في داره سوى حصير رثّ، وهو جالس عليه، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أنت ملك المسلمين والحاكم عليهم، وعلى بيت المال، وتأتيك الوفود، وليس في بيتك سوى هذا الحصير شيء، وقال: **يا سُوَيْدُ، إنَّ اللَّبيبَ لا يَتَأَثَّثُ في دارِ النُّقْلَةِ، وَأَمامَنا دارُ الْمَقامَةِ قَدْ نَقَلْنا إلَيْها مَتاعَنا، وَنَحْنُ مُنْقَلِبونَ إلَيْها عَنْ قَريبٍ**»، قال سويد: «فأبكاني والله كلامه»(١).

٢- يُحكى عن الشّريف الرّضي عليه الرّحمة، أنَّ أحد الأغنياء أحبّ أن يجود عليه وعلى تلاميذه بمال، فجاءه وهو يعطي درساً لأربعين من طلابه في بيته، فعرض عليه العطاء، فقال: أمّا أنا فلا حاجة لي بمال، وأما طلابي فلا مانع من إعطائهم، فدارَ الغنيّ عليهم فرداً فرداً يسألهم، وكلّهم يجيب: حسبنا أنَّنا نملك قوت يومنا، فما نصنع بالمال! وحين وصل إلى الطالب الأربعين، تناول الطّالب ديناراً من الغنيّ وكسّره قطعاً، ثم أخذ قطعة واحدة... ولمّا انصرف الغنيُّ، التفت الشَّريفُ إلى ذلك الطّالب، وقال: ما دعاك إلى فعلتك يا هذا؟ قال: جاءني من أسبوع ضيوف، وليس عندي زاد أطعمهم، فاستدنتُ شيئاً من المال حتّى أطعمتهم، وما زال الدّائنون يطالبونني بحقّهم، فذلك ما دعاني إلى أخذ قطعة من

(١) ابن الجوزي، تذكرة الخواصّ: ١١٥.

الدّينار أسد بها حاجتي، وأدفع عن نفسي مغبَّة الناس...

فلما سمع الشَّريف قوله، استدعى الحدّاد، وقال له: هذا مفتاح خزانتي، فاصنع لي مثله أربعين مفتاحاً. ووزَّعَ المفاتيحَ على طلابه، وقال لهم: من كانت له حاجة فليأخذها من خزانتي بدون علمي[1].

٣- كان إبراهيم بن أدهم يفتّش عن اللّقمة الحلال، قال: «صرتُ إلى مدينة [في الشّام] يقال لها: (المنصورة)، فعملت بها أياماً أنظر البساتين، وأحصد الحصاد، فلم يصفُ لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ، فقال لي: إن أردت الحلال الصّافي فعليك بطرطوس؛ فإنّ فيها المباحات، والعمل الكثير، فتوجّهت إلى مدينة طرطوس، فعملت بها أياماً أنظر البساتين، وأحصد الحصاد، فبينما أنا قاعدٌ على باب من أبوابها إذ وقف عليَّ إنسانٌ، فقال: أتكري نفسك يا فتى تنظر لي بستاناً؟ قلت: نعم، فوافقت على شيء معه، فسار بي إلى بستان قريب من طرطوس، وقال: كن في هذا.

فأقمت زماناً، فبينما أنا ذات يوم إذ أقبل صاحب البستان، ومعه جماعة فنزلوا، وقعد صاحب البستان في مجلسه، ثم صاح: يا ناطور، فقلت: هو ذا، قال: اذهب فأتِنا بأكبر رمّان تقدر عليه وأطيبه، فأتيته. وفي رواية: أنّه قال: قال: ائتني برمّان حلو، فمضيت إلى الشّجر، وقطعت منه، ووضعت بين أيديهم، فإذا هو حامض، فقال لي: قلتُ لك تجيئني بحلو جئتني بحامض، فقلت له: والله ما أعرف الحلو من الحامض، فقال لي: سبحان الله، لو كنت إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا، فلمّا سمعت منه هذا الكلام جعلت أطلب غفلته، فلمّا غفل خرجت من

(١) نهج البلاغة نبراس السّياسة ومنهل التّربية: ٣٢٣.

الباب وتركته. وفي رواية: فلمّا كان من الغد ذكر صفتي في المسجد، فعرفها بعض الناس، فجاء الخادم، ومعه عنق من الناس، فلمّا رأيتُه قد أقبل مع أصحابه اختفيت خلف الشّجر، والنّاس داخلون فاختلطت معهم، وهم داخلون، وأنا هارب»[1].

٤- جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، والتمس أن يقبلها، فأبى عليه، فلحَّ الرجل به، فقال إبراهيم: «يا هذا، أتريد أن تمحي اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم، لا أفعل ذلك أبداً»[2].

٥- عن حذيفة المرعشي أنّه قال: «قدم شقيق البلخيّ مكّة وإبراهيم بن أدهم، فاجتمع الناس، وقالوا: يجتمع بينهما في المسجد الحرام، فقال إبراهيم بن أدهم لشقيق: يا شقيق، على ما أصّلتم أصولكم، فقال شقيق: أصَّلْنا على أنّا إذا رُزِقْنا أكلنا، وإذا مُنِعْنا صبرنا. فقال إبراهيم: هكذا كلاب بلخ إذا رُزِقَتْ أَكَلَتْ، وإذا مُنِعَتْ صبرت. فقال شقيق: فعلى ماذا أصَّلْتُم أصولَكم يا أبا إسحاق؟ قال: أصَّلنا أصولنا على أنّا إذا رُزِقْنا آثرنا، وإذا مُنِعْنا حمدنا وشكرنا. فقام شقيق، وجلس بين يديه، وقال: يا أبا إسحاق، أنت أستاذنا»[3].

٦- يقول الشّيخ محمد حرز الدين عن الشيخ مرتضى الأنصاري: «انتهت إليه رئاسة الإماميّة على الإطلاق، وأطبقت الشّيعة الإماميّة على تقليده في شرق الأرض وغربها إلا نادراً، وكان عاليَ الهمّة أبيّاً، ومن علوّ همّته أنّه كان يعيش

---

(١) الخوانساري، روضات الجنّات: ١/١٤١-١٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٤٦.

(٣) المصدر نفسه.

عيشة الفقراء، ويبسط البذل على الفقراء والمحتاجين سرّاً، وقال له بعض أصحابه: إنَّك مبالغ في إيصال الحقوق إلى أهلها، فأجابه: ليس لي بذلك فخر ولا كرامة، إذ من شأن كلّ عاميّ وسوقة أن يؤدّي الأمانات إلى أهلها، وهذه حقوق الفقراء أمانةٌ عندي، وَحَدّثَ أيضاً بعض تلاميذه أنَّه كان يأنف من التّناول من حقوق الفقراء في شيء مع كونه مصداقاً»[١].

٧- نُقِلَ أنَّ أحد تجار بغداد هيّأ مبلغاً من أطيب أمواله وأنقاها، وكلّف شخصاً بإيصاله إلى الشّيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله في النّجف الأشرف، وأن يقول له: إنَّ هذه الأموال ليست من الحقوق الشّرعيّة حتى تمتنعوا من صرفها وإنفاقها في أغراضكم الشّخصيّة، بل هي من أطيب أموالي وأزكاها، وقد أحببت أن أهبها لكم لتعيشوا في سعة من العيش في هذا السّنّ، ولا تعسّروا على أنفسكم.

ولكنَّ الشيخ لم يقبل المال، وقال: أليس من المؤسف أن أعيش مدّة طويلة من حياتي فقيراً، ثم أستغني في أخريات حياتي، فيمحى اسمي من ديوان الفقراء، وأحرم من اللحاق بهم يوم القيامة[٢]!!

٨- شكت والدة الشّيخ الأنصاري إليه – وكانت صالحة تقيّة جداً – ذات يوم ما يعانيه أخوه الشّيخ منصور من ضيق المعاش، وقالت له وهي معترضة عليه: لماذا لا تراعي أخاك أكثر من هذا، ولا تعطيه ما يكفيه، وأنت تأتيك كلّ هذه الأموال الطائلة من الشّيعة؟

وهنا بادر الشَّيخ وأعطى مفتاحَ المخزن الّذي فيه أموال الحقوق إلى أمّه،

(١) حرز الدّين، معارف الرّجال: ٢/٤٠٢.

(٢) الشّيخ الأنصاريّ وتطوّر البحث الأصوليّ: ٤٢.

وقال: خذي يا أماه المفتاح، واعطي لابنكِ ما تريدين من المال، ولكنّ جوابه يوم القيامة عليكِ.

ولما واجهت تلك المرأة الصالحة التّقيّة هذا المحذور امتنعت من أخذ المفتاح وتراجعت عن طلبها قائلة: كلا، لا أورّط نفسي يوم القيامة من أجل رفاه ابني[1].

٩- روى بعض العلماء أنَّه أُتِيَ إلى الشَّيخ الأنصاري بمبلغ هائل من الحقوق الماليّة الشّرعيّة، وعندما كان الشّيخ رحمه الله يقسّم تلك الأموال جاءه أحد الكسبة، وطالَبَ بدَيْنٍ له على الشيخ قائلاً: إنّي أعطيتكم في الوقت الفلاني كذا كميّة من القمح، ولم أستلم مبلغه، وقد تأخّر كثيراً.

فاستمهله الشَّيخ عدة أيام، فقلت للشَّيخ: شيخنا، هذه الأموال الطائلة تحت اختيارك، ومع ذلك تستمهل ذلك الكاسب، هلا أعطيته من هذه الأموال؟! فأجاب الشَّيخ قائلاً: إنَّ هذه الأموال هي حقّ الفقراء، ولا ترتبط بيَّ أبداً، وليس عندي من المال الشَّخصي شيءٌ، فاستمهلتُ ذلك الكاسب ريثما أبيع هذا البساط، وأدفع له حقّه[2].

(١) الشّيخ الأنصاريّ وتطوّر البحث الأصوليّ: ٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ٤٥.

(الْبَحْثُ السّادِسُ)

الشُّكْرُ

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

لم تكن الأمور الماديّة هي المتحكّمة بالإنسان فقط، بل هناك أمور معنويّة لها الدور الأهمّ في حياته، وربّما تكون هي المؤثّر الوحيد في سيرته، والغالبة عليه، والدافعة له في صعوده التكامليّ، والدّليل على ذلك: أنَّ الإنسان بفطرته يحب كلّ جميل، وينفر من كلّ قبيح، أين ما كان، وعند من كان؛ ولذلك نرى أنَّ قلب الإنسان ينشرح لكلّ جميل، وينجذب إليه بشدّة، وينفر من كلّ قبيح، ويفرّ منه، ولا عبرة بالشّواذ الّذين انطمست فطرتهم تحت ركام الذّنوب، وانحرف فيهم الذّوق السّليم.

إنَّنا نرى أنَّ الإنسان دائماً يحاول أن يظهر أمام الآخرين بمظهر جميل مقبول كالوقار، والحشمة، والتَّعقّل، وهذا أمر معنويٌّ صرفٌ، فلا يفتخر إنسان سليم الذّوق بمادياته بمقدار ما يفتخر بمعنوياته كالعقل الرّاجح، والذّكاء الحادّ، والعلم الغزير، والخلق الحسن كالشّجاعة، والعفة، والعدالة، والحكمة؛ كلّ هذه الأمور معنوية يطلبها الإنسان، ويعمل على اكتسابها، وربّما يدّعيها فاقدها؛ لعلمه بأهميتها، وأثرها المهم، بل هي الأهمّ في المجتمع الإنساني، والشُّكر أحد هذه

---

(١) سبأ: ١٣.

الأمور المهمّة التي دلَّ عليها العقل، والنَّقل، وأوعد الله الشّاكرين بزيادة النّعم التي يشكرون المنعم عليها، ومدح عباده الشّاكرين من الرُّسل والأنبياء، وأتباعهم المخلصين.

وفي هذا البحث نحاول أن نقف على حقيقة الشُّكر، وما له من دور فعّال في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة.

تَعْرِيفُ الشُّكْرِ:

لغةً: الشُّكْرُ: «عِرفانُ الإحسانِ ونشرُه»(١) بالثَّناء على المحسن بما أولاه من المعروف.

وهو: «إظهار حقّ النّعمة؛ لقضاء حقّ المنعم، كما أنَّ الكفر تغطية النعمة لإبطال حقّ المنعم»(٢).

وقال الرّاغب الأصفهاني: «الشُّكر تصوّر النّعمة وإظهارها... ويضادّه الكفر، وهو نسيان النّعمة وسترها»(٣).

والمعنى اللّغوي الصّرف للشّكر: «هو الامتلاء من ذكر المُنْعِم عليه»؛ فنقول: «دابة شكورٌ مظهِرَة بسمنها إسداء صاحبها إليها»(٤).

وأما عند علماء الأخلاق: فالشُّكر استعمالُ نعم الله في ما يحبّه ويريده.

وحقيقة الشُّكر إظهار النّعمة: اعتقاداً، وقولاً، وفعلاً، ويؤيّده إطلاق قوله

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٤/٤٢٣، باب (شكر).

(٢) أبو هلال العسكري، الفروق اللّغوية: ٣٦.

(٣) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٣٦٨، باب (شكر).

(٤) المصدر نفسه.

تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[(١)].

(وإظهار النّعمة: هو استعمالها في محلّها الّذي أراده مُنعِمها، وذِكْرُ المنعم بها لساناً، وهو الثناء، وقلباً من غير نسيان؛ فشكره تعالى على نعمة من نعمه أن يذكر عند استعمالها، ويوضع النّعمة في الموضع الذي أراده منها، ولا يتعدَى ذلك، وإن من شيء إلا وهو نعمة من نعمه تعالى، ولا يريد بنعمة من نعمه إلا أن تستعمل في سبيل عبادته، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[(٢)]؛ فشكره على نعمته أن يطاع فيها، ويذكر مقام ربوبيته عندها)[(٣)].

وعلى كلّ التّقادير سواء كان الشّكر: اعترافاً بالجميل ونشره، أو ثناءً على المحسن، أو إظهار النّعمة لقضاء حقّ المنعم؛ فإنّنا ننتهي إلى نتيجة واحدة هي أنّ الشُّكر: شعورٌ وإحساسٌ عميقٌ بإفضال المحسن، وإظهار هذا الشّعور إلى الواقع الخارجيّ، وتجسيده إلى عمل - أراده المحسن من إحسانه - ليحقّق أهدافه الّتي أرادها من إنعامه؛ ولذا قال العارفون: «الشُّكر ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصوّر النّعمة؛ وشكر اللّسان، وهو الثّناء على المنعم؛ وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النّعمة بقدر استحقاقه، ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ ﴾[(٤)]»[(٥)].

وأجمع كلمة تبيّن أنّ الشُّكر الحقيقيّ هو الشّكر العمليّ - إذا صحَّ التَّعبير

(١) الضّحى: ١١.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

(٣) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٨/٤.

(٤) سبأ: ١٣.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٦٨، باب (شكر).

- كلمة أمير المؤمنين عليه السلام، يقـول: «**فَإِنَّ اللهَ قَدِ اصْـطَنَعَ عِنْـدَنا وَعِنْـدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنا**»(١).

هذه الكلمة تدلّ دلالة واضحة أنَّ الشُّكر المطلوب من المؤمن، هو الشُّكر العمليّ الّذي يبذل الإنسان لأجله جهداً متواصلاً، وهـي دلالـة مهمّـة ذات مغـزى عظيم دقيق، وهو أنَّ الشَّكر الّذي يريده الله تعالى من عباده لا يقتصر على اللَّفظ، وإنّما لا بدَّ من العمل، ولفظ بلا عمل - نابع عن إخلاص - لا معنى له ولا اعتبار.

الْفَرْقُ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ:

جاء في كتاب لسان العرب: «الشُّكْرُ لا يكون إلا عـن يَـدٍ، وَالْحَمْـدُ يَكـونُ عَنْ يَدٍ وَعَنْ غير يدٍ»(٢).

وفـي كتـاب الفـروق اللّغويّـة: «الشُّـكر: هـو الاعتـراف بالنّعمـة علـى جهـة التّعظيم للمنعم، والحمد: الذّكر بالجميل على جهـة التعظـيم المـذكور بـه أيضـاً، ويصحّ على النعمة و غير النعمة، والشُّكر لا يصحُّ إلا على النّعمة»(٣).

وقيل: «الاعتماد في الشّكر علـى مـا توجبـه النّعمـة، وفـي الحمـد علـى مـا توجبه الحكمة»(٤).

ونستنتج من جميع ذلك أنَّ الفرق بين الحمد والشّكر هو:

١- إنَّ الشكر يكون على بذل المعروف، والحمد يكون على بذلـه، وعلـى

(١) نهج البلاغة: ٤٤٨، كتاب: ٥١.

(٢) لسان العرب: ٤/٤٢٣، باب (شكر).

(٣) الفروق اللّغوية: ٣٥.

(٤) المصدر نفسه.

غير بذله، فقد تحمد إنساناً ولم يكن قد أنعم عليك، وإنّما تحمده لحسن أخلاقه وفضائله، وعلى خصاله الحميدة؛ بدافع الفطرة في حب الجمال، والإحسان.

٢- أنّ الشكر يشمل النّيّة، والقول، والفعل، يعني: إنّ الإنسان يقف تجاه المنعم شاكراً بتصوّره، وإحساسه ثمّ يثني عليه مادحاً بلسانه، ممتثلاً جميع أوامره طاعةً، واحتراماً جزاء على ما أنعم عليه، وأمّا الحمد فيشمل الذّكر الحسن على الصّفات الحميدة.

٣- أنّ الشكر يكون على موجبات النّعمة في قضاء حقّ منعمها، وأمّا الحمد فمن الحكمة الفطرية في ذات الإنسان أن يحمد كلّ أمر وصفة حسنة متوفّرة في المحمود.

٤- الشُّكر والحمد معنى واحد، إلا أنَّ الحمد أعم؛ فقد تحمد إنساناً لصفاته الجميلة؛ ولفضائله الكريمة، ولكنّك لا تشكره إلا على المعروف، ولكن العموم والخصوص بينهما قد ينعكسان، يقول الفيلسوف الإسلامي صدر المتألهين: «والحقّ أن بين الحمد والشكر تعاكساً في العموم والخصوص بحسب المورد والمتعلّق فإنَّ مورد الحمد هو اللّسان سواء كان بإزاء النعمة الواصلة أم لا، وأمّا الشّكر فهو على النّعمة خاصّة ومورده يعمّ الجنان واللّسان والأركان كما قال: [من الطّويل]

أفادتكم النّعماء منّي ثلاثة ... يدي ولساني والضّمير المحجّبا

فالحمد إحدى شعب الشُّكر بوجه، وإنّما جعل رأس الشّكر، والعمدة فيه كما في قوله ﷺ: «الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ»، وقوله ﷺ: «ما شَكَرَ اللهَ مَنْ لَمْ يَحْمُدْهُ»؛ لكونه أشيع للنعمة، وأدلّ على مكانها، وأنطق للإفصاح عن بعض خفيّاتها في عالم الحسّ؛ لخفاء عمل القلب وعقائده، ولما في آداب الجوارح

من الاحتمال»[١].

الإِنْسانُ الشَّكورُ:

الشّكور صفةٌ إلهيّةٌ اتّخذها الله لنفسه، وقرنها ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة؛ فقد قرنها تعالى بصفة (**الحلم**)، يقول تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾[٢].

كما اقترنت صفة (**الشّكور**) الإلهيّة بصفة (**الغفور**) بقوله تعالى:

﴿**إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾[٣]، و﴿**إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**﴾[٤].

ومعنى كون الله عزَّ وجلَّ شكوراً (أنّه يزكو عنده القليل من أعمال العباد، فيضاعف لهم الجزاء، وشكرُه لعبادِهِ مغفرتُهُ لهم)[٥].

فإذا كانت هذه الصّفة من صفات الله تعالى، والمؤمن عبد الله تعالى، فلا بدّ أن يتخلّق العبد بشيء من أخلاق معبوده إذا أراد أن يكون عبداً حقيقيّاً لله تعالى كما جاء في الحديث الشّريف: «**تَخَلَّقوا بِأَخْلاقِ الله**»[٦]، وهذا التّخلّق مع تباين النّسبة بين المحدود، وغير المحدود، فصفات الله تعالى عين ذاته، فهي لا تحدّ بحدود الزّمان والمكان، وإنّما هي خارجة عن إطار الزّمان والمكان، وأمّا صفات الإنسان فمحدودة وقاصرة عن مبلغ الكمال المطلق؛ ولهذا نقول: إنّ

---

(١) صدر المتألّهين، تفسير القرآن الكريم: ٧٣/١.

(٢) التّغابن: ١٧.

(٣) فاطر: ٣٠.

(٤) فاطر: ٣٤.

(٥) لسان العرب: ٤٢٤/٤، باب (شكر).

(٦) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ١٢٩/٦١.

التَّخلّق بأخلاق الله تعالى مع الفارق النّسبيّ بين الخالق والمخلوق، والربّ والمربوب، والعبد والمعبود.

إنَّ الإنسان الشّكور هو الّذي تأصّلت فيه صفة الشّكر: تصوّراً وقولاً وعملاً... أي إنّه بذاته طبع على شكر النّعمة، فتحوّلت في نفسه إلى ملكة راسخة لا يستطيع أن يتعدّاها إلى عكسها، فهو (المتوفّر على أداء الشُّكر، الباذل وسعه فيه، قد شغل فيه قلبه، ولسانه، وجوارحه، اعترافاً وكدحاً)(١).

وبكلمة أخرى: (الشّكور: الكثير الشّكر الّذي لا يغفل عن النّعمة، والإنعام، وتعظيم المنعم، وصرفها في وجهها)(٢)، وهذا أمرٌ ممكنٌ إذا مرَّن الإنسان نفسه عليه حتى تصير له عادةً، وطبعاً، وسلوكاً؛ وفي أغلب الظن أنَّ الشُّكر الّذي أوعد الله عليه الزّيادة بقوله سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٣) هو هذا.

وبما أن (الشَّكور) بهذه المثابة من العظمة، فالاتّصاف بها يحتاج إلى صفات مساعده عليها، ومعينة على اكتسابها، منها: صفة الصّبر، بل المصابرة الّتي تعني تحمّل جهدٍ أكبر من الصّبر؛ فالصّبور: «هو القادر على الصَّبر»(٤)؛ ولذا جاء في الحديث القدسي: «**إِنّي أَنا الصَّبّور**»(٥)؛ فالمصابرة درجةٌ أعلى من الصَّبر تحتاج إلى جهد ومشقّة؛ فهي صبر على الصّبر، (وقوله تعالى: ﴿**ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ**﴾(٦) أي احبسوا أنفسكم على العبادة، وجاهدوا أهواءكم، وقوله:

(١) الطّريحي، مجمع البحرين: ٣/٣٥٣.

(٢) سلطان علي شاه، تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة: ٣/٢٦٢.

(٣) إبراهيم: ٧.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٨٠، باب (صبر).

(٥) الهيثمي، مجمع الزّوائد: ٨/٢٠١.

(٦) آل عمران: ٢٠٠.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾[(١)] أي تحمّل الصّبر بجهدك)[(٢)].

فإذن على من أراد أن يكون شكوراً أن يتحلّى بصفة المصابرة، فمن طلب العلى هانت عليه الشّدائد، ومن أراد أن يلتذّ بشم الأزهار لا بدّ أن يتحمّل وغز الأشواك... ولهذا نرى أنّ صفة (الشّكور) اقترنت بصفة (الصّبّار) في عدّة آيات قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[(٣)].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[(٤)].

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[(٥)].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾[(٦)].

ومن مجموع هذه الآيات الكريمة، نستخلص أنّ هناك تلازماً بين الاصطبار وبين الشّكر؛ ففاقد الاصطبار لا يمكن أن يكون شكوراً؛ لأنّ الشُّكر يحتاج إلى طاقة نفسيَة كبيرة، ومران، ورياضة شاقّة حتى يصبح عادةً، وطبعاً،

(١) مريم: ٦٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٨٠، باب (صبر).

(٣) إبراهيم: ٥.

(٤) لقمان: ٣١.

(٥) سبأ: ١٩.

(٦) الشّورى: ٣٢-٣٣.

وسلوكاً.

ماذا يَعْني شُكْرُ الله لعباده؟

ورد في عدة آيات أنَّ الله سبحانه وتعالى يشكر عباده على أعمالهم الّتي يقومون بها طاعة له، يقول تعالى:

﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[٢].

وكما أسلفنا فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بالشّكور، وهي من أبنية المبالغة، فلمن هذا الشّكر وكيف يكون؟

إنَّ شكر الله ليس من جنس شكر الإنسان، وإنّما شكره تعالى هو: «إنعامه على عباده، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة»[٣]، وبعبارة أخرى: إفاضة الرَّحمة، والخير على المطيعين من عباده، ومضاعفة البركات عليهم، ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[٤].

نفس هذا الشُّكر هو تفضّل منه تعالى على عبده؛ لأنَّ من واجب العبد أن يطيع الرَّبَّ، ولو لم يثبه عليه، يقول العلامة الطّباطبائي: «وشكره تعالى على عمل العبد تفضّل منه على تفضّل، فإنَّ أصلَ إثابتِهِ العبدَ على عملِهِ تفضّلٌ؛ لأنَّ من وظيفة العبد أن يعبد مولاه من غير وجوب الجزاء عليه، فالإثابةُ تفضّلٌ، والثّناءُ

---

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) النّساء: ١٤٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٦٩، باب (شكر).

(٤) إبراهيم: ٧.

عليه بعد الإثابةِ تفضّلٌ على تفضّلٍ، واللهُ ذو الفضل العظيم)[١].

الْعَوامِلُ الّتي تَدْفَعُ الإنْسانَ لِلشُّكْرِ:

إنَّ أهم العوامل التي تدفع المُنْعَم عليه؛ لأن يشكر المنعم هي:

١- (معرفة المنعم وصفاته اللائقة به)؛ فإنَّ من يجهل المنعم لا يمكن أن يشكره.

٢- (معرفة النّعمة من حيث إنّها نعمة، ولا تتمّ تلك المعرفة إلا بأن يعرف أنَّ النّعم كلّها جليّها وخفيّها من الله سبحانه، وأنَّه المنعم الحقيقيّ، وأنَّ الأوساط كلّها منقادون لحكمه مسخّرون لأمره)[٢].

٣- اليقين بأنَّ الشُّكر يحقق المزيد من النّعم؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣]، ولكن ينبغي الالتفات أنَّ الشُّكر إذا كان لأجل الزّيادة لا تعظيماً للمنعم فهو شكرٌ تجاريٌّ؛ والّذي يليق بالمؤمن هو شكر الله تعالى مقابل الإفضال الإلهيّة بطاعته في أداء الواجبات، والانتهاء عن المحرّمات، جاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «**شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِنابُ الْمَحارِمِ**»[٤]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ الْوَرَعُ عَمّا حَرَّمَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ**»[٥].

الأَسْبابُ الصّارِفَةُ عَنِ الشُّكْرِ:

إنَّ أهمّ الأسباب الصّارفة عن الشّكر هي:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦٦/١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢/٧١.

(٣) إبراهيم: ٧.

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٤٦/٣، ح/١٧٢٤.

(٥) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١٤/١.

١- الجهل بالمنعم: وما يجب له من حقوقه، ولذا من الأمور المهمّة لمن أراد أن يكتسب ملكة الشكر أن يسعى لمعرفة المنعم المطلق جلّت قدرته... وأنَّ كلَّ النّعم صغيرها وكبيرها منه، وكلّ المنعمين وسائط له.

٢- الجهل بالنّعم العامّة المبذولة لكلّ الخليقة: فكثيراً ما يجهل الإنسان الخير الذي هو فيه، ولا يحسّ به إلا حين يفقده، ولذا فمن الضّروري جداً أن يعرف الإنسان (حكمة الله في خلقه جميعاً من الشّمس، والقمر، والرّياح، والبحار، والأرض، والسّماء... وغيرها، وأعضاء البدن)؛ فلا ينبغي لعاقل أن يغفل عن النّعم الإلهيّة العامّة المطلقة والمبثوثة في أرجاء الكون، والتي لا يستغني عنها الإنسان بحال كالماء، والهواء، والنّار، والتّراب، والشّمس، والقمر...

٣- الجهل بالأحكام الإلهيّة: فإن من يجهل أحكام الله لا يستطيع أداء حقوقه تعالى وتأدية شكره .

٤- ومن الأمور الصّارفة عن الشّكر: أن ينظر الإنسان إلى من فوقه في أمور الدّنيا وملاذها، وإلى من دونه من الأمور الأخرويّة؛ ولذا ورد في الأحاديث الشّريفة الحثّ على النّظر إلى من دونه في زخارف الدّنيا، وإلى من فوقه من أمور الآخرة.

ثَمراتُ الشُّكْرِ:

للشّكر ثمراتٌ عظيمةٌ خاصّةٌ للفرد، وثمرات اجتماعيّة تعود على المجتمع الإنساني، أمّا ما تعود على الفرد: فزيادة النّعم من الله تعالى، يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[(١)].

كما أكّدت على ذلك السّنّة المطهّرة بعدد مستفيض من الأحاديث نذكر منها: عن أبي المفضّل، عن عبد الله بن محمّد بن عبيد بن ياسين، عن أبي الحسن الثّالث عليه السلام، يذكر عن آبائه، عن جعفر بن محمّد عليهم السلام، قال: «**قَالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عليه السلام: ما أَنْعَمَ اللهُ عَلى عَبْدٍ نِعْمَةً فَشَكَرَها بِقَلْبِهِ إلا اسْتَوْجَبَ الْمَزيدَ فيها قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ شُكْرُها عَلى لِسانِهِ**»[(٢)].

وقال الإمام الصّادق عليه السلام: «**مَكْتوبٌ في التَّوْراةِ: اشْكُرْ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ، وَأَنْعِمْ عَلى مَنْ شَكَرَكَ، فَإِنَّهُ لا زَوالَ لِلنَّعْماءِ إذا شُكِرَتْ، وَلا بَقاءَ لَها إذا كُفِرَتْ؛ الشُّكْرُ زِيادَةٌ في النِّعَمِ، وَأَمانٌ مِنَ الْغِيَرِ**»[(٣)].

أما ثمرات الشُّكر التي تعود على الفرد؛ فإنَّ الإنسان الشّكور يحظى بالقبول والاحترام الاجتماعيّ، ويمتلك قلوب الآخرين، ويصبح مناراً في الإصلاح والتّغيير؛ ولذلك أوجب الإسلام شكر المنعم من الناس، وربط بين شكر الله تعالى وشكر عباده؛ فعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمُنْعِمَ مِنَ الْمَخْلوقينَ لَمْ يَشْكُرْ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ**»[(٤)].

وعن عمار الدّهني قال: «سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْن عليهما السلام يقولُ: **إنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزينٍ، وَيُحِبُّ كُلَّ عَبْدٍ شَكورٍ، يَقولُ اللهُ - تَبارَكَ وَتَعالى - لِعَبْدٍ**

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) الشيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٨٣٨، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٤٥٨/٦، ح/٣٢٢٤.

(٣) الكافي: ٢٤٣/٣، ح/١٧١٧.

(٤) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٢٤/٢.

مِنْ عَبيدِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ: أَشَكَرْتَ فُلاناً؟ فَيَقولُ: بَلْ شَكَرْتُكَ يا رَبِّ، فَيَقولُ: لَمْ تَشْكُرْني إِذْ لَمْ تَشْكُرْهُ، ثُمَّ قالَ: أَشْكَرُكُمْ للهِ أَشْكَرُكُمْ لِلنّاسِ»[1]؛ وذلك لأنَّ المنعم من المخلوقين هو الواسطة التي نقلت النّعمة للمنعَم عليه، وتحمّلت المشقّة؛ ولهذا استحقّت الشُّكر، وإلا لا يقصد بشكر الوسائط الاشتراك بشكر المنعم المطلق؛ فهذا المخلوق الذي استحقّ الشّكر مُسَخَّرٌ من قبل الله تعالى لحمل نعمه إلى عباده، وإنّما أمر الله تعالى بشكر عباده المحسنين؛ ليكون ذلك دافعاً لفعل المعروف، وقد لُعِنَ قاطع سبيل المعروف[2]، وهو الّذي لا يشكر إحساناً أُسْدِيَ إليه من الآخرين، فيكون سبباً في توقّف المحسن عن مواصلة الإحسان إلى غيره.

فإذن شكر المحسنين هو بيان قيمة جهودهم، وتحسيسهم بأهمّية أعمالهم... وما من إنسان إلا ويحبّ أن تُقيّمَ أعمالُه، وتُشْكَرَ جهودُهُ، وإنّما جاء هذا التّأكيدُ على شكر الله - والله غنيٌّ عن عباده - ليتربّى الإنسان على الشُّكر، ويصبح الشُّكر ملكةً راسخةً في نفسه تنعكس على الآخرين، وتصبح ظاهرةً اجتماعيّةً مؤثّرةً في المجتمع، فحين يحسّ الإنسان بأنَّ أعماله لم تذهب هدراً في وسط المجتمع فسوف يضاعف من جهوده في خدمة أبناء مجتمعه، وهذه هي الثّمرة الاجتماعيّة للشُّكر، وهي ثمرة لها تأثيرٌ بالِغُ الأهمية في تقدّم المجتمع وازدهاره.

---

(١) الكافي: ٣/٢٥٥، ح/١٧٤٤.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَعَنَ اللهُ قاطِعي سَبيلِ الْمَعْروفِ، وَهُوَ الرَّجَلُ الّذي يُصْنَعُ إِلَيْهِ الْمَعْروفُ، فَيَكْفُرُهُ، فَيَمْنَعُ صاحِبَهُ مِنْ أَنْ يَصْنَعَ ذلِكَ إِلى غَيْرِهِ»، الشّيخ المفيد، الاختصاص: ٢٤١.

الشُّكْرُ الْحَقيقيُّ للهِ تَعالى:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أَوْحى اللهُ تَعالى إلى موسى: يا موسى، اشْكُرْني حَقَّ شُكْري، فَقالَ: يا رَبِّ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ؟ [وَ]لَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إلا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ، فَقالَ: يا موسى، شَكَرْتَني حَقَّ شُكْري حينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذلِكَ مِنّي**»(١).

ولا يعني هذا أنّ الشُّكر الحقيقيّ هو العلم بالنّعمة من منعمها فقط، وإنّما يعني بها أنّ العلم بها تحوّل إلى ملكة شدَّت الإنسان إلى خالقه المنعم عليه، والعلم كما يقول الأصوليّون هو: الباعث على الحركة، فهذا العلم سيكون دافعاً للتّحرّك نحو الله تعالى من خلال الإحساس بنعمه، ولكنّ في الحديث إجمالاً يحتاج إلى تفصيل وتوضيح وتقييد بأحاديث أخرى كالحديث الذي تقدّم ذكره عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ الْوَرَعُ عَمّا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»(٢)، وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِنابُ الْمَحارِمِ**»(٣).

إذن الشُّكر الحقيقيّ لله تعالى: معرفة تملأ العقل، ويقين يثبّت الأقدام، وإيمان يحكم الجوارح والجوانح، وحركة تطبّق أحكام الله في الواقع، وبالتّالي يتحوّل إلى إحساس بنعم الله تعالى متأصّل في النّفس، مطبوع على صفحات القلب، ومنه يفيض على اللّسان حمداً وثناءً، وعلى الجوارح حركةً، وعملاً، وسلوكاً؛ وبذلك نفهم الحثّ المتواصل المستفيض في الكتاب والسّنّة على

---

(١) بحار الأنوار: ٥١/٧١، والحديثُ مرويٌّ عن الإمام الباقر عليه السلام مرسلاً في صفحة ٥٥-٥٦، باختلاف طفيف.

(٢) كتاب الخصال: ١٤/١.

(٣) الكافي: ٢٤٦/٣، ح/١٧٢٤.

مواصلة الشُّكر على كلّ نعمة، حيث إنَّ المراد هو أن يكون الشُّكر ملكةً مترسّخةً في النَّفس تمنع كفران النّعم المقابل للشُّكر.

الشُّكْرُ عَلى الْبَلاءِ:

البلاء من الله: امتحان واختبار لعباده؛ لإثبات الحجة عليهم، وتعريفهم بحقيقة إيمانهم، وكشف دخائل أنفسهم، وهو المعبّر عنه في الكتاب الكريم بالفتنة التي هي سنّة إلهيّة؛ لتكميل الخلق لا لتعذيبهم.

هذا في جانبها السلبي ومن جانب آخر يبتلي الله عباده بالنّعم والخيرات التي يفيضها عليهم، يقول تعالى عن لسان سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[1].

ولما كان البلاء والامتحان؛ لتصعيد ملكات الإنسان بتطهيره من العناصر الغريبة عن روح الإيمان، فلا بدّ للمؤمن أن يشكر الله على بلائه كما يشكره على نعمائه، فكلاهما فتنة وامتحان واختبار، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[2].

ولذا قيل: «في كلّ بلاء خمسة أنواع من الشُّكر:

الأوّل: يمكن أن يكون دافعاً أشدَّ منه كما أنَّ موت دابّته دافع لموت نفسه، فينبغي الشكر على عدم ابتلائه بالأشدّ.

الثّاني: أنَّ البلاء إمّا كفارة للذّنوب، أو سبب لرفع الدّرجة، فينبغي الشُّكر

---

(١) النّمل: ٤٠.

(٢) الفجر: ١٥-١٦.

على كلّ منهما.

الثّالث: أنَّ البلاءَ مصيبةٌ دنيويّةٌ، فينبغي الشُّكر على أنَّه ليس مصيبته دينيّةٌ...

الرّابع: أنَّ البلاءَ كان مكتوباً في اللّوح المحفوظ، وكان في طريقه لامحالة فينبغي الشُّكر على أنَّه مضى ووقع خلف ظهره.

الخامس: أنَّ بلاءَ الدُّنيا سببٌ لثواب الآخرة وزوال حبِّ الدُّنيا من القلب، فينبغي الشُّكر عليها»[1].

هَل التَّكْليفُ بِالشُّكْرِ للهِ تَعالى تَكْليفٌ بِما لا يُطاقُ؟

من بديهيّات السّنّة الإلهيّة أنَّ الله تعالى لا يكلّف نفساً إلا وسعها، وتكليف الإنسان بشكر الله على نعمه جميعاً، والّتي لا تعدّ ولا تحصى، تكليف فوق طاقة الإنسان، فكيف يكون ذلك؟

والجواب: إنَّ التَّدبّر بالحكمة الإلهيّة، والغاية الّتي من أجلها أمر الله تعالى بالشُّكر هو الّذي يحلّ هذا الإشكال، وإنَّ أي شاكر إنّما يشكر لنفسه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2]، فإذا كان شكرُ الله يعود على الشّاكر بالخير العميم، والزّيادة في البركات والسّمو في الرّوح؛ فإذن الشُّكر عمليّةٌ تربويّةٌ يريد الله من خلالها أن يحقّق للإنسان ملكةً طيّبةً في نفسه، وهذا أمر ممكن؛ ولذا جاء في الحديث المتقدم عن موسى عليه السلام: «**يا موسى، شَكَرْتَني حَقَّ شُكْري حينَ عَلِمْتَ أَنَّ**

(١) بحار الأنوار: ٧١/٣٣-٣٤.

(٢) لقمان: ١٢.

ذلِكَ مِنّي»[١].

يقول العلامة الطّباطبائي رحمه الله: «ولا يصغي إلى قول من يقول: إنَّه أمر بما لا يطاق؛ فإنَّه ناشئ من قلة التّدبّر في هذه الحقائق، والبعد من ساحة العبوديّة. وقد عرفت - فيما تقدّم من الكتاب - أنَّ إطلاق الفعل لا يدلّ إلا على تلبّسٍ ما، بخلاف الوصف فإنَّه يدل على استقرار التّلبّس، وصيرورة المعنى الوصفيّ ملكة لا تفارق الإنسان، ففرق بين قولنا: الّذين أشركوا، والّذين صبروا، والّذين ظلموا، والّذين يعتدون، وبين قولنا: المشركين، والصّابرين، والظّالمين، والمعتدين؛ فالشّاكرون هم الّذين ثبت فيهم وصف الشُّكر، واستقرّت فيهم هذه الفضيلة، وقد بان أنَّ الشُّكر المطلق هو أن لا يذكر العبد شيئاً «وهو نعمة» إلا وذكر الله معه، ولا يمسّ شيئاً «وهو نعمة» إلا ويطيع الله فيه»[٢].

فإن قلت: وماذا تقول في دعاء الإمام السّجّاد عليه السلام في الصّحيفة السّجاديّة: **«فَكَيْفَ لي بِتَحْصيلِ الشُّكْرِ، وَشُكْري إِيّاكَ يَفْتَقِرُ إِلى شُكْرٍ؟! فَكُلَّما قُلْتُ لَكَ الْحَمْدُ، وَجَبَ عَلَيَّ لِذلِكَ أَنْ أَقولَ لَكَ الْحَمْدُ»**[٣].

نعم، إنَّ تحقيق الشُّكر الكامل على كلّ مفردة، مفردة من نعم الله تعالى الخارجة عن حدود الإحصاء، خارج عن حدود طاقة الإنسان، وهذا لم يكلّف الله به أحداً من خلقه، ولكنَّ الذي أراده الله تعالى من عباده أن يبذلوا الطّاقة الّتي أودعها فيهم؛ لشكره بالمقدار الممكن منها.

---

(١) بحار الأنوار: ٥١/٧١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٣٨/٤-٣٩.

(٣) الصّحيفة السّجادية، مناجاة الشّاكرين.

والإمام عليه السلام رغم عظمته، وكثرة عبادته، ومواصلة شكره، نراه يتصاغر أمام ربّه للنّعم الّتي أنعمها عليه، وهذا التّصاغر، والتّذلّل، والخشوع، يتناسب تناسباً طرديّاً مع عمق معرفته بالله تعالى... فكلّما زادت معرفة الإنسان بالله تعالى زادت هيبته في نفسه؛ ولذا نراه عليه السلام ينطق بلسان العجز عن أداء حقّ الله تعالى، ولو لم يكن هذا الشّعور متأصّلاً في ذاته لخرج عن إطار العصمة؛ والعصمة هي الّتي دعته أن يتصاغر أمام عظمة الربّ الكريم؛ ولهذا نراه بهذه الصّورة من الانكسار، والخضوع، والشّعور بالعجز، فلنسمعه يقول: «**هذا مَقامُ مَن اعْتَرَفَ بِسُبوغِ النَّعْماء، وَقابَلَها بِالتَّقْصير، وَشَهِدَ عَلى نَفْسِهِ بِالإهْمال، وَالتَّضْييع... إلهي تَصاغَرَ عِنْدَ تَعاظُمِ آلائِكَ شُكْري، وَتَضاءَلَ في جَنْبِ إكْرامِكَ إيّايَ ثَنائي وَنَشْري**»[1].

فهذا ما يجب أن نتعلّمه منهم عليهم السلام، وهو أنَّ على الإنسان أنْ لا يستكثر عبادته مهما كانت، ويستقلّ شكره مهما بلغ، والدّليل على ذلك ما جاء في كتاب مصباح الشّريعة منسوباً إلى الإمام الصّادق عليه السلام:

«**وَلَوْ كانَ عِنْدَ الله تَعالى عِبادَةٌ تَعَبَّدَ بها عِبادَهُ الْمُخْلَصونَ أَفْضَلَ مِنَ الشُّكْرِ عَلى كُلّ لأَطْلَقَ لَفْظَةً فيهِمْ مِنْ جَميعِ الْخَلْقِ بِها، فَلَمّا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ مِنْها خَصَّها مِنْ بَيْنِ الْعِباداتِ، وَخَصَّ أَرْبابَها، فَقالَ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2]، وَتَمامُ الشُّكْرِ الاعْتِرافُ بِلِسانِ الْعِزّ خالِصاً لله عَزَّ وَجَلَّ بِالْعَجْزِ عَنْ بُلوغِ أَدْنى شُكْرِهِ**»[3].

(١) المصدر نفسه.

(٢) سبأ: ١٣.

(٣) مصباح الشّريعة: ٢٤-٢٥.

فقوله عليه السلام: «وَتَمامُ الشُّكْرِ الاعْتِرافُ» يدلّ على أنّ الشُّكر المراد هو: الاعتراف بالعجز بصدقٍ وإحساسٍ واقعي بالتَّقصير أمام عظمة الله تعالى، وتحرّك بمقدار الطّاقة المودعة في الإنسان من قبل الله؛ فإذا اعترف الإنسان بالنّعم الإلهيّة، وبعجزه عن شكره تعالى، وذكر ذلك بلسانه، وقلبه، وسخَّرها لطاعة ربه، فقد شكر اللهَ حقَّ شكره، فإذن الشُّكْرُ أمرٌ ممكنٌ، وليس فيه تحميلٌ على الطّاقة.

اللَّهُمَّ عَلّمْنا شُكْرَكَ، وَأَلْهِمْنا ذِكْرَكَ، وَوَفّقْنا لِذلِكَ إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ.

تَتْميمٌ:

قال المحقّق الطّوسي قدس سره: «الشُّكر أشرف الأعمال وأفضلها، واعلم أنَّ الشُّكر مقابلة النّعمة: بالقول، والفعل، والنّية، وله أركان ثلاثة:

الأوّل: معرفة المنعم وصفاته اللائقة به، ومعرفة النّعمة من حيث إنّها نعمة، ولا تتمُّ تلك المعرفة إلا بأن يعرف أنّ النّعم كلّها جليّها وخفيّها من الله سبحانه، وأنّه المنعم الحقيقيُّ، وأنّ الأوساط كلّها منقادون لحكمه مسخّرون لأمره.

الثّاني: الحال الّتي هي ثمرة تلك المعرفة، وهي الخضوع، والتّواضع، والسّرور بالنّعم، من حيث إنّها هي هدية دالّة على عناية المنعم بك، وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدُّنيا إلا بما يوجب القرب منه.

الثّالث: العمل الّذي هو ثمرة تلك الحال، فإنّ تلك الحال إذا حصلت في القلب حصل فيه نشاطٌ للعمل الموجب للقرب منه، وهذا العمل يتعلّق بالقلب، واللّسان، والجوارح:

أمّا عمل القلب؛ فالقصد إلى تعظيمه، وتحميده، وتمجيده، والتّفكّر في

صنائعه، وأفعاله، وآثار لطفه، والعزم على إيصال الخير والإحسان إلى كافّة خلقه.

وأمّا عمل اللّسان، فإظهار ذلك المقصود بالتّحميد، والتّمجيد، والتّسبيح، والتّهليل، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، إلى غير ذلك.

وأمّا عمل الجوارح فاستعمال نعمه الظّاهرة والباطنة في طاعته وعبادته، والتّوقّي من الاستعانة بها في معصيته ومخالفته كاستعمال العين في مطالعة مصنوعاته، وتلاوة كتابه، وتذكّر العلوم المأثورة من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وكذا سائر الجوارح.

فظهر أنّ الشُّكر من أمّهات صفات الكمال، وتحقّق الكامل منه نادر كما قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

ولما كان الشُّكر بالجوارح الّتي هي من نعمه تعالى، ولا يتأتّى إلا بتوفيقه سبحانه، فالشُّكر أيضاً نعمة من نعمه، ويوجب شكراً آخر، فينتهي إلى الاعتراف بالعجز عن الشُّكر، فآخر مراتب الشُّكر الاعتراف بالعجز عنه، كما أنّ آخرَ مراتبِ المعرفةِ والثّناء الاعترافُ بالعجز عنهما، وكذا العبادة كما قال سيّد العابدين، والعارفين، والشّاكرين صلى الله عليه وآله: «**لا أُحْصي ثَناءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ**»، وقال صلى الله عليه وآله: «**ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ، وَما عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ**»[انتهى كلام المحقق الطوسي]»[2].

«**اللَّهُمَّ إِنَّ أَحَداً لا يَبْلُغُ مِنْ شُكْرِكَ غايَةً إِلا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ إِحْسانِكَ**

(١) سبأ: ١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٧١/٢٢-٢٣.

ما يُلْزِمُهُ شُكْراً... فَأَشْكَرُ عِبادِكَ عاجِزٌ عَنْ شُكْرِكَ... وَمَنْ رَضيتَ عَنْهُ فَبِفَضْلِكَ، تَشْكُرُ يَسيرَ ما شُكِرْتَهُ... حَتّى كَأَنَّ شُكْرَ عِبادِكَ الَّذي أَوْجَبْتَ عَلَيْهِ ثَوابَهُمْ، وَأَعْظَمْتَ عَنْهُ جَزاءَهُمْ أَمْرٌ مَلَكوا اسْتِطاعَةَ الامْتِناعِ مِنْهُ دونَكَ فَكافَيْتَهُمْ، أَوْ لَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ بِيَدِكَ فَجازَيْتَهُمْ، بَلْ مَلَكْتَ يا إِلهي أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكوا عِبادَتَكَ، وَأَعْدَدْتَ ثَوابَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُفيضوا في طاعَتِكَ، وَذلِكَ أَنَّ سُنَّتَكَ الإِفْضالُ، وَعادَتَكَ الإِحْسانُ، وَسَبيلَكَ الْعَفْوُ...»[1].

يا من شُكْرُهُ فَوْزٌ لِلشّاكِرينَ
أَلْهِمْنا شُكْرَكَ وَعَلّمْنا ذِكْرَكَ

(١) الصحيفة السّجاديّة الكاملة: ١٤٣-١٤٤، دعاء: ٣٧.

(الْبَحْثُ السّابِعُ)

الصَّبْرُ

عن أبي بصير قال: «سَمِعْتُ أَبا عَبْدِ الله عليه السلام يَقولُ: **إنَّ الْحُرَّ حُرٌّ عَلى جَميعِ أَحْوالِهِ، إنْ نابَتْهُ نائِبَةٌ صَبَرَ لَها، وَإنْ تَداكَّتْ عَلَيْهِ الْمَصائِبُ لَمْ تَكْسِرْهُ، وَإنْ أُسِرَ وَقُهِرَ، وَاسْتُبْدِلَ بِالْيُسْرِ عُسْراً - كَما كانَ يوسُفُ الصّدّيقُ الأَمينُ صَلَواتُ الله عَلَيْهِ - لَمْ يَضْرُرْ حُرِّيَّتَهُ أنِ اسْتُعْبِدَ، وَقُهِرَ، وَأُسِرَ، وَلَمْ تَضْرُرْهُ ظُلْمَةُ الْجُبِّ وَوَحْشَتُهُ، وَما نالَهُ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ؛ فَجَعَلَ الْجَبّارَ الْعاتِيَ لَهُ عَبْداً بَعْدَ إِذْ كانَ لَهُ مالِكاً، فَأَرْسَلَهُ وَرَحِمَ بِهِ أُمَّةً، وَكَذلِكَ الصَّبْرُ يُعَقِّبُ خَيْراً، فَاصْبِروا وَوَطِّنوا أَنْفُسَكُمْ عَلى الصَّبْرِ تُؤْجَروا**»[1].

الصَّبر لغةً: «الإمساك في ضيق»، وهو معنى جامع يشمل حالات متعدّدة، ولكنّها كلّها تنتهي إلى معنى واحد، وخلاصته هو: «حبس النَّفس على ما يقتضيه العقل والشّرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فالصَّبر لفظ عامٌّ، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النّفس لمصيبة سُمِّيَ صبراً لا غير، ويضادّه الجزع، وإن كان في محاربة سُمِّي شجاعة، ويضادّه الجبن، وإن كان في نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سُمِّي رحبَ الصَّدر، ويضادّه الضَّجَر، وإن كان في إمساك

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣/٢٣٠-٢٣١، ح/١٦٩٥.

الكلام سُمِّيَ كِتماناً، ويضادّه المَذلُ[(١)]، وقد سَمّى الله تعالى كلَّ ذلك صبراً»[(٢)].

وعند علماء الأخلاق: الصَّبر: كفُّ النَّفس عن الجزع عند حلول المكروه، أو أنَّه امتناع عن الشَّكوى عند نزول البلاء، والثَّبات عند حالات الشّدائد والصّعاب، وقيل: هو «ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الشَّهوة»[(٣)].

وبكلمة أوجز: الصَّبر قوة مقاومة شرعيّة إزاء الضغوط الدّاخليّة في النَّفس، والضّغوط الخارجيّة في الواقع... وفي جميع حالات الابتلاء: (الصّبر على الجهد، والصّبر على الأذى، والصّبر على الهزيمة، والصَّبر على النَّصر أيضاً - فالصَّبر على النَّصر أشقّ من الصَّبر على الهزيمة - وحتى يتمحّص القلب، ويتميّز الصَّف، وتستقيم الجماعة على الطّريق، وتمضي فيه راشدة صاعدة، متوكّلة على الله)[(٤)].

وبعبارات الحديث الشّريف: «صبر على الطّاعة، وصبر عن المعصية، وصبر عند نزول المصيبة».

الصَّبْرُ مِنْ خَواصّ الإِنْسانِ:

دون سواه من المخلوقات، وذلك لأنَّ الحيوانات والملائكة لا يتصور بأنَّها صابرة؛ لأنها مسيَّرة في تكوينها، ولا تعيش حالة صراع داخليّ، وبعبارة أخرى: الملائكة والحيوانات ذات بعدٍ واحدٍ، والإنسان ذات أبعادٍ متعدّدةٍ؛ فالبهائم خاضعة لغرائزها الّتي ألهمها الله عزَّ وجَلَّ بها، وصارت مُسخَّرَة لها، ولا باعث لها

---

(١) المذل: الضّجر والقلق... والمَذِل: الّذي لا يقدر على ضبط نفسه وحفظ سرّه، لسان العرب: ٦٢١/١١، باب (مذل).

(٢) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٣٧٩، باب (صبر).

(٣) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ٦٣/٤، والمحجّة البيضاء للفيض الكاشاني: ١١١/٧.

(٤) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ١٦٣/٢.

على الحركة والسّكون إلا الشّهوات، وليس فيها قوةٌ تنازع وتصارع الشّهوات.

وأمّا الملائكة؛ فإنَّهم مُجرَّدون للحضرة القدسيّة، متوجّهون لطاعـة الله، ولا يملكون قوة تنازعهم... وأما الإنسان فقد رُكّبَتْ فيه القوّتان.

حاجَةُ الْمُطيعِ إلى الصَّبْرِ:

لعلَّ الصَّبر على الطّاعـة مـن أشـقّ أنـواع الصّبر؛ لأنَّهـا تحتـاج إلـى توجّـهٍ خاصّ، يملك فيه الإنسان نفسه، ويسيطر عليهـا؛ ليتوجّـه إلـى خالقـه بنيّـة خالصـة مجرّدة عن كلّ ضميمة، وإضافةً إلى ذلك فليس الجهد وحده يحتاج إلـى صـبر، بل ما بعد الجهد أيضاً، وهو كيف يحافظ علـى جهـده الّـذي بذلـه فـي سـبيل الله تعالى؟ ومن هنا يحتاج المطيع إلى الصّبر في ثلاث حالات:

١- قبل الطّاعة في تصحيح النّيّة، والإخلاص في العمـل لله تعـالى دون أن تشوبه شائبة.

٢- وفي حالة العمل، ومراعـاة آدابـه وسـننه، والـدّوام عليـه بـلا كلـلٍ، ولا فتورٍ، ولا توانٍ، ولا رياء، ولا سمعة.

٣- حالة ما بعد الفراغ من العمل؛ فـي ضـبط نفسـه، لـئلا تُصـاب بـالغرور، والانبهار، والعجب، مع عدم التّظاهر والتّفـاخر بأعمالـه، ولعـلَّ هـذه الحالـة أشـدّ الحالات على المطيع، فهو هنا إلى الصَّبر أحوج؛ لأنَّه هنا إذا فقد الصَّبر قد يخسر كـلَّ مـا بذلـه مـن جهـد، ومـا عملـه مـن عمـل بالتّبـاهي، والتّفـاخر، والإعجـاب، والتّظاهر، الّذي قد يوقعه بالرّياء -والعياذ بالله- فيخرج من الإيمـان إلـى الشّـرك الخفيّ من حيـث لا يعلـم، وهـذه هـي الطّامـة الكبـرى؛ ولهـذا نـرى أنَّ عبـاد الله المخلصين يعملون العمل بكلّ جدّ وإخلاص، ورغم ذلك يبقى الوجل والخوف

يساور قلوبهم خشية عدم القبول؛ قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: «كم تتصدّق؟! كم تخرج مالك؟! ألا تمسك؟» قال: «**إنّي وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ تَعالى قَبِلَ مِنّي فَرْضاً واحِداً لأَمْسَكْتُ، وَلَكِنّي وَاللهِ لا أَدْري أَقَبِلَ سُبْحانَهُ مِنّي شَيْئاً أَمْ لا**»(١).

وأما مقامات الصَّبر في المصيبة؛ فقد ذكر علماء الأخلاق ثلاثة، وهي:

أ- ترك الشّكوى، وهي درجة التّائبين.

ب- الرّضا بالمقدور، وهي درجة الزّاهدين.

ج- المحبّة بما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصّدّيقين.

دَعائِمُ الصَّبْرِ:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَالصَّبْرُ مِنْها عَلى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ؛ فَمَنِ اشْتاقَ إِلى الْجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَواتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّماتِ، وَمَنْ زَهِدَ في الدُّنْيا اسْتَهانَ بِالْمُصيباتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سارَعَ إِلى الْخَيْراتِ**»(٢).

فأمير المؤمنين عليه السلام هنا يبني الصَّبر من خلال ربط الإنسان بالغيب، فكلّما زاد إيمان الإنسان بالغيب، وتطلّعَ إلى لقاء الله تعالى حصلت له أربع حالات: شوق، وشفق (خوف)، واستهانة بمصائب الدنيا، وترقّب للموت في كلّ لحظة؛ فحصول هذه الحالات في النّفس تجعل الإنسان صابراً محتسباً، لا يصيبه هلعٌ،

---

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ١٣٨/٤١ .

(٢) نهج البلاغة: ٤٩٠ ، قصار الحكم: ٢٧ .

ولا جزعٌ، مهما تداكّت عليه المصائب، وأظلمت بوجهه دنيا النّاس.

نَتائِجُ الصَّبْرِ:

لا شكَّ أن الصَّبر الواعي المبنيّ على أسس رساليّة له نتائج باهرة على نفس الإنسان ذاته، وعلى الواقع الذي يعيشه، ومن هذه النّتائج:

١- ترويض النّفس وتربيتها على تحمّل المشاقّ سواء كانت في النّوائب، أو في الطّاعات أو عن المعاصي... فحينئذٍ تعتاد النّفس على الصّبر، وتحصل لها ملكة نورانيّة تخرق بها ركام الظّلمات، وتنسف حجب الأدران، ومذامّ الأخلاق... وبهذا يرتقي الإنسان إلى مقامات أسمى في عالم الرّوح، والفكر، والأخلاق.

٢- إنَّ الصبر يمنح الإنسان قوّة مقاومة للمعاصي والمخالفات الشّرعيّة، ويبعث في النّفس روح التّقوى، والورع، والإخلاص...

٣- كما أنَّ الصَّبر على الطّاعة يمنح اللّذة في لقاء الله، ويحقّقُ في النَّفس الأنسَ بالله تعالى، ويجعل الإنسان يستمري المعاناة في سبيل الله.

٤- إنَّ الصَّبر يهوّن المصائب والصّعاب، ويقوّي عزيمة الإنسان وإرادته، ويجعل منه إنساناً معتدلاً، متماسكاً، متزيّناً، يقول نصير الدّين الطّوسي عن الصّبر: «إنّما يكون ذلك بمنع باطنه عن الاضطراب، ولسانه من الشّكوى، وأعضائه من الحركات غير المعتادة»[1].

وبعبارة أخرى: الصَّبر يخفّف الرّزيّة، ويبعد الإنسان عن الجزع، والقلق،

(١) نصير الدّين الطّوسي، أوصاف الأشراف: ٥٩.

والاضطراب؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**صَبْرُكَ عَلى الْمُصيبَةِ يُخَفِّفُ الرَّزِيَّةَ، وَيُجْزِلُ الْمَثوبَةَ**»(١).

٥- إدراك المنازل الرفيعة: طالب الدّنيا يحتاج إلى الصّبر، وطالب الآخرة كذلك؛ فسنّة الله جارية في خلقه، إنَّ أي منزلة رفيعة دنيويّة كانت، أو أخرويّة لا بدّ لها من الصّبر، فتحصيل الأموال، والمقام ، والجاه، والسّمعة في الدّنيا لا بدّ لها من الصَّبر؛ وكذلك تحصيل الملكات العالية، والأدب السامي، ورحمة الله، والخلود في دار رحمته، ومجاورة أوليائه لا يمكن أن تحصل إلا بالصَّبر، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَحْمَدَ عاقِبَةً، وَلا أَلَذَّ مَغَبَّةً، وَلا أَدْفَعَ لِسوءِ أَدَبٍ، وَلا أَعْوَنَ عَلى دَرْكِ مَطْلَبٍ مِنَ الصَّبْرِ**».

«**الْزَمِ الصَّبْرَ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ حُلْوُ الْعاقِبَةِ، مَيْمونُ الْمَغَبَّةِ**».

«**إِنْ صَبَرْتَ أَدْرَكْتَ بِصَبْرِكَ مَنازِلَ الأَبْرارِ، وَإِنْ جَزَعْتَ أَوْرَدَكَ جَزَعُكَ عَذابَ النّارِ**».

«**بِالصَّبْرِ تُدْرَكُ الرَّغائِبُ**».

«**قَلَّ مَنْ صَبَرَ إلا مَلَكَ**».

«**لا يُنْعَمُ بِنَعيمِ الآخِرَةِ إلا مَنْ صَبَرَ عَلى بَلاءِ الدُّنْيا**»(٢).

كَيْفَ تَتِمُّ مَلَكَةُ الصَّبْرِ؟

تتفاوت القدرة على التّحمّل والصّبر من إنسان لآخر حسب درجة إيمانه،

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٢ ، ح/٦٢٨٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٤ ، ح/٦٣٥٤-٦٣٥٣-٦٣٦٣-٦٣٦٤-٦٣٥١-٦٣٤٥ .

وقدرته العمليّة، وقناعته في مسيرته، وأهدافه في حياته؛ ولكي يرفع المؤمن من مستوى صبره وتحمله لا بدّ له من ثلاثة أمور:

- معرفة الله تعالى.
- معرفة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأهل بيته الطّاهرين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.
- معرفة المصالح والمفاسد.

أما معرفة الله تعالى: فهي أساسٌ عقائديٌّ يتقوّم عليه بناء شخصيّة الإنسان، ودون هذا الاعتقاد فإنَّ الإنسان مهما بلغت قوّته؛ فهو أوهن من بيت العنكبوت... ونقصد بمعرفة الله تعالى:

أوّلاً: أن يعرف أنَّه بعين الله تعالى، وتحت هيمنته لا يخلو منها لحظةً أبداً، وهذا يمنحه قوّة لا تعدلها قوّة، ويهوّن عليه المصائب مهما بلغت شدّتها؛ ولهذا نرى أنَّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ذُبحَ ولدُهُ بين يديه يرفع طرفه إلى السّماء، ويقول: **«هَوَّنَ ما نَزَلَ بي أَنَّهُ بِعَيْنِ الله تَعالى، اللَّهُمَّ لا يَكونُ أَهْوَنَ عَلَيْكَ مِنْ فَصيلِ ناقَةِ صالِحٍ»**[1]؛ ولعلَّ هذا الصّبر هو **«الصَّبْرُ بِالله»**، يقول تعالى:

﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾[2].

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾[3].

ثانياً: أن يعرف أنَّه مسؤول أمام الله تعالى لحمل رسالته، وما يلزمه من الصَّبر على معاناة التّبليغ والدَّعوة إلى الله تعالى، وأنَّه مأمورٌ بالصَّبْر والمصابرة

(١) المقرّم، مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ : ٢٨٦.

(٢) النّحل: ١٢٧.

(٣) الطّور: ٤٨.

على كلّ حال، يقول تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

ثالثاً: أن يعرف أنَّ الله تعالى ناصر جنده على كلّ حال، قَتلوا أو قُتلوا، حَكموا أو حُكموا، مَلكوا أو مُلكوا.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾(٢).

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٣).

ولكي تحصل للإنسان ملكة الصبر فعليه: أن يركّز في نفسه الشّعور بمعيّة الله تعالى، وهذه من أقوى العوامل على رفع قوة المقاومة، والصّبر، والمواصلة بثبات، يقول رسول الله ﷺ صاحبه حين رآه مضطرباً: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(٤)، وموسى عليه السلام وهو يخوض الصّراع ضد طاغوت عصره فرعون، ويحاصر هو وأصحابه من كلّ حدب وصوب، وعندما قيل له ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾(٥).

ومن هنا يجب أن يمرّن الإنسان نفسه على التّضحية لله، وفي الله دون طلب الجزاء، وإنّما امتثالاً لأحكام الله، وهذه درجة لا ينالها إلا ذو حظ عظيم، ولكنّها غير مستحيلة.

---

(١) آل عمران: ٢٠٠.

(٢) المجادلة: ٢١.

(٣) الصّافات: ١٧٣.

(٤) التّوبة: ٤٠.

(٥) الشّعراء: ٦١-٦٢.

وأما معرفة رسوله وأهل بيته؛ فعلى المؤمن أن يتّخذهم أسوة وقدوة، ويتمثل في نفسه ما عاناه رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من أذيّة ما لم يتحملها نبيٌّ قبله... إنَّ تمثّل حياة رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من منابع المقاومة والصّبر، وأعتقد أنَّ من اقتدى به، وتأسّى به لا يمكن أن يصيبه الهلع، والجزع، والانهزام، والتّراجع، مهما بلغت المحن.

وأمّا معرفة المصالح والمفاسد؛ إنَّ معرفة المصالح والملاكات المترتّبة على الصَّبر يطمع النَّفس في فوائد المجاهدة للنّفس، ويمنحها قوّة ومقاومة؛ ولذلك ينبغي لمن يريد أن يمتلك ملكةَ الصَّبر أن يتأمّل جيّداً في عاقبة الصَّبْر، وما يؤدّي به من الظفر والنصر، وليتذكّر قول إمام الصّابرين عليّ عَلَيْهِالسَّلَامُ:

«الصَّبْرُ ظَفَرٌ».

«اصْبِرْ تَظْفَرْ».

«في الصَّبْرِ ظَفْرٌ».

«لا يَعْدَمُ الصَّبورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طالَ بِهِ الزَّمانُ».

«يَؤولُ أَمْرُ الصَّبورِ إِلى دَرَكِ غايَتِهِ وَبُلوغِ أَمَلِهِ»[1].

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٣-٢٨٤، ح/٦٣١١-٦٣١٥-٦٣٢١-٦٣٣٢-٦٣٣٣.

(البَحْثُ الثّامِنُ)

الصِّدْقُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

الآية الكريمة خطاب موجّهٌ للمؤمنين؛ يأمرهم بتقوى الله أوّلاً، وبالسّير في نهج الصّادقين ثانياً... وهنا إشارةٌ دقيقةٌ، وهي: لا يكفي أن يكون الإنسان متّقياً وأنَّه من الصّادقين، وإنّما يجب أن يكون معهم، يعاني كما عانوا، ويدعو لما دعوا، ويثبت في المواقف الّتي ثبتوا فيها، ويضحّي كما ضحّوا؛ لأنَّ المعيّة هي المصاحبة في العمل؛ ولذلك يمكن القول: أنَّ المرادَ بالصّدقِ هنا الصّدقُ بمعناه الواسع في القول، وفي العمل، وفي القصد؛ فمعنى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي سيروا بسيرتهم، واهتدوا بهدايتهم، وتخلّقوا بأخلاقهم، واعملوا ما كانوا يعملون، واتّصفوا بما كانون يتّصفون... الخ؛ لأنَّ الصّدق هو «مطابقة القول الضّمير والمُخْبَرَ عنه معاً، ومتى انخرم شرطٌ من ذلك لم يكن صدقاً تامّاً»[2]؛ فإذا كان الإنسان صادقاً في القول دون النّية، والعزم، أو دون العمل، فلا يسمّى صادقاً.

وفي الآية إشارة أخرى، وهي وجوب موافقة الصّادقين في كلّ زمان ومكان - مع ملاحظة اختلاف الظّروف - وهذا ينفي قول من فَسَّرَ الآية بأنَّها

---

(١) التّوبة: ١١٩.

(٢) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٣٨٤، باب (صدق).

منحصرة في وقت رسول الله ﷺ، ودليل النَّفي أمران:

الأوّل: من المتّفق عليه عند كلّ المسلمين أنّ الشّريعة الإسلامية لازمةُ التَّطبيق في كلّ زمان ومكان؛ لأنّ «**حلالُ مُحَمَّدٍ حَلالٌ أَبَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَـةِ، وَحَرامُه حَرامٌ أَبداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**»[1].

والثّاني: إنَّ الآية تفيد الإطلاق، ولم تقيّد الأمر في الكون على الصدق هنا بزمان دون زمان، أو مكان دون مكان... وبناءً على ذلك فإنّ الآية تدلّ على استمرار وجود الصّادقين في كلّ زمان، ولزوم ملازمتهم في القول، والفعل، والنّيّة، والعزم؛ فإنّ الله تعالى لا يخلي الأرض من حجّة، ولا يبيح لأحد مخالفة تلك الحجّة.

أَقْسامُ الصِّدْقِ:

قَسَّمَ علماءُ الأخلاقِ الصّدقَ على عدّة أقسام، وحقيقة الأمر أنّ هذا التّقسيم للتّوضيح لا للتّبعيض؛ لأنّه إذا انفرط أحدُ هذا الأقسام لا يمكن أن يسمّى الإنسانُ صادقاً وفق النّظريّة الإسلاميّة:

١- **الصّدق في القول**: الإنسان المسلم ينبغي أن يكون صادقاً في قوله مع نفسه، ومع ربّه، ومع النّاس، وأن يضع قلبه في كلامه، ولا سيّما في قوله عند مناجاة ربّه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، وهذا ما أكّدته مبادئ الإسلام الحنيف، بل جعلته المقياس في تقييم الرّجال وفي قبول الأعمال كما سيأتي بيانه

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ١/١٤٧-١٤٨، ح/١٧٩.

(٢) الفاتحة: ٥.

إن شاء الله تعالى.

يقول الإمام الصّادق عليه السلام لفُضَيل بن يسار: «**يا فُضَيْلُ، إنَّ الصّادِقَ أَوَّلُ مَنْ يُصَدِّقُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَعْلَمُ أَنَّهُ صادِقٌ، وَتُصَدِّقُهُ نَفْسُهُ، تَعْلَمُ أَنَّهُ صادِقٌ**»[1].

٢- الصِّدق في النّيّة والإرادة: ومعنى ذلك أن يكون باعثه نحو العمل هو امتثال أمر الله تعالى؛ ولذا جاء في أحكام العبادات جميعاً أنَّ النّيّةَ شرطٌ إلزاميٌّ، ودونها يصبح العمل ساقطاً عن الاعتبار؛ فأيّ عبادة تخلو من الصّدق، فهي باطلة؛ ولهذا القسم آثارٌ مهمّة تترتّب على العمل: منها قبول العمل، ومنها أنَّ صدق النّيّة من أقوى عوامل إنجاز أيّ عمل مهما كان صعباً وثقيلاً، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**ما ضَعُفَ بَدَنٌ عَمّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النِّيَّةُ**»[2].

٣- الصِّدق في العزم: والعزم عقد القلب على إمضاء الأمر، أي هو التّصميم والمضاء دون تردّد، فإذا صمَّم الإنسان بعزيمة صادقة قاطعة متوكلاً على الله لا يمكن أن يتردّد عن إنجاز ذلك العمل، بل يمضي به بقوّة فاعلة، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فالعزم هو الشّرط الأوّل للسّلوك، ودونه لا يمكن طيّ طريق ولا بلوغ كمال. وقد كان الشّيخ الجليل الشّاه آبادي (روحي فداه) يصف (العزم) بأنَّه لبُّ الإنسانيّة، ويمكن القول: إنّ إحدى أهمّ الأهداف المطلوبة من التّقوى، والتّورّع عن الشّهوات، ومخالفة الأهواء النَّفسيّة، وممارسة الرّياضات

(١) الكافي: ٢٧١/٣ ، ح/١٧٧٤ .

(٢) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٣٨/١ .

الشّرعيّة، والعبادات، والمناسك الإلهيّة إنّما هو تقوية العزم»(١).

إذن للصّدق في العزم دورٌ مهمٌّ في نجاح الإنسان في مشاريعه إذا اقترن بالتّوكّل على الله تعالى، يقول تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٢)، ومن هنا كانت أبرز صفات أنبياء الله ورسله هي قوّتهم في التّصميم والمضاء، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلكِنَّ اللهَ سُبْحانَه جَعَلَ رُسُلَهُ أولي قُوَّةٍ في عَزائِمِهِمْ**»(٣).

٤- **الصِّدقُ في العهد:** والعهد هو أن يقطع الإنسان على نفسه أمراً يريد تنجيزه سواء كان مع الله تعالى بأن لا يعصي له أمراً، ولا يخالف له نهياً، أو مع نفسه، أو مع النّاس... وكثيراً ما يقطع المرء على نفسه أمراً، فإذا حان وقت التّنفيذ أخلف، أو تردّد، أو توقّف، فهنا لا يكون صادقاً؛ ولذا مدح الله تعالى المؤمنين الصّادقين بعهدهم، يقول تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾(٤).

٥- **الصِّدقُ في العمل:** وهو أن يكون عمله ظاهراً، أو باطناً سواء، أي أن يتجرّد عن أيّ رياء، أو سمعة في عمله، وهذا القسم من أجلى أنواع الصّدق، بل هو الصّدق كلّه، حيث يتطابق القول مع العمل، والسّرّ مع العلن، فلا يقول ما لا يفعل، ولا يأمر بما لا يأتمر، ولا يطلب من وراء ذلك سوى وجه الله، وهذا هو تمام الإخلاص، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**طوبى لِمَنْ أَخْلَصَ لله عَمَلَهُ، وَعِلْمَهُ، [وَحُبَّهُ] وبُغْضَهُ، وَأَخْذَهُ، وَتَرْكَهُ، وكَلامَهُ، وَصَمْتَهُ، وَفِعْلَهُ،**

(١) الإمام الخميني، آداب الصّلاة: ٨٩-٩٠، ترجمة: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قدس سره.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) نهج البلاغة: ٣٢٠، خطبة: ١٩٢.

(٤) الأحزاب: ٢٣.

وَقَوْلَه»[١].

٦- الصِّدقُ في مقامات الدّين: كالصّبر، والشّكر، والتّوكّل، والحبّ، والبغض، والرّجاء، والخوف، والزّهد، والجهاد... وغيرها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ صَدَقَ في الْمَواطِنِ قَضى ما عَلَيْهِ**»[٢].

ومن مجموع هذه الأقسام تتكوّن الشّخصيّة الصّادقة، فإذا انخرم بعضها اختلّت تلك الشّخصيّة.

الصِّدْقُ صِفَةٌ إِلهِيَّةٌ:

مما يدلّ على عظمة الصّدق أنّ الله تعالى وصف نفسه بأنّه أصدق القائلين، يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾[٣].

﴿**وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا**﴾[٤].

﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[٥].

وكما أنّها صفةٌ إلهيّةٌ فهي من أبرز صفات الرّسل والأنبياء عليهم السلام، وفي مقدّمتهم الرّسول الأعظم الّذي عُرف بـ(**الصّادق الأمين**)، وقد مدح الله تعالى إسماعيل عليه السلام أنّه كان صادق الوعد، يقول تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**﴾[٦].

---

(١) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول: ٦٦، وبحار الأنوار للمحدّث المجلسي: ٢٩١/٧٧.

(٢) نهج البلاغة: ٤٩١، قصار الحكم: ٢٨.

(٣) النّساء: ٨٧.

(٤) النّساء: ١٢٢.

(٥) الأنعام: ١١٥.

(٦) مريم: ٥٤.

ومن عجب أنَّ الآية قدَّمت سِمَة الصّدق على سِمَة النّبوّة؛ لأنَّ «**اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبيّاً إلا بِصِدْقِ الْحَديثِ، وَأداء الأَمانَةِ إلى الْبَرِّ وَالْفاجِرِ**»(١)؛ وإذا لم يكن في أعلى درجات الصّدق فلا يمكن أن يكون نبيّاً.

الصِّدْقُ مَجْمَعُ الْفَضائِلِ الإِنْسانِيَّة:

(إنّ الصّدقَ خُلُقٌ يصاحب جميع الأخلاق من العفّة، والشّجاعة، والحكمة، والعدالة، وفروعها؛ فإنَّ الإنسان ليس له إلا الاعتقاد، والقول، والعمل، وإذا صدق تطابقت الثّلاثة فلا يفعل إلا ما يقول، ولا يقول إلا ما يعتقد)(٢).

وهذا ما دلّت عليه الأحاديث الشّريفة، فرُبَّ متلبّس بالعبادة، ومتظاهر بالصّلاح، وهو كاذب في ذلك؛ ولذا ليس الاعتبار في مفهوم الإسلام بهذه الشّعائر، وإنّما المقياس لقيمتها الموضوعيّة هو ما تتركه من أثر في نفس الإنسان كالصّدق والإخلاص... فالصّدق إذن جوهر العمل، وإذا خلا عمل من الصدق أصبح كبدن بلا روح، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**لا تَنْظُروا إلى طولِ رُكوعِ الرَّجُلِ وَسُجودِهِ، فَإنَّ ذلِكَ شَيْءٌ اعْتادَهُ، فَلَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ لِذلِكَ، ولكِنِ انْظُروا إلى صِدْقِ حَديثِهِ وَأَداءِ أَمانَتِهِ**»(٣).

وقال عليه السلام: «**لا تَغْتَرّوا بِصَلاتِهِمْ وَلا بِصِيامِهِمْ؛ فَإنَّ الرَّجُلَ رُبَّما لَهِجَ بِالصَّلاةِ وَالصَّوْمِ حَتّى لَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ، ولكِنِ اخْتَبِروهُمْ عِنْدَ صِدْقِ**

(١) الكافي: ٢٦٩/٣، ح/١٧٦٩.

(٢) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٤٢٩/١-٤٣٠.

(٣) الكافي: ٢٧٣/٣، ح/١٧٨٠.

الْحَديثِ وَأداء الأَمانَةِ»[١].

وبهذا المَيزان إنّ أيّ عمل وفق مقياس الإسلام إذا افتقد الصّدق سقط عن الاعتبار مهما كان حجمه؛ فالعبادةُ دون صدق النّيّة باطلةٌ، والعفّةُ دون الصّدق تكلّفٌ؛ ومن هنا عدَّ الإسلامُ الصّادقَ ثِقَةً يُؤْخَذُ بقوله، وهو من اعتاد الصّدق، فأصبح له طبعاً وسلوكاً، وبهذا الاعتبار جاءت قيمة العمل بمقدار ما فيه من صدق، جاء في الحديث الشّريف عن أبي عبد الله عليه السلام: «**مَنْ صَدَقَ لِسانُهُ زكا عَمَلُهُ**»[٢]، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**تَعَلَّموا الصّدْقَ قَبْلَ الْحَديثِ**»[٣].

أي إنّ على المرء أن يمرّن نفسه على الصّدق، ويُعَوِّدَ لسانه عليه حتّى يصبح طبعاً، وعادةً، وسلوكاً...

دَوْرُ الصِّدْقِ في حَياةِ الْمُجْتَمَعِ وَالْفَرْدِ:

الصّدقُ ضرورةٌ إنسانيّةٌ لا يُستغنى عنها بحال؛ ولعظمتها نرى حتى الكاذب يتظاهر فيها، ويدّعيها لنفسه.

ويمكن بيان هذه الضّرورة من خلال النّقاط الآتية:

١- فهو الصّلة الأساسيّة الّتي يرتبط من خلالها الأفراد بعضهم بالبعض الآخر، وكذلك الأمم والشّعوب والدّول، وكلّ منها تريد أن تحرز صدق المعاملة من الأخرى؛ فإذن دون الصّدق لا يمكن أن تُعقد روابط بين الأفراد، أو الأسر، أو المجتمعات أبداً، وإذا ما حدث الارتباط، وانكشف فيه الكذب انحلّ.

(١) الكافي: ٢٦٩/٣، ح/١٧٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٠/٣، ح،١٧٧١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٠/٣، ح/١٧٧٢.

٢- وهو القاعدة الأساسيّة التي تقوم عليها سعادة الأفراد والمجتمعات والأمم، والحضارات الإنسانيّة، وهو دليلٌ على رقيّ الأمة وعظمتها، وأيّ أمة انتشر فيها الكذب، والخداع، والمكر، والدّجل جَرَّتْ نفسها إلى الهاوية.

٣- إنَّ الصدق أفضلُ دليلٍ على شرف الإنسان، وعلوّ همته، ومتانة عقله، ومروءته، يقول الإمام عليّ عليه السلام: **«لا مُرُوَّةَ لِكَذوبٍ»**[1].

٤- إنَّ الصّدق هو القائد لكلّ خير في الدّنيا والآخرة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: **«عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إِلى البِرَّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدي إِلى الْجَنَّةِ، وَما يَزالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرّى الصِّدْقَ حَتّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً. وَإِيّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدي إِلى الْفُجورِ، وَإِنَّ الْفُجورَ يَهْدي إِلى النّارِ، وَما يَزالُ الْرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرّى الْكَذِبَ حَتّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذّاباً»**[2].

أَضْرارُ الْكَذِب:

بعد ما تقدّم من أهميّة الصّدق يتبيّن خطورة الكذب في حياة الفرد والمجتمع، ويمكن أن نشير إلى بعض أضراره النّفسيّة والاجتماعيّة بالنّقاط الآتية:

١- إنَّ الله لا يحب الكاذبين، ومن لا يحبّه الله تعالى يصبح عدوّاً له، وأيّ ضرر أكبر من ذلك...

٢- إنَّ الكذبَ دليلٌ على جبن الإنسان، وخِسَّة نفسه، فلا نجد شجاعاً

(١) بحار الأنوار: ٢٥٦/٧٣.

(٢) المتّقي الهندي، كنز العمّال: ٣٤٦/٣، ح/٦٨٦١.

يكذب، ولا طاهر نفس؛ لأنَّ الكذبَ سمةٌ رذيلةٌ تأباها النّفوس الزّكيّة، وأيّ خزي أكبر من أن يوصَمَ الإنسان بهذه الرّذائل.

٣- إنَّ الكذب يسلب الإنسان قيمته واعتباره الاجتماعي، حتى يعود محتقراً لا وزن له، وحينئذٍ يكون منبوذاً لا تأثير لفعله ولا قوله؛ لأنَّ الكذبَ مذمومٌ على أيّ حال.

٤- إنَّ الكذب لا يدع للإنسان فرصة للتّأمّل، والتّفكير في عواقب أمره.

وأخسّ أنواع الكذب اليوم في عالمنا المعاصر هو الدّجل السّياسيّ، وما يعرف بـ(الدّبلوماسيّة) حيث تجد الكذب والتّصنع المبنيّ على أساس المصالح السّياسيّة، تزكم الأنوف رائحته، فترى كلاً منهم يبدي عواطفه الكاذبة، وابتسامته الباهتة التي تشبه ابتسامة الذّئب؛ ليفترس محاوره باللّفِ والدّوران، والعجيب أنهم يَعدّون ذلك دهاءً، وحنكةً سياسيّةً، والحقيقة هو خداعٌ، وغشٌّ، وكذبٌ، وغدرٌ؛ لأنَّ المُحاور منهم يظهر شيئاً لا يريده، ويخفي أشياء تضرّ مُحاوره يريد تمريرها عليه؛ ليوقعه في الشّباك التي نصبها له، وأيّ غدر بعد هذا؟

وأخيراً: إنَّ كلّ الأمم والشّعوب تحتاج إلى الصّدق؛ لكي ترتقي في سُلَّم الكمال، والتّقدّم، والازدهار، بل كلّ فرد يحتاج إليه؛ فالعابد مع ربّه، والمرأة مع زوجها، والصّديق مع صديقه، والتّاجر مع زبونه؛ والقائد مع جيشه، والأخ مع أخيه... وهذه أمور يدركها الإنسان بالوجدان، ولا تحتاج إلى برهان.

(البَحْثُ التّاسِعُ)

التَّوَكُّلُ

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

التّوكّل هو الاعتماد على الله في تنجيز الأعمال، ومواجهة الأحداث، واستمداد العون منه تبارك وتعالى؛ لتحصيل القوّة، والعزم، والتّصميم لمواصلة المسير في طريق ذات الشّوكة... فهو حركةٌ لا سكون، وصمودٌ لا خمود.

إنَّ الإنسان الّذي يسعى لتحقيق أهدافه المشروعة، وإنجاز أعماله يحتاج إلى قوّتين: قوّة مادّية وفق الأسباب الطّبيعيّة، وقوّة روحيّة معنويّة، ودون تظافر هاتين القوّتين لا يستطيع أن ينجز عمله، ويبلغ مراده.

فالتّوكّل هو القوّة الرّوحيّة الّتي يستمدّها الإنسان من إيمانه بالله تعالى، ويقينه بأنَّه مسبّب الأسباب، ولا سبب فوق ذلك، فالمتوكّل هو الّذي يجري في حركة الأسباب الّتي وضعها الله تعالى في سننه التي لا تقبل التّحويل والتّبديل؛

---

(١) المائدة: ٢٣.

(٢) الطّلاق: ٣.

(٣) الأنفال: ٤٩.

ولذلك لا يخاف أحداً إلا الله تعالى... وهذا المعنى هو الّذي أكّد عليه أئمّة الحقّ عليهم السلام؛ فعن الحسن بن الجهم قال: «سألتُ الرِّضا عليه السلام، فَقُلْتُ له: جُعِلْتُ فداك ما حدُّ التّوكّل؟ فقال لي: **أَنْ لا تَخافَ مَعَ الله أَحَداً**»[1].

ورُوِيَ عن الإمام الكاظم عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ أَرادَ أَنْ يَكونَ أَقْوى النّاسِ فَلْيَتَوكّلْ عَلى الله**»، وسُئِلَ عن حدّ التّوكّل ما هو؟ قال: «**لا تَخافُ سِواهُ**»[2].

ورُوِيَ عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ الْغِنى والْعِزَّ يَجولانِ، فَإذا ظَفِرا بِمَواضِعِ التَّوَكُّلِ أَوْطَنا**»[3].

وعن عليّ بن سويد، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: «سألْتُهُ عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[4]، فَقالَ: **التَّوَكُّلُ عَلى الله دَرَجاتٌ: مِنْها أَنْ تَتَوكَّلَ على الله في أُمورِكَ كُلِّها، فَما فَعَلَ بِكَ كُنْتَ عَنْهُ راضِياً، تَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَأْلوكَ خَيْراً وَفَضْلاً، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَ في ذلِكَ لَهُ، فَتَوكَّلْ عَلى الله بِتَفْويضِ ذلِكَ إِلَيْهِ، وَثِقْ بِهِ فيها وَفي غَيْرِها**»[5].

إذن التّوكّل معنى إيجابيٌّ لا موقفٌ سلبيٌّ، فلا بدّ فيه من تفكير أوّلاً، وتخطيط ثانياً، وتنفيذ ثالثاً؛ في كلّ هذا يبذل جهده وطاقته، ثم يعتمد في إنجاح حركته ومواصلة مسيرته على الله تعالى، ولعلَّ هذا ما تفيده الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا

---

(١) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرِّضا عليه السلام: ٢/ ٥٠، ح/ ١٩٢.

(٢) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٧١/ ١٤٣.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣/ ١٦٧، ح/ ١٥٩٣.

(٤) الطّلاق: ٣.

(٥) الكافي: ٣/ ١٦٨، ح/ ١٥٩٥.

عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[1]؛ فالعزم عمليّة يسبقها تفكير وتخطيط، ويعتمد على الله في إنجاح التّنفيذ على يده، يقول العلامة الطباطبائي: «والتّوكّل عليه اعتماده، والاطمئنان إليه في أمر، وتوكيله تعالى، والتّوكّل عليه في الأمور ليس بعناية أنَّه خالقُ كلّ شيء ومالكه ومدبّره، بل بعناية أنَّه أذِنَ في نسبة الأمور إلى مصادرها، والأفعال إلى فواعلها، وملكها إيّاها بنحو من التّمليك، وهي فاقدة للأصالة والاستقلال في التّأثير، والله سبحانه هو السّبب المستقلّ القاهر لكلّ سبب، الغالب عليه؛ فمن الرُّشد إذا أراد الإنسان أمراً، وتوصّل إليه بالأسباب العاديّة الّتي بين يديه أن يرى الله سبحانه هو السّبب الوحيد المستقلّ بتدبير الأمر، وينفي الاستقلال، والأصالة عن نفسه، وعن الأسباب التي استعملها في طريق الوصول إليه، فيتوكّل عليه سبحانه، فليس التّوكّل هو قطع الإنسان، أو نفيه نسبة الأمور إلى نفسه، أو إلى الأسباب، بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه، وعن الأسباب، وإرجاع الاستقلال والأصالة إليه تعالى، مع إبقاء أصل النسبة غير المستقلّة التي إلى نفسه وإلى الأسباب»[2].

ويقول قُدِّسَ سِرُّهُ: «ولازم اتّخاذه تعالى ربّاً ولّياً من جهة التّكوين إرجاع أمر التّدبير إليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهريّة والركون إليه من حيث إنّه سبب غير مغلوب ينتهي إليه كلّ سبب، وهذا هو التّوكّل»[3].

فالتّوكّل إذن عمليّة اعتصام بالله تعالى؛ لأنّه الكافي ولا كافي سواه، ﴿وَمَن

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٢١٦/١١-٢١٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥/١٨.

يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١]، وجاء في الحديث الشّريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أَوْحى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إلى داودَ** عليه السلام: **ما اعْتَصَمَ بي عَبْدٌ مِنْ عِبادي دونَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقي، عَرَفْتُ ذلِكَ مِنْ نيَّتِه، ثُمَّ تَكيدُهُ السَّماواتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فيهِنَّ، إلا جَعَلْتُ لَهُ الْمَخْرَجَ مِنْ بَيْنِهِنَّ، وَما اعْتَصَمَ عَبْدٌ مِنْ عِبادي بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقي عَرَفْتُ ذلِكَ في نِيَّتِه، إلا قَطَعْتُ أَسْبابَ السَّماواتِ مِنْ يَدَيْهِ، وَأَسَخْتُ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِ، وَلَمْ أُبالِ بِأَيِّ وادٍ هَلَكَ**»[٢].

وبهذا يتّضح أنَّ التّوكّل معنى روحيٌّ عقائديٌّ يترسّخ في نفس الإنسان من خلال يقينه أن لا مؤثّر في الوجود إلا الله تعالى، وهو معنى عمليٌّ لا نظريٌّ مجرّد عن الواقع، هذا الاعتقاد إذا وصل حدّ القطع واليقين يمنح الإنسان القوّة، والعزم، والتّصميم... ثمّ إن التّوكّل لا يبطل الأسباب، ولا يقعد الإنسان، ولا يعطّل قواه، بل يمنحه الصّبر، والصّمود، والأمل البنّاء في تحقيق ما يروم، يقول العلامة المجلسي في تفسير الحديث «**إِنَّ الْغِنى وَالْعِزَّ يَجولانِ، فَإِذا ظَفِرا بِمَواضِعِ التَّوَكُّلِ أَوْطَنا**»: (ثمّ إنّ التّوكّل ليس معناه ترك السّعي في الأمور الضّروريّة، وعدم الحذر عن الأمور المحذورة بالكليّة، بل لا بدّ من التّوسّل بالوسائل والأسباب على ما ورد في الشّريعة من غير حرص ومبالغة فيه، ومع ذلك لا يعتمد على سعيه، وما يحصله من الأسباب، بل يعتمد على مسبّب الأسباب.

قال المحقّق الطّوسي قدس سره في أوصاف الأشراف: المراد بالتّوكّل أن يكل العبد جميع ما يصدر عنه، ويرد عليه إلى الله تعالى، لعلمه بأنّه أقوى وأقدر،

---

(١) الطّلاق: ٣.

(٢) الكافي: ١٦٤/٣، ح/١٥٩١.

ويضع ما قدر عليه على وجه أحسن وأكمل، ثمّ يرضى بما فعل، وهو مع ذلك يسعى ويجتهد فيما وكّله إليه، ويعدّ نفسه وعمله وقدرته وإرادته من الأسباب والشّروط المخصّصة؛ لتعلّق قدرته تعالى، وإرادته بما صنعه بالنّسبة إليه، ومن ذلك يظهر معنى: **لا جَبْرَ وَلا تَفْوِيضَ بِلْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ»**[1].

الأَساسُ الَّذي يَقومُ عَلَيْهِ التَّوَكُّلُ:

إنَّ الإنسان عندما يريد أن يعتمد على جهة معيّنة، أو شخص معيّن فلا بدّ أن يكون له ثقة واطمئنان بتلك الجهة في الجانب الّذي يصبو إليه أو في جميع الجوانب، والاطمئنان والثّقة لا يحصلان إلا من الإيمان، وأعلى درجات الإيمان هو اليقين، فالجهة الّتي يريد أن يلتجئ إليها لا بدَّ وأن تتوفّر فيها خمسة شروط:

١- أن تكون في منتهى الهداية والرّشاد عارفة بكلّ مقتضيات المصلحة...

٢- أن تكون في غاية العلم.

٣- أن تكون موافقة على اعتماده عليها.

٤- أن تكون في منتهى الشّفقة والرّحمة[2].

٥- وذات قدرة فائقة على الحماية والعون.

فإذا حصل اليقين القطعيّ بتوفّر هذه الشّروط فلا شكَّ أنَّه سيعتمد عليها كلّياً، ولا يلجأ إلى غيرها...

ونحن إذا استقرأنا الكون، وما فيه من إنس، وجن، وملائكة لم نجد من يتوفّر على ذلك كلّه إلا الله تعالى الّذي يملك هذه الأمور كلّها، وأنَّ غيره مهما

---

(١) بحار الأنوار: ١٢٧/٧١.

(٢) ينظر: الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء: ٤٠٦/٧-٤٠٧.

أوتِيَ مِنْ علمٍ، ومعرفةٍ، وقدرةٍ، واستجابةٍ فهي محدودةٌ بحدوده؛ فإذا أيقن المرء أنَّ (تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثمّ تمام العطف والعناية والرَّحمة بجملة العباد بالآحاد، وأنَّه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتّكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوّته، فإنّه لا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

ومجمل القول: إنَّ الأساس الّذي يبتني عليه التّوكّل هو الإيمان بالله، وتوحيده الخالص، ولعلَّ هذا هو مدلول الشّعار الإسلامي الخالد، وكلمة الله الطّيّبة «**لا إلهَ إلا الله**» الّتي تجعل الإنسان متجرّداً عن الرّكون إلى قوّته الذّاتيّة، أو أيّ قوّة أخرى إلا قوّة الله وحوله، وتجعله كذلك متمرّداً على كلّ طاغوت يعاكس الخطَّ الإلهي.

وترتفع درجات التّوكّل وتنخفض بمقدار درجات الإيمان، فكلّما ازداد الإيمان في كيان الإنسان الرّوحي والعقيديّ، وقَوِيَ، وتَرَسَّخَ في أعماقه اشتدَّ توكّله على الله تعالى، وكلّما اشتدّ توكّله على الله اندفع بقوّة لتحقيق إرادته، وتطبيق أحكامه، لا تأخذه في الله لومة لائم.

عَطاءاتُ التّوَكُّلِ:

إذا أيقن المؤمن بكفاية الله له ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[2]، وَصَدَّق بدفاعه

---

(١) المحجّة البيضاء: ٧/٤٠٧.

(٢) الزّمر: ٣٦.

تعـالى عنـه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[(١)]، وسـلّم نفسـه إليـه بـوعي وصـدق وإخلاص؛ فإنَّ ذلـك يحقّـق لـه مـردودات وعطـاءات كبيـرة، يظهـر تأثيرهـا فـي سلوكه؛ نذكر منها:

١- يجعل السّالك في طريق الله يستهين بمشاكل الحياة، وعقبات المسير، مهمـا اشـتدّت وصـعبت، ولا يزيـده ذلـك إلا عزمـاً، وتصـميماً، ومضـاءً، وصـفاءً نفسيّاً؛ فلا يتراجع عن مسيره مهما كلّفه ذلك.

٢- يمنح الإنسان طاقة روحيّة عالية تبعده عن القلق والاضـطراب وتجعله ساكنَ النَّفْس مطمئنّ القلب في مختلف الأحوال.

٣- يمنح المتوكّل عـزّةً وكرامـةً وترفّعـاً عـن التمـاس مـا عنـد النّـاس مـن معروف، وهذا هو منتهى التّحرّر.

كَيْفَ نَكْتَسِبُ التَّوَكُّلَ؟

تحصيل ملكة التّوكّل واكتسابها ليس بـالأمر اليسـير الّـذي يمكـن تحقيقـه للإنسان دون بذل جهود متواصلة في ترويض الـنّفس علـى طاعـة الله، واكتسـاب المعارف الإلهيّة، وزيادة الإيمان؛ ولأجل تحصيل هذه المرتبة الإلهيّة، أو بعضـها لا بدّ من اتباع الخطوات الآتية:

١- العمل بجـدّ متواصـل علـى تطهيـر الـنّفس مـن أدران الـذّنوب وذمـائم الأخلاق، وما لم يتحقّق ذلك فإنَّ النفس تبقـى محجوبـة عـن النّـور الإلهـيّ؛ لأنّ هذا النّور لا يمتدّ إلا إلى النّفوس الطّـاهرة والشّـفّافة، فـإن كانـت الـنَّفسُ طافحـةً

(١) الحجّ: ٣٨.

بالحرص، والطّمع، والحقد، والحسد، وحبّ الدّنيا، والنّظر إلى ما في أيدي النّاس كيف يتسنّى لها قبول الأنوار الإلهيّة؟ والله ما جعل للإنسان في صدره إلا قلباً واحداً، ومعلوم أنّ الإناء المملوء بالماء لا يدخله الهواء، كذلك النَّفس الملطّخة بالأدران لا تقبل الأنوار؛ ولهذا نفى القرآن الفلاح والنّجاح دون تزكية النَّفس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1]؛ لأنَّ النَّفسَ المدفونة تحت ركام الشّهوات، وأدران الذّنوب، ومذامّ الأخلاق محرومة من نعيم الله تعالى؛ وكما أنَّ غيث السّماء لا يخرج الأزهار والأثمار إلا إذا كانت الأرضُ خِصْبَةً طاهرةً من جذور النّباتات الطّفيليّة، كذلك العلم والإيمان لا يستقرّ في النّفس، ولا يعطي ثماراً طيّبة إلا إذا طهرت النَّفس من أدران الذّنوب ومذامّ الأخلاق ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[2]؛ فإذا طهرت النَّفْسُ أصبح ظرفها صالحاً لتحصيل التّوكّل، وجميع المحامد الأخرى، قال الرّاغب الأصفهاني في مفرداته:

«وبزكاء النَّفس وطهارتها يصير الإنسانُ بحيث يستحقّ في الدُّنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة. وهو أن يتحرّى الإنسانُ ما فيه تطهيره؛ وذلك يُنْسَبُ تارةً إلى العبد لكونه مكتسِباً لذلك نحو ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[3]، وتارةً يُنْسَبُ إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾[4]، وتارةً إلى النّبيّ ﷺ لكونه واسطةً في وصول ذلك إليهم نحو:

---

(١) الشّمس: ٩-١٠.

(٢) الأعراف: ٥٨.

(٣) الشّمس: ٩.

(٤) النّساء: ٤٩.

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾[(١)]، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾[(٢)]، وتارةً إلى العبادةِ الّتي هي آلةٌ في ذلك نحو: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾[(٣)]»[(٤)].

٢- مواصلة البحث والتّدبّر في المعارف الإلهيّة من حيث الأسماء، والصّفات، والقدرة المطلقة في كلّ شيء، ودراسة سنن الله في الخلق، ومجرى الحوادث لإدراك دخالة اليد الإلهيّة في ذلك، والتّبصّر فيها، وهذا يرزق الإنسان اليقين بالقدرة الإلهيّة، وتأثيرها في كلّ شيء، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«وَالْيَقِينُ عَلى أَرْبَعِ شُعَبْ: عَلى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ، فَمَنْ تَبَصَّرَ في الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّما كانَ في الأَوَّلِينَ»**[(٥)].

٣- التّدبّر في سيرة المتوكّلين الخلّص من الرُّسل والأنبياء وأتباعهم المخلصين، والتأسّي بسيرتهم، والاهتداء بهداهم، ومحاولة الوقوف على سرّ صمودهم؛ فإذا تأمّلنا ذلك بدقّة فلا نجد سبباً لصبرهم واستقامتهم إلا توكّلهم على الله، وهذا يؤثّر تأثيراً إيجابيّاً في النّفس؛ فإنّ الإنسان دائماً وأبداً بحاجة شديدة إلى الأسوة الحسنة الّتي يضع أقدامه حيث ما وضعت.

٤- مواصلة ذكر الله تعالى اللّسانيّ والقلبيّ، بل الذّكر العمليّ، وأقصد به الوقوف عند ما حرَّم الله، والتّحرك حيثما أمر الله كما ورد في بعض الرّوايات...

---

(١) التّوبة: ١٠٣.

(٢) البقرة: ١٥١.

(٣) مريم: ١٣.

(٤) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٢٩٧، باب (زكا).

(٥) نهج البلاغة: ٤٩٠، قصار الحكم: ٢٨.

وذكرُ اللهِ يمنحُ القلبَ الطمأنينةَ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

(١) الرَّعد: ٢٨.

(الْبَحْثُ العاشِرُ)

التَّواضُعُ

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثَلاثَةٌ يوجِبْنَ الْمَحَبَّةَ: الدّينُ، وَالتّواضُعُ، وَالسَّخاءُ**»[1].

التَّواضع هو أحد العناصر الأساسيّة للشّخصيّة الرّساليّة، ويقسم على قسمين؛ الثّاني نابعٌ من الأول:

١- **التواضُعُ لله سُبحانه وَتعالى**: وهي حالةٌ يستصغر فيها الإنسان ذاته، ويحتقر نفسه، ويشعر بالخشوع، والخضوع، والذّلّة، والحقارة أمام الله ينظر إلى عظمة الله سبحانه، فيرى الكمال، والجمال المطلق، والقدرة غير المتناهية، وينظر إلى نفسه فيراها محدودة، ومشروطة، وضعيفة؛ محدودة بحدود الزّمان والمكان، ومشروطة بشروط إذا فُقِدَتْ زالت عن الوجود وانعدمت، وضعيفة «**تُؤْلِمُها الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُها الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُها الْعَرْقَةُ**»[2]، فيتصاغر، ويزداد خشوعاً، وخضوعاً، ويستشعر العبوديّة الكاملة لله تعالى، فكلّما ازداد الإنسان معرفةً بالله، وبصيرةً في نفسه ازداد عبوديةً لله تعالى، فاستصغر نفسه، وعبّدها لله تعالى، وذلَّلها له تعالى؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**اسْتَقْبَلَ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله رَجَلٌ مِنْ بَني فَهْدٍ، وَهُوَ**

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٠، ح/٥١٨١.

(٢) اقتباس لمعنى حديث لأمير المؤمنين عليه السلام، ينظر: نهج البلاغة: ٥٥٥، قصار الحكم: ٤٠٧.

يَضْرِبُ عَبْداً لَهُ، وَالْعَبْدُ يَقولُ: أَعوذُ باللهِ، فَلَمْ يُقْلِعْ الرَّجُلُ عَنْهُ، فَلَمّا أَبْصَرَ الْعَبْدَ بِرَسول اللهِ ﷺ قالَ: أَعوذُ بِمُحَمَّدٍ، فَأَقْلَعَ عَنْهُ الضَّرْبَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: يَتَعَوَّذُ بِاللهِ فَلا تُعيذُهُ؟ وَيَتَعَوَّذُ بِمُحَمَّدٍ فَتُعيذُهُ؟ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُجارَ عائِذُهُ مِنْ مُحَمَّدٍ، فَقالَ الرَّجُلُ: هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: وَالَّذي بَعَثَني بِالْحَقِّ نَبِيّاً لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَواقَعَ وَجْهَكَ حَرّ النّارِ»[١].

فهنا نرى أنَّ رسول الله ﷺ رغم الكمال الّذي بلغه، فهو يستصغر نفسه ومكانته أمام عظمة الله تعالى، وبهذا التّواضع لله نال تلك الدّرجة الرّفيعة عند الله، وعند خلقه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**أَوْحى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلى موسى عليه السلام: أَنْ يا موسى، أَتَدْري لِمَ اصْطَفَيْتُكَ بِكَلامي دونَ خَلْقي؟ قالَ: يا رَبِّ، وَلِمَ ذاكَ؟ قالَ: فَأَوْحى اللهُ - تَبارَكَ وَتَعالى - إِلَيْهِ: يا موسى، إِنّي قَلَّبْتُ عِبادي ظَهْراً لِبَطْنٍ، فَلَمْ أَجِدْ فيهِمْ أَحَداً أَذَلَّ لي نَفْساً مِنْكَ؛ يا موسى، إِنَّكَ إِذا صَلَّيْتَ وَضَعْتَ خَدَّكَ عَلى التُّراب - أَوْ قالَ: عَلى الأَرْضِ -**»[٢].

ولهذا ترى المتواضع لله تعالى مهما يقدّم في سبيله تعالى، يبقى يشعر بأنّه لم يقدّم شيئاً، بل كلّما قدّم شيئاً، وعمل لله كثيراً، ازداد خشوعاً، وتواضعاً، وعبوديةً لله تعالى، وخوفاً منه؛ فهو «**يَعْمَلُ الأَعْمالَ الصّالِحَةَ وَهُوَ عَلى وَجَلٍ**»[٣]؛ خشيةً من الله عزّ وجلّ، واستصغاراً لأعماله، وخوفاً من عدم القبول.

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٢/١٦ .

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣١٧/٣-٣١٨ ، ح/١٨٦٩ .

(٣) نهج البلاغة: ٣٣٣ ، خطبة: ١٩٣.

يقول المحدّث المجلسي رحمه الله: «التّواضع هو إظهار الخشوع، والخضوع، والذّلّ، والافتقار إليه تعالى عند ملاحظة عظمته، وعند تجدُّد نعمِهِ تعالى، أو تذكّرها؛ ولذا استحبّت سجدة الشُّكر في هذه الأمّة...»[1]، و«التّواضع ترك التّكبّر، والتّذلّل لله، ولرسوله، ولأولي الأمر، وللمؤمنين، وعدم حبّ الرّفعة والاستيلاء، وكلّ ذلك موجب للقرب، وإذا كان أحد الضّدّين موجباً للقرب كان الآخر موجباً للبعد»[2].

وأخيراً فالتّواضع الحقيقيّ لله سبحانه وتعالى هو: الشّعور بالاضمحلال، والفناء، والتّلاشي أمام عظمة الذّات الإلهيّة، حتى يعود العبد يشعر بأنّه لا شيء، ولا يستحقّ أن يكون شيئاً؛ لتقصيره عن أداء حقوق الله سبحانه وتعالى الّذي أنعم عليه بنعمة الوجود والإيجاد، يقول العارف العظيم الإمام الخميني قدس سره بعد رسالة طويلة لولده أحمد: «هدفتُ ممّا ذكرتُه لك - رغم أنّي لا شيء بل أقلّ حتى من اللاشيء - ...»[3].

وقيل: «من يرى لنفسه قيمة فليس له من التّواضع نصيب»[4].

ومن أروع صور التّواضع لله سبحانه وتعالى والتّصاغر له، والتّذلّل بين يديه ما جاء في دعاء أبي حمزة الثّمالي للإمام زين العابدين عليه السلام حيث يقول مناجياً ربّه: «**سَيِّدي، أَنا الصَّغيرُ الَّذي رَبَّيْتَهُ، وَأَنا الْجاهِلُ الَّذي عَلَّمْتَهُ، وَأَنا الضّال الّذي هَدَيْتَهُ، وَالْوَضيعُ الَّذي رَفَعْتَهُ، وَأَنا الْخائِفُ الّذي آمَنْتَهُ، وَالْجائِعُ الّذي**

(١) بحار الأنوار: ١٢٦/٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٢/٧٥.

(٣) الإمام الخميني، موعد اللّقاء: ٧٨.

(٤) الغزالي، إحياء علوم الدّين: ٣٤٢/٣.

أَشْبَعْتَهُ، وَالْعَطْشانُ الّذي أَرْوَيْتَهُ، وَالْعاري الّـذي كَسَـوْتَهُ، وَالْفَقيـرُ الّـذي أَغْنَيْتَهُ، وَالضَّعيفُ الَّذي قَوَّيْتَهُ، وَالذَّليلُ الّذي أَعْزَزْتَهُ، وَالسَّقيمُ الَّذي شَفَيْتَهُ، وَالسّائِلُ الَّذي أَعْطَيْتَهُ، وَالْمُذْنبُ الّذي سَتَرْتَهُ، وَالْخاطِئُ الَّذي أَقَلْتَـهُ، وَأَنـا الْقَليلُ الَّذي كَثَّرْتَهُ، وَالْمُسْتَضْعَفُ الّذي نَصَرْتَهُ، وَأَنا الطّريدُ الّذي آوَيْتَهُ»[١].

وفي دعاء كُمَيْل يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَقَدْ أَتَيْتُكَ يـا إِلهـي بَعْـدَ تَقْصيري وَإِسْرافي عَلى نَفْسي، مُعْتَذِراً، نادِماً، مُنْكَسِراً، مُسْتَقيلاً، مُسْـتَغْفِراً، مُنيباً، مُقِرّاً، مُذْعِناً، مُعْتَرِفاً، لا أَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي، وَلا مَفْزَعاً أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ في أَمْري، غَيْرَ قَبولِكَ عُذْري، وَإِدْخالِكَ إِيّايَ في سَعَةٍ مِنْ رَحْمَتِكَ**»[٢].

وبهذا التّواضع - خلافاً للإعجاب بالنَّفس الّذي يجعل الإنسان يشعر بأنّه وصل نقطة الكمال - يستشعر الإنسان بالقصور والتّقصير بين يدي الله سبحانه مهما بلغ من درجات الكمال؛ ولهذا نرى أنَّ المعصوم يستشعر بالتّقصير وهو في دائرة العصمة، ومن هنا قال سيّد العابدين والشّاكرين صلى الله عليه وآله: «**لا أُحْصـي ثَنـاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ**»[٣]، وقال صلى الله عليه وآله: «**سُبْحانَكَ مـا عَرَفْنـاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ**»[٤]؛ بل كان أهل بيت العصمة صلوات الله عليهم يأمرون بأن يبقى المؤمن شاعراً بالتّقصير، ولا يخرج نفسه عن حدّه، يقول الإمام أبو الحسن الكاظم عليه السلام: «**عَلَيْكَ بِالْجِدِّ ولا تُخْرِجَنَّ نَفْسَكَ مِنْ حَدّ التَّقْصيرِ في عِبـادَةِ**

(١) الشّيخ الطّوسي، مصباح المتهجّد: ٥٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ٨٤٦.

(٣) ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالئ اللّئالي: ١١٤/٤.

(٤) المصدر نفسه: ١٣٢/٤.

الله وَطاعَتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعالى لا يُعْبَدُ حَـقَّ عِبادَتِـهِ»[١]؛ لأنَّ هـذا الشّعور يـدفع الإنسان إلى سدّ هـذا النّقص، ويضعه على سُلَّم التّكامـل؛ ليواصـل الجـدّ لنيـل مراتب أعلى في طاعة الله سبحانه وفيوضاته، وبذلك يكون التّواضع قـوّةَ تحريـكٍ وتصعيدٍ للإنسان؛ للعروج في سلم الكمال.

٢- **التّواضع للمؤمنين:** وهو ثمـرة مـن ثمـرات التّواضـع لله سـبحانه؛ فـإنّ الإيمان إذا حلَّ في النَّفس كشف عنها ظلمـات الذّاتيّـة والأنانيّـة، فـإذا انكشـفت تلك الظّلمات أصبح الإنسان متحرّراً من قيود الأنا وأغلالهـا الّتـي تُقَوْقِعُ الإنسـان وتحبسه في صندوق مظلم يبقى يدور فيه من نفسه إلى نفسه، يقول سيّد العارفين في هـذا العصـر الإمـام الخمينـيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «نحـن أيضـاً مـا زلنـا فـي حجـاب الـنّفس والأنانيّة، فنحن شيْطانيّون مطرودون من محضر الرّحمن، وما أصعب تحطيم هـذا الصّنم الذي يعدّ «أمّ الأصنام»، فنحن ما دمنا خاضعين له، مطيعين لأوامره، فـنحن غير خاضعين لله جلَّ وعلا، غير طائعين لأوامره؛ وما لم يحطَّـم هـذا الصـنم، فـإنَّ الحجب الظّلمانيّة لن تتمزّق ولن تُزال»[٢].

فإذا تحطّـم صـنم الأنـا، انفـتح أُفـق الإنسـان، وصـار ينظـر بعيـداً، ويعـرف حجمـه، وحقيقـة وجـوده، ودوره فـي الحيـاة، حينئـذٍ ينظـر إلـى الآخـرين بعـين الاحترام والتّوقير؛ فلا يتطاول على أحـد، بـل يعـدّ كـلّ مـن يلتقيـه مـن المـؤمنين أفضل منه، فإن كـان «**أَكْبَرَ مِنْهُ قالَ: قَدْ سَبَقَني بِالإيمانِ وَالْعَمَلِ الصّالِحِ، وَإِنْ كانَ أَصْغَرَ مِنْهُ قالَ: سَبَقْتُهُ بِالْمَعاصي وَالذُّنوبِ، وَإِنْ كانَ تِرْبَـهُ قـالَ: أَنـا**

(١) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٣٣١، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٤٣٩/٦، ح/٣١٨١.
(٢) موعد اللّقاء: ٨٣.

عَلى يَقينٍ مِنْ ذَنْبي، وَفي شَكٍّ مِنْ ذَنْبِهِ، فَمـا لـي أَدَعُ يَقينـي لِشَـكّي»[١]؛ فالجميع إذن أفضل منّي؛ ولهذا قيل: «التّواضع أن تخرج من منزلك، ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً»[٢].

وسُئِلَ أحدهم: «متى يكون الإنسان متواضعاً؟»، قال: «إذا لم يرَ لنفسه مقاماً، ولا حالاً، وتواضعُ كلّ إنسان على قدر معرفته بربّه عزَّ وجلّ ومعرفته بنفسه»[٣].

وسُئِلَ الفضيل بن عياض عن التّواضع: ما هو؟ فقال: «أن تخضع للحقّ، وتنقاد له، ولو سمعته من صبيّ قبلته، ولو سمعتَه من أجهل النّاس قبلته»[٤].

فالتّواضع إذن هو: تجاوز الذّاتيّة والأنانيّة، والعبور منها إلى الغيريّة، وبعبارة الأخرى: هو الضّغط على العواطف الذّاتيّة بتقديم الغير على النفس، والشّعور بأنّ الغير أفضل منه لسبب من الأسباب، وهذا لا يحصل إلا عند أصحاب النّفوس الزّكيّة المطهّرة من الأدران، ومن ذمائم الأخلاق، وأصحاب العقول الرّاجحة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما نَقَّصَ نَفْسَهُ إلا كامِلٌ».

«ما حَقَّرَ نَفْسَهُ إلا عاقِلٌ».

«ما تَواضَعَ إلا رَفيعٌ».

---

(١) اقتباس لمعنى حديث للإمام زين العابدين عليه السلام، ينظر الحديث مفصّلاً في الاحتجاج للشّيخ الطّبرسي: ٣٦٤/٢.

(٢) إحياء علوم الدّين: ٣٤٢/٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٣/٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣٤٢/٣.

«كَفى بِالْمَرْءِ فَضيلَةً أَنْ يُنَقِّصَ نَفْسَهُ».

«وَجيهُ النّاسِ مَنْ تَواضَعَ مَعَ رِفْعَةٍ، وَذَلَّ مَعَ مَنَعَةٍ»(١).

التَّكَبُّرُ عَلى الْمُتَكَبِّرِ تَواضُعٌ:

ولا بدّ أن نشير أنَّ التواضع إنّما يكون للمتواضع؛ أما المتكبّر إذا تواضعتَ إليه عدَّه ذلةً ووضاعة، فلا ينبغي أن يُتَواضَع إليه، بل قيل: «التّكبّر على ذي التّكبّر عليك بماله تواضع»(٢)؛ وذلك لأنَّ وضيع النَّفس إذا أحسّ بإنسان يتواضع له، استصغره، واستذله؛ ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: **«احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدودِهِ عَلى اللَّطَفِ وَالْمُقارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمودِهِ عَلى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَباعُدِهِ عَلى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلى اللّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلى الْعُذْرِ، حَتّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ. وَإِيّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ»**(٣).

إذن لا ينبغي أن يتواضع المؤمن إلا لمن هو أهل للتّواضع، وهو من يعرف قيمة التّواضع، وأنّها نابعة من شرف الإنسان، وطهارة نفسه، ورجاجة عقله؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إذا رَأَيْتُمُ الْمُتَواضِعينَ مِنْ أُمَّتي فَتَواضَعوا لَهُمْ، وَإِذا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرينَ، فَتَكَبَّروا عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ ذلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغار»**(٤).

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٩، ح/٥١٥٢-٥١٥٣-٥١٥٤-٥١٥٠-٥١٥٥.

(٢) إحياء علوم الدّين: ٣٤٣/٣.

(٣) نهج البلاغة: ٤٢٦، كتاب: ٣١.

(٤) إحياء علوم الدّين: ٣٤١/٣.

آثارُ التَّواضُعِ:

للتّواضع آثارٌ اجتماعيّةٌ عظيمةٌ في شخصيّة الإنسان، ومن تلك الآثار: انتشار فضله، وارتفاع شأنه، وسموّ شرفه، وتعاظم قدره، وازدياد حبّه في القلوب، وانتظام أموره؛ فهو يملك القلوب من غير سلطة إلا سلطة الخلق الرّفيع، ويتقدّم على النّاس في مسيرتهم، وبحسن رضاهم، والسِّرُّ في ذلك هو: أنّ سنّة الله تعالى في خلقه: ما من إنسان تواضع لله تعالى إلا رفعه، كما أكّدت ذلك الرّوايات الكثيرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ تَواضَعَ عَظَّمَهُ اللهُ ورَفَعَهُ».

«ما تَواضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا زادَهُ اللهُ تَعالى جَلالَةً»[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«لا عِزَّ إلا لِمَنْ تَذَلَّلَ للهِ، ولا رِفْعَةَ إلا لِمَنْ تَواضَعَ للهِ»**[(٢)].

وهذه الرّفعة تأتي من قرب الإنسان لله تعالى؛ لأنّ المؤمن كلّما تواضع لله تعالى ازداد قرباً إليه؛ قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: **«أَوْحى اللهُ تَعالى إلى داودَ عليه السلام: يا داودُ، إنَّ أَقْرَبَ النّاسِ مِنّي يَوْمَ الْقِيامَةِ الْمُتَواضِعونَ، وكَذلِكَ أَبْعَدُ النّاسِ مِنّي يَوْمَ الْقِيامَةِ الْمُتَكَبِّرونَ»**[(٣)].

والأمر الآخر في سبب رفعة المتواضع، هو: أنّ الإنسان بفطرته يحبّ من يحترمه ويكرمه، وليس هناك أكثر إكراماً من المتواضع للآخرين، ويعجبني أن

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٩، ح/٥١٧٢-٥١٧٥.

(٢) علي الطّبرسي، مشكاة الأنوار: ١٠١/٢، ح/١٣٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٣/٢، ح/١٣٢٩.

أنقل كلام الحكيم الصّينيّ **لاوْتسي** قال: «إنّ سبب تلقّي البحار والأنهار مياه مئات الينابيع الجبليّة يكمن في كونها أدنى منها؛ وهكذا تستطيع التّحكّم بكلّ الينابيع الجبليّة؛ وهكذا إن أراد الحكيم أن يكون فوق سائر النّاس، يجب أن يضع نفسه أدنى منهم، وإن أراد أن يكون في مقدّمتهم يضع نفسه خلفهم؛ وهكذا رغم وجوده فوق سائر النّاس، فهم لن يشعروا بثقله، ورغم وجوده في المقدّمة فهم لن يعتبروا ذلك إهانة لهم»[١].

حُدودُ التَّواضُعِ:

يظهر تواضع الإنسان من خلال مخالطته ومعاشرته للناس؛ فلا يقدّم نفسه على أحد لا في مسير، ولا في مجلس، ولا ينتظر من النّاس أن يقدّموا له خدماتهم واحتراماتهم، وإنّما هو الّذي يبادر، ويسارع، ويقدّم الآخرين على نفسه، يحترم الكبير، ويعطف على الصغير، ليّناً، مدارياً، بشوشاً، خاضعاً للحقّ ولو كان على نفسه، أينما كان، وعند من كان، وقد أكّدت كلّ ذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«مِنَ التّواضُعِ أَنْ تَرْضى بِالْمَجْلِسِ دونَ الْمَجْلِسِ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلى مَنْ تَلْقى، وَأَنْ تَتْرُكَ الْمِراءَ، وَإِنْ كُنْتَ مُحِقّاً، وَلا تُحِبَّ أَنْ تُحْمَدَ عَلى التَّقْوى»**[٢].

وسأل الحسن بن الجهم الإمام الرّضا عليه السلام قائلاً: «ما حدّ التّواضع؟»، قال عليه السلام: **«أَنْ تُعْطِيَ النّاسِ مِنْ نَفْسِكَ ما تُحِبّ أَنْ يُعْطوكَ مِثْلَهُ»**[٣].

---

(١) ديل كارنيجي، كيف تتعامل مع النّاس: ١٧٢-١٧٣.

(٢) الكافي: ٣١٧/٣، ح/ ١٨٦٨.

(٣) مشكاة الأنوار: ١٠٣/٢، ح/١٣٢٨.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**ثَلاثٌ هُنَّ رَأْسُ التَّواضُعِ: أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلامِ مَنْ لَقِيَهُ، وَيَرْضى بِالدّونِ مِن شَرَفِ الْمَجْلِسِ، وَيَكْرَهُ الرِّياءَ وَالسُّمْعَةَ**»(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كانَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله إِذا دَخَلَ مَنْزِلاً قَعَدَ في أَدْنى الْمَجْلِسِ إِلَيْهِ حينَ يَدْخُلُ**»(٢).

في رِحابِ الْمُتَواضِعينَ:

كلّ الّذي تقدّم حول التّواضع أمور نظريّة، فلننظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام يمارسون ذلك في حياتهم اليوميّة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلَقَدْ كانَ صلى الله عليه وآله يَأْكُلُ عَلى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِه نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمارَ الْعارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ**»(٣)...

وكان صلى الله عليه وآله «يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألّف أهل الشّرف بالبرّ لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه... وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس... لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً مستوياً»(٤).

---

(١) المتّقي الهندي، كنز العمّال: ٧٠١/٣، ح/٨٥٠٦.

(٢) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٤٧٤/٨.

(٣) نهج البلاغة: ٢٥٨، خطبة: ١٦٠، وسنن النّبيّ صلى الله عليه وآله للعلامة الطّباطبائي: ١١١.

(٤) إحياء علوم الدّين: ٣٦٣/٢-٣٦٤، وسنن النّبيّ صلى الله عليه وآله: ١١٣-١١٤.

وعن جعفر، عن أبيه عليهما السلام: «**إنَّ الْمَساكينَ كانوا يَبيتونَ في الْمَسْجِدِ عَلى عَهْدِ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله، فَأَفْطَرَ النّبيّ صلى الله عليه وآله مَعَ الْمَساكينَ الَّذينَ في الْمَسْجِدِ ذاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمِنْبَرِ في بُرْمَةٍ[1]، فَأَكَلَ مِنْها ثَلاثونَ رَجُلاً، ثُمَّ رُدَّتْ إِلى أَزْواجِهِ شَبَّعَهُنَّ**»[2].

وأكثر من هذا كما جاء في المناقب أنَّه صلى الله عليه وآله «كان يجلس على الأرض، وينام عليها، ويأكل عليها، وكان يخصف النَّعْلَ، ويرقع الثَّوْب، ويفتح الباب، ويحلب الشّاةَ، ويعقل البعير فيحلبها، ويطحن مع الخادم إذا أعيى، ويضع طهوره باللّيل بيده، ولا يتقدّمه مطرق، ولا يجلس متّكئاً، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللّحم، وإذا جلس على الطعام جلس محقّراً»[3].

وكان صلى الله عليه وآله «**إِذا انْتَهى إِلى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بذلِكَ**»[4].

ومن روائع أخلاقه وتواضعه ما رُوِيَ عن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**مَرَّتْ امْرَأَةٌ بَذِيَّةٌ برَسولِ الله صلى الله عليه وآله، وَهُوَ يَأْكُلُ، وَهُوَ جالِسٌ عَلى الْحَضيضِ، فَقالَتْ: يا مُحَمَّدُ، وَالله إِنَّكَ لَتَأْكُلُ أَكْلَ العبد، وَتَجْلِسُ جُلوسَهُ، فَقالَ لَها رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: وَيْحَكِ وَأَيّ عَبْدٍ أَعْبَدُ مِنّي؟! قالَتْ: فَناوِلْني لُقْمَةً مِنْ طَعامِكَ، فَناوَلَها، فقالَتْ: لا والله، إلا الَّتي في فيكَ، فَأَخْرَجَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله اللُّقْمَةَ مِنْ فَمِهِ، فَناوَلَها، فَأَكَلَتْها**»، قال أبو عبد الله عليه السلام:

---

(١) مفردة بِرام، وهي القدر.

(٢) الحميري، قرب الإسناد: ١٤٨.

(٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ١/١٩٠-١٩١.

(٤) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٨٢، وسنن النّبي صلى الله عليه وآله: ١٠٤.

«فَما أَصابَها داءٌ حَتّى فارَقَتِ الدُّنْيا روحَها»[١].

ومن تواضعه ﷺ أنَّه لم يكن يميّز نفسه عن أصحابه، لا في مجلس، ولا موقف، إلا بما ميَّزَهُ الله تعالى بِهِ، حتى أنَّ الأعرابي كان يأتي إلى مجلسه فلا يعرفه، فيقول: «أيّكم محمّد؟»، قال أبو ذر: «كانَ رَسولُ الله ﷺ يَجْلُسُ بَيْنَ ظَهْرانيّ أَصْحابِهِ، فَيَجيءُ الْغَريبُ فَلا يَدْري أَيُّهُمْ هُوَ حَتّى يَسْأَلَ، فَطَلَبْنا إِلى النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ مَجْلِساً يَعْرِفُهُ الْغَريبُ إِذا أَتاهُ، فَبَنَيْنا لَهُ دُكّاناً مِنْ طينٍ، فَكانَ يَجْلُسُ عَلَيْهِ وَنَجْلُسُ بِجانِبَيْهِ»[٢].

وكان ﷺ «يمشي راجلاً، حافياً بلا رداء، ولا عمامة، ولا قلنسوة، ويشيّع الجنائز، ويعود المرضى في أقصى المدينة»[٣].

وكان ﷺ من تواضعه أنّه يساير أصحابه فيما يتحدّثون، ويضحك ممّا يضحكون، رُوِي عن زيد بن ثابت: «أنّ النبي ﷺ كنّا إذا جلسنا إليه إن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في الدُّنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطّعام والشّراب أخذ معنا، فكلّ هذا أُحَدِّثُكم عن رسول الله ﷺ»[٤].

ومن تواضعه ﷺ أنّه كان «يؤتى بالصّبي الصّغير ليدعو له بالبركة، أو يسمّيه، فيأخذه فيضعه في حجره تكرمة لأهله، فربّما بال الصّبيّ عليه، فيصيح بعض من رآه حين يبول فيقول ﷺ: **لا تَزْرِموا**[٥] **بِالصَّبِيِّ**، فيدعه حتّى يَقْضِيَ

(١) البرقي، المحاسن: ٢/٢٤٥، ح/١٧٦٠.

(٢) الطّبرسي، مكارم الأخلاق: ١٦، وسنن النّبيّ ﷺ: ١٢٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ١/١٩١، وسنن النّبيّ ﷺ: ١٣٤.

(٤) بحار الأنوار: ١٦/٢٣٥.

(٥) الإزرام: القطع، وأزرم بوله: قطعه.

بَوْلَهُ، ثمّ يفرغ له من دعائه، أو تسميته، ويبلغ سرور أهله فيه، ولا يرون أنه يتأذّى ببول صبيّهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده»(١).

أَمْثِلَةٌ مِنْ تَواضُعِ الأَئِمَّةُ الْمَعْصومينَ عليهم السلام:

لم تكن حياةُ الإمام عليّ عليه السلام وأولاده المعصومين لتختلفَ عن حياة رسول الله صلى الله عليه وآله قيد أنملة، وإنّما هي المثال الأمثل لسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكيف لا وهو الّذي ما فارق رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو القائل: «**وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتّباعَ الْفَصيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لي في كُلّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاقِهِ، وَيَأْمُرُني بالاقْتِداء بِهِ**»(٢)؛ ولهذا نجد في سيرته عليه السلام تجسيداً حيّاً لسيرة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد ذكر المؤرّخون أمثلةً من تواضعه، نذكر قليلاً منها:

جاء عن الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام أنّه قال: «**أَعْرَفُ النّاسِ بِحُقوقِ إِخْوانِهِ وَأَشَدُّهُمْ قَضاءً لَها أَعْظَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ شَأناً، وَمَنْ تَواضَعَ فِي الدُّنْيا لإِخْوانِهِ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الصِّدّيقينَ، وَمِنْ شيعَةِ عَلِيّ بْنِ أَبي طالِبٍ عليه السلام حَقّاً، وَلَقَدْ وَرَدَ عَلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عليه السلام أَخَوانِ لَهُ مُؤمِنانِ أَبٌ وَابْنٌ، فَقامَ إِلَيْهِما، وَأَكْرَمَهُما، وَأَجْلَسَهُما في صَدْرِ مَجْلِسِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ أَيديهما، ثُمَّ أَمَرَ بِطَعامٍ فَأُحْضِرَ، فَأَكَلا مِنْهُ، ثُمَّ جاءَ قَنْبَرٌ بِطَسْتٍ، وَإِبْريقِ خَشَبٍ، وَمِنْديلٍ لِيَيْبُسَ، وَجاءَ لِيَصُبَّ عَلى يَدِ الرَّجُلِ ماءً، فَوَثَبَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عليه السلام فَأَخَذَ الإبريق؛ لِيَصُبَّ عَلى يَدِ الرَّجُلِ، فَتَمَرَّغَ الرَّجُلُ فِي التُّرابِ،**

(١) مكارم الأخلاق: ٢٥، وسنن النّبيّ صلى الله عليه وآله: ١٢٢.

(٢) نهج البلاغة: ٣٢٩، خطبة: ١٩٢.

وَقالَ: يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ، اللهُ يَراني وَأَنْتَ تَصُبُّ عَلى يَدي؟!!

قالَ: اقْعُدْ وَاغْسِلْ يَدَكَ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَراكَ، وَأَخوكَ الَّذي لا يَتَمَيَّزُ مِنْكَ، وَلا يَتَفَضَّلُ عَلَيْكَ يَخْدِمُكَ، يُزيدُ بِذلِكَ في خَدَمِهِ في الْجَنَّةِ مِثْلُ عَشْرَةِ أَضْعافِ عَدَدِ أَهْلِ الدُّنْيا، وَعَلى حَسْبِ ذلِكَ في مَماليكِهِ فيها.

فَقَعَدَ الرَّجُلُ، فَقالَ لَهُ عَلِيٌّ عليه السلام: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِعَظيمِ حَقّي الَّذي عَرَفْتَهُ، وَبَجَلَّتَهُ، وَتَواضُعِكَ للهِ بِأَنْ نَدَبَني لِما شَرَّفَكَ بِهِ مِنْ خِدْمَتي لَكَ، لَما غَسَلْتَ مُطْمَئِنّاً كَما كُنْتَ تَغْسِلُ لَوْ كانَ الصّابُّ عَلَيْكَ قَنْبَراً، فَفَعَلَ الرَّجُلُ.

فَلَمّا فَرِغَ ناوَلَ الإِبْريقَ مُحَمَّد بْنَ الْحَنَفِيَّةِ، وَقالَ: يا بُنَيّ، لَوْ كانَ هذا الابْنُ حَضَرَني دونَ أَبيهِ لَصَبَبْتُ عَلى يَدِهِ، وَلكِنَّ اللهَ يَأْبى أَنْ يُسَوّى بَيْنَ ابْنٍ وَأَبيهِ إِذا جَمَعَهُما مَكانٌ، لكِنْ قَدْ صَبَّ الأَبُ عَلى الأَبِ، فَلْيَصُبّ الابْنُ عَلى الابْنِ، فَصَبَّ مُحَمَّد بْنُ الْحَنَفِيَّةِ عَلى الابْنِ»، ثمّ قال الحسن العسكري عليه السلام: «فَمَنْ اتَّبَعَ عَلِيّاً عَلى ذلِكَ فَهُوَ الشّيعيّ حَقّاً»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام في خبر: «أَنَّهُ رَجَعَ عَلِيٌّ عليه السلام إِلى دارِهِ في وَقْتِ الْقَيْظِ، فَإِذا امْرَأَةٌ قائِمَةٌ تَقولُ: إِنَّ زَوْجي ظَلَمَني، وَأَخافَني، وَتَعَدّى عَلَيَّ، وَحَلَفَ لَيَضْرِبَني، فَقالَ عليه السلام: يا أَمَةَ اللهِ، اصْبِري حَتّى يَبْرُدَ النَّهارَ، ثُمَّ أَذْهَبُ مَعَكِ إِنْ شاءَ اللهُ، فَقالَتْ: يَشْتَدُّ غَضَبَهُ وَحرْدَهُ[2] عَلَيَّ، فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ، وَهُوَ يَقولُ: لا وَاللهِ، أَوَ يُؤْخَذُ لِلْمَظْلومِ حَقُّهُ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ[3]، أَيْنَ

(١) الشّيخ الطّبرسي، الاحتجاج: ٥١٦/٢-٥١٧.

(٢) حرد عليه: غضب واغتاظ، فتحرّش بالذي غاظه وهمَّ به.

(٣) غير متعتع: أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه.

مَنْزِلُكِ؟ فَمَضى إلى بابِهِ، فَقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فَخَرَجَ شابٌّ، فَقالَ عَلِيٌّ عليه السلام**: يا عَبْدَ الله، اتّقِ اللهَ؛ فإنَّكَ قَدْ أَخفْتَها وأَخْرَجْتَها، فَقالَ الْفَتى: وَما أَنْتَ وَذاكَ؟ واللهِ لأُحَرِّقَنَّها لِكَلامِكَ؛ فَقالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ** عليه السلام**: آمُرُكَ بِالْمَعْروفِ، وأَنْهاكَ عَنِ الْمُنْكَرِ، تَسْتَقْبِلُني بِالْمُنْكَرِ، وتَنْكُرُ الْمَعْروفَ؟».**

قال: «**فَأَقْبَلَ النّاسُ مِنَ الطُّرُقِ، ويَقولونَ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ، فَسَقَطَ الرَّجُلُ في يَدَيْهِ، فَقالَ: يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ، أَقِلْني عَثْرَتي، فَوَاللهِ لأَكونَنَّ لَها أَرْضاً تَطَأني، فَأَغْمَدَ عَلِيٌّ** عليه السلام **سَيْفَهُ، فَقالَ: يا أَمَةَ اللهِ، ادْخُلي مَنْزِلَكِ، وَلا تُلْجِئي زَوْجَكِ إلى مِثْلِ هذا وَشِبْهِهِ**»[1].

وروى الفجنكرودي في سلوة الشّيعة له عليه السلام[2]: [من الكامل]

ودَعِ التَّجبّر والتّكبّر يا أخي ... إنَّ التّكبّر لِلْعَبيدِ وبيلُ
وَاجْعَلْ فُؤادَكَ لِلتّواضعِ مَنْزلاً ... إنَّ التَّواضُعَ بالشَّريفِ جَميلُ

ومن روائع تواضعه أنّه عليه السلام «نظر إلى امرأة على كتفها قربة ماء، فأخذ منها القربة، فحملها إلى موضعها، وسألها عن حالها، فقالت: بعث عليّ بن أبي طالب صاحبي (زوجي) إلى بعض الثّغور فقُتل، وترك عليَّ صبياناً يتامى، وليس عندي شيءٌ، فقد ألجأتني الضّرورة إلى خدمة النّاس، فانصرف وبات ليلته قَلِقاً، فلمّا أصبح حمل زنبيلاً فيه طعام، فقال بعضهم: أعطني أحمله عنك، فقال: **مَنْ يَحْمِلُ وِزْري عَنّي يَوْمَ الْقِيامَةِ؟** فأتى وقرع الباب، فقالت: من هذا؟ قال: **أَنا ذلِكَ الْعَبْدُ الّذي حَمَلَ مَعَكِ الْقِرْبَةَ، فَافْتَحي؛ فَإِنَّ مَعِيَ شَيْئاً لِلصِّبْيانِ،**

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/١٢٢-١٢٣.

(٢) المصدر نفسه.

فقالت: رضي الله عنك وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب، فدخل وقال: **إنّي أَحْبَبْتُ اكْتِسابَ الثَّوابِ، فَاخْتاري بَيْنَ أَنْ تَعْجِني وَتَخْبِزي، وَبَيْنَ أَنْ تُعَلّلي الصِّبْيانَ لأَخْبُزَ أَنا**، فقالت: أنا بالخبز أبصر، وعليه أقدر، ولكن شأنك والصّبيان، فَعَلّلْهُم حتى أفرغ من الخبز، فعمدت إلى الدّقيق فعجنته، وعمد عَلِيٌّ عليه السلام إلى اللّحم فطبخه، وجعل يلقم الصّبيان من اللّحم والتّمر وغيره، فكلّما ناول الصّبيان من ذلك شيئاً قال له: **يا بُنَيّ، اجْعَلْ عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ في حِلّ مِمّا مَرَّ في أَمْرِكِ**، فَلَمّا اختمر العجين، قالت: يا عبد الله، [ا]سجر التّنّور[1]، فبادر لسجره، فلمّا أشعله، ولفح في وجهه جعل يقول: **ذُقْ يا عَلِيُّ، هذا جَزاءُ مَنْ ضَيَّعَ الأَرامِلَ وَالْيَتامى**، فَرَأَتْهُ امرأةٌ تعرفه، فقالت: ويحكِ هذا أمير المؤمنين، قال: فبادرت المرأة وهي تقول: وا حيائي منك يا أمير المؤمنين، فقال: **بَلْ وا حَيائي مِنْكَ يا أَمَةَ الله فيما قَصَّرْتُ في أَمْرِكَ**»[2].

ورغم كثرة عبادته، وجهاده في سبيل الله، وتضحياته الجمّة الّتي شهد بها المحبّ له والمبغض، تراه متواضعاً لله، خائفاً أن لا يقبل الله منه شيئاً، فقد قيل له: «كم تتصدّق؟! كم تخرج مالك؟! ألا تمسك؟» قال: «**إنّي وَالله لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ الله تَعالى قَبِلَ مِنّي فَرْضاً واحِداً لأَمْسَكْتُ، وَلَكِنّي وَالله لا أَدْري أَقَبِلَ سُبْحانَهُ مِنّي شَيْئاً أَمْ لا**»[3].

ومن تواضع الإمام الحسن بن علي عليه السلام: أنّه مرَّ «على فقراء قد وضعوا

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/١٢٢-١٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢/١٣٣-١٣٤، وبحار الأنوار: ٤١/٥٢.

(٣) بحار الأنوار: ٤١/١٣٨.

كُسَيرات على الأرض، وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها، فقالوا له: هَلُمَّ يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء، قال: فنزل، وقال: **إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**، وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا، والزّاد على حاله ببركته، ثمّ دعاهم إلى ضيافته، وأطعمهم، وكساهم»[1].

ومن تواضعه عليه السلام أنَّه كان لا يعتذر عن قضاء حاجة مؤمن أبداً، فقد رُوِيَ أنَّه عليه السلام خرج «يطوف بالكعبة، فقام إليه رجل، فقال: يا أبا محمّد، اذهب معي في حاجتي إلى فلان، فترك الطّواف، وذهب معه، فلمّا ذهب، خرج إليه رجلٌ حاسدٌ للرّجل الذي ذهب معه، فقال: يا أبا محمّد، تركتَ الطّواف، وذهبتَ مع فلان إلى حاجته؟! قال: فقال له [الـ]ـحسن عليه السلام: **وكَيْفَ لا أَذْهَبُ مَعَهُ، ورَسولُ الله** صلى الله عليه وآله **قالَ: «مَنْ ذَهَبَ في حاجَةِ أَخيهِ الْمُسْلِمِ فَقُضِيَتْ حاجَتُهُ كُتِبَتْ لَهُ حَجَّةٌ وَعُمْرَةٌ، وإِنْ لَمْ تُقْضَ كُتِبَتْ لَهُ عُمْرَةٌ»، فَقَدْ اكْتَسَبْتُ حَجَّةً وَعُمْرَةً، وَرَجعْتُ إلى طَوافي**»[2].

ومن روائع صور التّواضع ما اشْتُهِرَ عن الإمام زين العابدين عليه السلام برواية حفيده الصّادق عليه السلام قال: «**كانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ** عليه السلام **لا يُسافِرُ إلا مَعَ رِفْقَةٍ لا يَعْرِفونَهُ، ويَشْتَرِطُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكونَ مِنْ خَدَمِ الرِّفْقَةِ فيما يَحتاجونَ إِلَيْهِ، فَسافَرَ مَرَّةً مَعَ قَوْمٍ، فَرآهُ رَجُلٌ فَعَرَفَهُ، فَقالَ لَهُمْ: أَتَدْرونَ مَنْ هذا؟ قالوا: لا، قالَ: هذا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَوَثَبوا، فَقَبَّلوا يَدَهُ وَرِجْلَهُ، وَقالوا: يا ابْنَ رَسولِ الله، أَرَدْتَ أَنْ تُصْلِيَنا نارَ جَهَنَّمَ؟ لَوْ بَدَرَتْ مِنّا إِلَيْكَ يَدٌ أَوْ لِسانٌ أَما**

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢٧/٤.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٢٤٨/١٣.

كُنّا قَدْ هَلَكْنا آخِرَ الدَّهْرِ؟ فَما الَّذي يَحْمِلُكَ عَلى هذا؟ فَقالَ عليه السلام: **إنّي كُنْتُ سافَرْتُ مَرَّةً مَعَ قَوْمٍ يَعْرِفونَني، فَأَعْطَوْني بِرَسولِ الله** صلى الله عليه وآله **ما لا أَسْتَحِقُّ بِهِ، فَإِنّي أَخافُ أَنْ تُعْطوني مِثْلَ ذلِكَ، فَصارَ كِتْمانُ أَمْري أَحَبَّ إِلَيّ»**[1].

ومن عظيم تواضعه أنه كان يحمل كيساً، ويدور على بيوت الأرامل والأيتام متنكّراً؛ ليوصل إليهم مؤونتهم، وقد رآه الزّهري في ليلة باردة مطيرة، وعلى ظهره دقيق، وهو يمشي، فقال: «يا ابْنَ رَسولِ الله، ما هذا؟»، قال: «**أُريدُ سَفَراً، أُعِدُّ لَهُ زاداً، أَحْمِلُهُ إِلى مَوْضِعٍ حَريزٍ**»، فقال الزّهري: «فهذا غلامي يحمله عنك»، فأبى، قال: «أنا أحمله عنك؛ فإنّي أرفعك عن حمله»، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: «**لكِنّي لا أَرْفَعُ نَفْسي عَمّا يُنْجيني في سَفَري، وَيُحْسِنُ وُرودي عَلى ما أَرِدُ عَلَيْهِ، أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الله لَما مَضَيْتَ لِحاجَتِكَ وَتَرَكْتَني**»، فانصرف عنه، فلمّا كان بعد أيام قال له: «يا ابنَ رسول الله، لستُ أرى لذلك السّفر الّذي ذكرته أثراً»، قال: «**بَلى يا زُهْرِيّ، لَيْسَ ما ظَنَنْتَهُ، وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ، وَلَهُ كُنْتُ أَسْتَعِدُّ، إِنَّما الاسْتِعْدادُ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الْحَرامِ، وَبَذْلُ النَّدى وَالْخَيْرِ**»[2].

وكان الإمام محمّد الباقر عليه السلام كأبيه متواضعاً لله، ولعباده الصالحين؛ يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدِرِ كانَ يَقولُ: ما كُنْتُ أَرى أَنَّ مِثْلَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ يَدَعُ خَلَفاً - لِفَضْلِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ - حَتّى**

---

(١) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرِّضا عليه السلام: ١٤٥/٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٣٠٩/١-٣١٠.

رَأَيْتُ ابْنَهُ مُحَمَّد بْنَ عَلِيّ، فَأَرْدَتُ أَنْ أَعِظَهُ فَوَعَظَنِي، فَقالَ لَهُ أَصْحابُهُ: بِأَيِّ شَيْءٍ وَعَظَكَ؟

قالَ: خَرَجْتُ إِلى بَعْضِ نَواحي الْمَدينَةِ في ساعَةٍ حارَّةٍ، فَلَقيتُ مُحَمَّد بْنَ عَلِيّ عليه السلام - وَكانَ رَجُلاً بَديناً - وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلى غُلامَيْنِ لَهُ أَسْوَدَيْنِ، أَوْ مَوْلَيَيْنِ لَهُ، فَقُلْتُ في نَفْسي: شَيْخٌ مِنْ شُيوخِ قُرَيْشٍ في هذِهِ السّاعَةِ عَلى هذِهِ الْحالِ في طَلَبِ الدُّنْيا! أَشْهَدُ لأَعِظَنَّهُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ بِبُهْرٍ[1]، وَقَدْ تَصَبَّبَ عَرَقاً، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللهُ، شيخٌ مِنْ أَشْياخِ قُرَيْشٍ في هذِهِ السّاعَةِ عَلى هذِهِ الْحالِ في طَلَبِ الدُّنْيا! لَوْ جاءَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلى هذِهِ الْحالِ؟!

قالَ: فَخَلَّى عَنِ الْغُلامَيْنِ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ تَسانَدَ، وَقالَ: لَوْ جاءَني وَاللهِ الْمَوْتُ، وَأَنا (في هذِهِ) الْحالِ، جاءَني وَأَنا في طاعَةٍ مِنْ طاعاتِ اللهِ، أَكُفُّ بِها نَفْسي عَنْكَ، وَعَنِ النّاسِ، وَإِنّما كُنْتُ أَخافُ الْمَوْتَ لَوْ جاءَني وَأَنا عَلى مَعْصِيَةٍ مِنْ مَعاصي اللهِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، أَرَدْتُ أَنْ أَعِظَكَ فَوَعَظْتَني»[2].

ومثل هذه الرّواية رُوِيَتْ أيضاً عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام؛ فعن أبي عمرو الشّيباني، قال: «رأيتُ أبا عبد الله عليه السلام وبيده مسحاةٌ، وعليه إزارٌ غليظٌ يعمل في حائطٍ له، والعرق يتصابُّ عن ظهره، فقلتُ: جُعِلْتُ فداك، أعطِني

(١) البهر: تتابع النّفس.

(٢) الشّيخ المفيد، الإرشاد: ١٦١/٢-١٦٢.

أَكْفِكَ، فقال لي: **إِنّي أُحِبُّ أَنْ يَتَـأَذّى الرَّجُـلُ بِحَـرِّ الشَّـمْسِ فـي طَلَـبِ الْمَعيشَةِ**»[١].

ويقـول عليه السلام: «**إنّي لأَعْمَلُ في بَعْضِ ضِياعي حَتّى أَعْرَق، وَإِنَّ لي مَنْ يَكْفيني؛ لِيَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنّي أَطْلُبُ الرِّزْقَ الْحَلالَ**»[٢].

ورُوِيَ عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام «أنَّـه مَـرَّ برَجـل مـن أهـل السّـواد، دميم المنظر، فسلَّم عليه، ونزل عنده، وحادثه طويلاً، ثم عـرض عليه السلام عليـه نفسـه في القيام بحاجة إن عرضت له، فقيل له: يا ابـن رسـول الله، أتنـزل إلـى هـذا ثـمَّ تسأله عن حوائجه، وهو إليك أحوج؟ فقـال عليه السلام: **عَبْدٌ مِنْ عَبيدِ الله، وَأَخٌ فـي كِتابِ الله، وَجارٌ في بلادِ الله، يَجْمَعُنا وَإِيّاهُ خَيْرُ الآباء آدَمُ عليه السلام، وَأَفْضَـلُ الأَدْيانِ الإِسْلامُ، ولَعَلَّ الدَّهْرَ يَرُدُّ مِنْ حاجاتِنا إِلَيْهِ، فَيَرانا - بعد الزَّهْوِ عليه - مُتَواضِعينَ بَيْنَ يَدَيْهِ**»[٣].

وضرب الإمامُ عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام المثل الأعلى في التّواضع، قـال رجلٌ من بلخ: «كنتُ مع الرّضا عليه السلام في سفرِهِ إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة لـه، فجمع عليها مواليَهُ من السّودان وغيرهم، فقلت: جُعِلْتُ فداك، لـو عزلـتَ لهـؤلاء مائدةً؟ فقـال: **مَهْ؛ إنَّ الرَّبَّ - تَبارَكَ وَتَعالى - واحِدٌ، وَالأُمَّ واحِـدَةٌ، وَالأَبَ واحِدٌ، وَالْجَزاءَ بالأَعْمال**»[٤].

وقد كان الأئمّة الأطهار عليهم السلام يراقبون سلوك أصحابهم بدقّة متناهية، فـإذا

---

(١) الكافي: ٥٣٧/٩، ح/٨٣٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ٥٣٩/٩، ح/٨٣٨٥.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢٥/٧٨.

(٤) الكافي: ٥٢٥/١٥، ح/١٥١١٢.

ما رأوا ظاهرةً ما عالجوها بحكمة بالغة، فعلى سبيل المثال: كان محمّد بن مسلم رجلاً شريفاً موسراً، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «**تَواضَعْ**»، فلمّا انصرف إلى الكوفة أخذ قَوْصَرَةً من تمر مع الميزان، وجلس على باب مسجد الجامع، وصار ينادي عليه، فجاءه قومه، فقالوا له: «فضحْتَنا»، فقال: «أمرني مولاي بشيء، فلا أبرح حتى أبيع هذه القوصرة»، فقال له قومه: «أمّا إذا أبيت إلا هذا فاقعد في الطّحّانين»، ثم سلّموا إليه رحا، فقعد على بابه وجعل يطحن[1].

وأخيراً بعد هذه الجولة الموجزة في رحاب أولياء الله المتواضعين اتَّضح لنا أهميّة التّواضع في سلوك الكادحين إلى الله، وكيف يقرب الإنسان إلى الله تعالى؟ وكيف يرفع من شأنه في الدُّنيا والآخرة؟ وفي هذه الجولة من الدّروس والعبر ما لا يحيط به إلا من فتح الله بصيرته إليه وعرَّفه نفسه.

ونختم هذا البحث بهذه الحكمة العظيمة للسّيّد المسيح حيث قال عليه السلام: «**يا مَعْشَرَ الْحَوارِيّينَ، لي إِلَيْكُمْ حاجَةٌ، اقْضوها لي**»، قالوا: «قُضِيَتْ حاجتك يا روح الله»، فقام فغسل أقدامهم، فقالوا: «كنّا نحن أحقّ بهذا يا روح الله»، فقال: «**إِنَّ أَحَقَّ النّاسِ بِالْخِدْمَةِ الْعالِمُ، إِنَّما تَواضَعْتُ هكذا لِكَيْما تَتَواضَعوا بَعْدي في النّاسِ كَتَواضُعي لَكُم**»، ثمّ قال عيسى عليه السلام: «**بِالتَّواضُعِ تُعْمَرُ الْحِكْمَةُ لا بِالتَّكَبُّرِ، وَكَذلِكَ في السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ لا في الْجَبَلِ**»[2].

(١) الشّيخ الطّوسي، اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّي): ١/٣٨٨-٣٨٩.

(٢) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٨٣.

الْفِهْرَسْتُ:

المُقدّمة ١١

التّمهيد ١٣

تعريف علم الأخلاق ١٤

أهداف علم الأخلاق ١٤

معنى حسن الخلق ١٧

العناصر الأساسيّة في اكتساب حسن الخلق ١٨

سوء الخلق ٢٣

الباب الأوّل: مدارج التّهذيب

البحث الأوّل: النَّفس في القرآن ٢٩

معرفة النّفس ٣٤

جهاد النّفس ٣٦

تزكية النّفس وتهذيبها ٣٧

محاسبة النّفس ٣٨

مراقبة النّفس ٤٠

كرامة النّفس ٤١
أقسام النَّفس ومراتبها ٤٢
١- النَّفس الأمّارة بالسّوء ٤٣
٢- النّفس اللّوامة ٤٧
٣- النّفس المطمئنّة ٤٩

البحث الثّاني: جهاد النّفس ٥٣
ماذا يعني جهاد النّفس؟ ٥٨
أثر المقاومة ٥٩
أساليب المجاهدة ٦٠
كيف يعرف الإنسان عيوبه؟ ٦١
التّدبّر في عواقب الأعمال قبل الإقدام عليها ٦٦
الجدّيّة في إصلاح النّفس ٦٨
شروط المجاهدة في رأى الإمام الخمينيّ قدس سره ٧٠

البحث الثّالث: محاسبة النَّفس ٧٧
ماهيّة المحاسبة ٨٠
أهمّيّة المحاسبة ٨٥
منهاج المحاسبة ٨٦
خطوات المحاسبة ٨٨

الباب الثّاني: معالي الأخلاق

البحث الأوّل: التّقوى في القرآن **٩٩**

حقيقة التّقوى ١٠١

التّقوى مقاومة إيجابيّة ١٠٣

التَّقوى دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ١٠٥

شموليّة التّقوى واقترانها بجميع المقامات ١٠٦

فوائد التّقوى ١١٦

كيف يكتسب الإنسان التّقوى؟ ١٢٨

الفرق بين الخوف والخشية ١٢٩

أنواع الخوف ١٣٠

حقيقة الرّجاء ١٣١

التّلازم بين الخوف والرّجاء ١٣٢

لماذا التّلازم بين الخوف والرّجاء؟ ١٣٣

كيف نرسّخ حبّ الله في قلوبنا؟ ١٣٨

ما هي النّعم الّتي يذكرها الإنسان؟ ١٤١

تعميق الرَّغبة فيما عند الله ١٤٣

قالوا في التَّقوى ١٤٦

البحث الثّاني: الاستقامة **١٤٩**

تعريف الاستقامة ١٥١

شروط المبدأ الصّالح ١٥٢

معالم الشّخصيّة الرّساليّة ١٥٦

الاستقامة في القرآن ١٦٣
الإيمان بالإمداد الغيبيّ ١٦٥
مواصلة ذكر الله تعالى ١٦٨
أوقات الذّكر في القرآن الكريم ١٧٥
الانتصارُ لله تبارك وتعالى ١٧٩
وعي أنباء الرُّسل ١٨٢
التّمسّك والاعتصام بالقول الثّابت ١٨٧
نماذج رساليّة امتحنت فاستقامت ١٨٩

البحث الثّالث: الإخلاص ٢٠٣
تمهيد ٢٠٥
الإخلاص الفكريّ والعقائديّ ٢١١
الإخلاص الأخلاقيّ ٢١٢
أهمّيّة الإخلاص في العمل ٢١٥
كيف يتحقّق الإخلاص؟ ٢١٩

البحث الرّابع: العبوديّة تحرّر وانطلاق ٢٢١
تمهيد ٢٢٣
حقيقة العبوديّة ٢٢٤
العناصر المكوّنة للعبوديّة ٢٢٨
العوامل التي تخرج الإنسان من العبوديّة لله تعالى ٢٣٥
نتائج العبوديّة الحقّة عند المؤمن ٢٣٨

لماذا يستعبد الله تعالى خلقه؟ ٢٤٠

البحث الخامس: الزُّهد ٢٤٣

حقيقة الزُّهد ٢٤٧

شروط الزُّهد ٢٤٨

أهميّة الزُّهد في السّير والسّلوك إلى الله تعالى ٢٥٠

دور الزُّهد في حياة الإنسان ٢٥٢

١- الرّاحة والاطمئنان وعدم القلق على شيء ٢٥٣

٢- التّبصّر في عيوب الدُّنيا ٢٥٤

٣- إنَّ الزّهد يثمر الحكمة ٢٥٥

٤- بالزّهد تهون المصائب ٢٥٧

٥- الزّهد حصانة للدّين ٢٥٧

٦- الزّهد تحرّر وانطلاق ٢٥٩

في رحاب الزّاهدين ٢٦٠

من حكايات الزّاهدين ٢٦٧

البحث السّادس: الشُّكر ٢٧٣

تعريف الشُّكر ٢٧٦

الفرق بين الشُّكر والحمد ٢٧٨

الإنسان الشَّكور ٢٨٠

ماذا يعني شكر الله لعباده؟ ٢٨٣

العوامل الّتي تدفع الإنسان للشُّكر ٢٨٤

الأسباب الصّارفة عن الشُّكر ٢٨٤
ثمرات الشُّكر ٢٨٥
الشُّكر الحقيقيّ لله تعالى ٢٨٨
الشُّكر على البلاء ٢٨٩
هل التّكليف بالشّكر لله تعالى تكليف بما لا يطاق؟ ٢٩٠
تتميم ٢٩٣

البحث السّابع: الصَّبر ٢٩٧
الصّبر من خواصّ الإنسان ٣٠٠
حاجة المطيع إلى الصّبر ٣٠١
دعائم الصّبر ٣٠٢
نتائج الصّبر ٣٠٣
كيف تتمّ ملكة الصّبر؟ ٣٠٤

البحث الثّامن: الصّدق ٣٠٩
أقسام الصّدق ٣١٢
الصّدق صفةٌ إلهيّةٌ ٣١٥
الصّدق مجمع الفضائل الإنسانيّة ٣١٦
دور الصّدق في حياة المجتمع والفرد ٣١٧
أضرار الكذب ٣١٨

البحث التّاسع: التّوكّل ٣٢١

الأساس الّذي يقوم عليه التّوكّل ٣٢٧
عطاءات التّوكّل ٣٢٨
كيف نكتسب التّوكّل؟ ٣٢٩

البحث العاشر: التّواضع ٣٣٣
التّكبّر على المتكبّر تواضع ٣٤١
آثار التّواضع ٣٤٢
حدود التّواضع ٣٤٣
في رحاب المتواضعين ٣٤٤
أمثلة من تواضع الأئمّة المعصومين عليهم السلام ٣٤٧

الفهرست ٣٥٧